487

رواية

صالح مرسي

A.M.

قاتلة باردة الأعصاب



دار نهضة مصر للنشر

قاتلة

باردة الأعصاب

«... انحل شعرها وراح يتطاير من حول وجهها كأسلاك من ذهب وقد تصاعدت الدماء إلى وجهها فبدت صاعقة الجمال... وبلغ من إتقان «إيلين» لرقصتها أن توقف كل الراقصين والراقصات في الحلبة ما عداها... وإذا بها في لحظة نشوة وقد تغير اللحن إلى موسيقى قوقازية، ترقص تلك الرقصات الشديدة العنف التي يتقنها الروس.. وما هي إلا أيام حتى وصلتها برقية بالغة الاختصار.. برقية تقول:

تخلصي من كل شيء قبل انقضاء أربعة أسابيع!

وهكذا تخلصت واحدة من أهم الجاسوسات في العالم من كل شيء وتلاشت تاركة الجميع يبحثون عنها وكأنها كانت دخانًا استحال إدراكه».

رواية جديدة للمبدع صالح مرسي في عالم الجاسوسية.

رواية تستحق القراءة.

الناشر

Sat.
1/7/2017

للطلب والاستفسار اتصل على
16766
www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group
YouTube

دار نهضة مصر للنشر

6 221133 349819

صالح مرسي

قاتلة باردة الأعصاب

دار نهضة مصر للنشر

الجاســوســية.. لمــاذا؟!

■ حــقًا... لمــاذا الجــاســوســيــة؟!

سـؤال طالما وجُه إليّ... يحمل السـؤال في حناياه علامات اسـتفهام تعبر عن نفسها بوضوح أحيانًا وفي أحيان أخرى تتسلل عبر الحوار مغلفة بدهشة حقيقية وغير مصطنعة... كيف كان الانتقال من الحياة في البحر، مع البحارة والصياديـن وهـذا العالم المفتوح عـلى مصراعيه... إلى عالم محـاط بالغموض والسرية وما لا يدري الكثيرون عنه شيئًا؟!

ويقيني أن السؤال... أيضًا، وفي كل الأحوال - كان يعبرعن تلك الرهبة التـي تنتاب الناس عـادة لا من الغمـوض الذي يغلف هذا العالم فحسـب، وإنما عن ذلك الخوف الكامن من الخطر الماثل دائمًا!

الغريـب في الأمـر، أن السـؤال كان يطـرح نفسـه عـليّ أنا الآخـر طرحًا مُلحًـا. ولكـن في صيـغ مغايرة، فما من مـرة انتهيت فيها مـن إحدى قصص الجاسوسية، إلا وكان قراري الذي كان يبدو لي نهائيًا وغير قابل للتراجع!.. أن أكـف عن الكتابة في هـذا المجال... ذلك أن شـوقي إلى القصة والرواية،

خاصـة في عالم البحر الرحيب، كان يتمثـل لي وكأنه نوع من العذاب فرضته على نفسي وبإرادتي وكأنني أدمنته!

كانـت البدايـة -لابد أن أكون صريحًا مسـتقيم القصد- هـي تلك الرغبة المحمومـة لديّ في المزيد من المعرفة... وعندما التقيت لأول مرة بهذا العالم في عام 1974 ...وجدت نفسي أمام مناطق شاسعة من الحياة تبدو لي مثل الرَّبْع الخالي في تفكيري، مسـاحات بلا حدود يضرب فيها الفراغ والخواء مع رمال متحركـة قـد تغرقني أو تغرق غيري نتيجة الجهـل... وجدت نفسي أمام عالم كامل له طقوسـه وأعرافه وقوانينه الصارمة، هو عالم موازٍ لعالمنا الذي نعيش فيـه، مواكب له، تـكاد المواكبة أن تكون في كل صغيرة وكبـيرة، فعزّ عليّ هذا «الجهل» المطبق الذي استشعرته حيال علم من العلوم... ذلك أنك في العلوم الأخـرى، كالفضاء أو الذرة أو الهندسـة أو الطب، تسـتطيع أن تقرأ وتعرف حتى القشور أو الخطوط العريضة دون التفاصيل فهذا يكفي... أما هنا، فلقد كان الظلام دامسًا، وكان لابد من مصباح ينير بعض جوانب الطريق!!

ظننـت في البدايـة أن الأمـر لن يأخذ مني سـوى أسـابيع معـدودة، أعود بعدهـا إلى حيـاتي الطبيعية دونما قلق، بـل بمزيد من الفهـم لطبائع الأمور في عالمنا المعاصر... غير أني في حقيقة الأمر كنت واهمًا، فبعد أن كتبت مسلسلين إذاعيـين، وجدت نفـسي غارقًا في فيلم سـينمائي أعطيته عنـوان «الصعود إلى الهاوية»... وكانت تجربتي مع هذا الفيلم من أشـق التجارب التي خضتها في حيـاتي على أكثر من مسـتوى... ذلك أني كنت، كلما أوغلـت في القصة، أجد نفسي في متاهة بعد الأخرى... وكان لابد أن أتعلم، وقبل كل شيء أن أقرأ!

ولقـد مثلـت لي الكتـب التي كانت شـديدة النـدرة، إن لم تكـن معدومة في بلادنا، جانبًا مدهشًا فوق أنه كان بالغ الأهمية، كما مثلت لي الحوارات وتجارب المخضرمـين، جانبًا لا يقل أهمية... وذلك في هذا الوقت الذي مضى عليه قرابة عشريـن عامًا... لم أكن أعرف شـيئًا عـن هذا العالم المليء بـالأسرار، وعن هذا العلم الشـديد التركيب، بل إني -دون مبالغة- لم أكن أعرف الفرق بين أجهزة الأمن المختلفة... ولقد فتح شهيتي إلى المعرفة، أني وجدت الكتب التي تتحدث عـن هـذا العالم، عن تاريخه وأسـاليبه وقصص الرجال والنسـاء فيـه وقضاياه، في متنـاول أي مواطـن أوربي يريـد أن يتعلم أو يبحـث... وهكذا أصبحت لي رحلاتي إلى الخارج كلما استطعت إلى ذلك سبيلًا، كي أبتاع ما تستطيع ميزانيتي أن أبتاعه من كتب وقصص وأبحاث كانت ذات فائدة كبيرة لي.

غـير أن نظرتي إلى الموضـوع، مع كل قصة كنت أكتبها -ولكل قصة قصة صدق أو لا تصدق- كانت تتغير تدريجيًّا وبشـكل غير محسوس... ذلك أني اكتشـفت، أن ما من قصة من قصص الجاسوسـية، إلا وهي تحوي تراچيديا إنسـانية من طراز فريد... إن الإنسـان في هذا العالم، سواء أكان جاسوسًا أو رجل مخابرات، يحيا حياة بالغة الخطر، ومع الخطر تتوالد المآسي إلى حد يصل إلى مستوى التراچيديا الشكسبيرية دون مبالغة!

ولقد أدهشـني الأمر في البداية... أدهشـني أن كل الكُتَّاب الذين تناولوا هذا النوع من النشـاط الإنساني، سواء أكان الموضوع تسجيليًّا، أم أنه ضرب من الخيال مثلما الأمر في قصص الكاتب البريطاني الشهير «إيان فليمنج» مبدع شخصية «چيمس بوند»، كانوا يصبون كل اهتمامهم في عملية التجسس نفسها دون الإنسان... ربما لأن العملية تخطيط وحركة وفعل، تحوي بالضرورة كمًّا من الإثارة يشد الانتباه حتى يطغى على الإنسان ويطويه.

وهكـذا وجدت نفسي منذ البداية، ودون قصد أو وعي، أهتم بالإنسـان اهتمامًـا خاصًـا... حـدث هذا مثـلًا في فيلم «الصعـود إلى الهاويـة»... فلقد اسـتفزتني تلـك الفتـاة التي أطلقـت عليها في الفيلم اسـم «عبلـة كامل»... ورحـت أتسـاءل -وقـد حصلـت عـلى مـا اسـتطعت الحصـول عليـه مـن معلومات- لماذا خانت هذه الفتاة وطنها؟!

إن خيانـة الوطـن شيء مخيف حقًـا، لكنها في زمن الحرب تصبح شـيئًا غير قابل للتصديق... ولقد يخطئ الإنسـان التقدير في لحظة، وقد يضعف في لحظة، ولكن... أن يستمر في الخيانة، أن يفعلها ويمارسها بهذا القدر من برود الدم، أمر لابد من التنقيب في أسـبابه النفسـية أو الاجتماعية أو العاطفية... ولقد ظللت قرابة عامين كاملين أكتب السيناريو... كتبته قرابة سبع أو ثماني مرات، وفي كل مرة، كان ينتابني هذا الإحساس الغامض بأن ثمة شيئًا ناقصًا هنا... وكنت إذا شـاهدت فيلمًا أجنبيًا يعالج إحدى هذه القصص المذهلة التي وقعت، أرى فيه عملًا متكاملًا ومنطقيًا وذا قوام واضح ومقنعًا... فرحت أُعيد كتابة السيناريو، وأعدل، وأمزق في محاولة مضنية للوصول إلى أقرب ما يمكن من الاكتمال!

غـير أني عندمـا شرعت في كتابة مسلسـل «دموع في عيـون وقحة» الذي اشـتهر باسـم «جمعة الشـوان»، وكانت قرابة أربعة أعوام قد انقضت، كانت التجربة قد صقلت قدراتي، وكانت المعرفة قد أُتيحت لي بقدر أكبر!

ولكن الأمر حُسم تمامًا عندما شرعت في كتابة... رواية «الحفار» المستمدة مـن عملية قدرها أن تكون واحدة مـن عمليات المخابرات المرموقة... كنت الآن أعـرف مـا أريد، بالضبـط، وتكاثـرت المراجع فـوق مكتبي، وخضت التجربة التي سـاهمت في إرضاء الروائي الكامـن في صدري وكان هذا كله،

دليلًا أضاء لي الكثير من الطريق عندما شرعت في كتابة «رأفت الهجان»، ومن بعده رواية «سامية فهمي»!

■ ■ ■

عندما سألتني مذيعة التليفزيون اللامعة «عزة الأتربي»، أثناء حوار معي، عن سر نجاح أعمالي في عالم الجاسوسية، لم أتردد في القول، إن مواطن القوة والإثارة في مثل هذه العمليات تكمن في البحث عن الإنسان... ذلك أن الإنسان في هذه العمليات أو القصص، هو الوقود الذي يدفع مياه المرجل إلى الغليان كي تنطلق بخارًا ذا قوة جبارة... الإنسان هو الصانع حقًّا، هو الدافع لا شك... لكنه في النهاية، خاسرًا كان أم منتصرًا، فهو الضحية!!

غير أن ثمة اكتشافًا آخر استوقفني ذات يوم.

تمثل لي هذا الاكتشاف في أن التراچيديا الإنسانية في قصص «الجاسوسات» تبدو أكثر حرارة وحدة إذا ما قارناها بقصص الجواسيس من الرجال...

وعلى سبيل المثال...

فلقد كانت قصة «باندا ماكلويد»، التي أطلق عليها الأمريكيون اسم «زهرة الشمس»، هي المثال المتكامل لهذه الحقيقة... وإذا كانت «ماتا هاري» التي قامت بالتجسس على الفرنسيين لحساب الألمان إبان الحرب العالمية الأولى، هي أشهر جاسوسة في التاريخ، فإن القدر أبى إلا أن تمتد مخاطرتها -أو مأساتها بمعنى أدق- إلى ابنتها التي لم يكن هناك من يعلم عنها شيئًا سوى قلة قليلة من الناس... وكانت هذه الابنة هي «باندا ماكلويد» أو «زهرة الشمس»، والتي أُقحمت أثناء الحرب العالمية الثانية إلى هذا المجال دونما ذنب جنته، إلا لأنها ابنة «ماتا هاري»!

إن قصة هذه الفتاة، وصلت التراچيديا فيها إلى حد من الصعب تصديقه... ولقـد قـرأت قصتهـا -أو ما أتيـح للآخريـن أن يعرفوه عنها- عـدة مرات، ودفعنـي هذا إلى العـودة إلى الجذور، إلى قصة ماتا هـاري عبر دوائر المعارف المختلفـة، وكتـاب يتيم عثرت عليـه مصادفة في إحدى مكتبـات لندن... ثم كان عليّ، لكي أعي حقيقة الموقف، أن أكتب عن طبيعة الاسـتعمار الهولندي لإندونيسـيا حيث عاشـت ماتا هـاري رَدْحًا من الزمن وأنجبـت هذه الفتاة ثم تركتها في رعاية «سـاقي» بإحـدى حانات «باتافيا» عاصمة جزيرة جاوة، والتي أصبح اسمها بعد الاستقلال «جاكارتا»...

ولقـد كبرت الفتـاة وتزوجت رجـلًا هولنديًّا أحبها حتـى الجنون، لكنه مات فجأة تاركًا لها ثروة لا بأس بها... وعندما شـبت الحرب العالمية الثانية، واجتاحـت الجيوش اليابانية إندونيسـيا، اقتحم حياتها مـن ادعى أنه قريبها، ثـم أجبرها على التجسـس لحسـاب اليابانيين، ثـم التقت بضابـط إندونيسي وقعت في حبه فتجسسـت لحساب المقاومة الإندونيسية على اليابانيين، ثم إذا ما انسـحبت اليابان تجسست لحساب الثورة ضد الهولنديين، وانتصر الحلفاء فدفعها الأمريكيون للتجسس لحسابهم ضد الثورة الشيوعية في الصين، كان حبيبها الإندونيسي قد استشهد، فلم يعد هناك ما يربطها بالمكان، أي مكان، وجاء عليها وقت لم تكن تفعل شـيئًا سـوى التجسس حتى وهنت، وتعبت، وعندمـا قُبض عليها في كوريا الشـمالية -وقد انتقلـت إلى كوريا بعد انتصار ماوتسي تونج- طُلب منها أن تكمل المسـيرة، وأن تعمل لحسـابهم، لكنها لم تسـتطع، كانت قد تعبت... فما كان من الكوريين إلا أن أعدموها ذات فجر وصلت فيه درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، رميًا بالرصاص!!

ومن جاسوسة إلى أخرى... من باندا ماكلويد إلى العملية «استيفانا» إلى «حكمت فهمي» إلى الكاميليا «تدن» البطلة التي لعبت دورًا هامًّا في المقاومة الفرنسية أثناء احتلال النازي لفرنسا، والتي بلغ من قدرتها وحب الآخرين لها أن كلًّا منهم صنع لها في قلبه تمثالًا... حتى إذا ما كانت ليلة. مجرد ليلة بدأت بعشاء في التاسعة، وانتهت مع خيوط الفجر الأولى، فإذا بهذه البطلة تتحول إلى جاسوسة، إلى خائنة تشي بزملائها وزميلاتها وتلاميذها الذين دربتهم وعلمتهم كي تلقي الجميع في محرقة النازي... فكيف؟!!... ولماذا؟!

سؤال استعصى على الحل... ألغاز وطلاسم تحتاج إلى جهد وتحليل كي نصل إلى مفتاح شفرتها!

ثم «إيلين»...

إيلين التي دُربت لعشر سنوات، ولُقنت وأُرضعت كيف تكون فتاة إنجليزية هادئة دمثة باردة الطبع... حتى إذا ما كانت لحظة، وقد برعت في عملها كجاسوسة، تتحول إلى سفاحة لا ترحم، تصدر الأمر بالقتل وكأنها ترشف رشفة من فنجان قهوتها، حتى وصل الأمر برؤسائها إلى سحبها من الميدان... كان تعطشها إلى الدم هذا، عسيرًا على فهم الذين صنعوها.

فكيف؟!

ولماذ؟!

هذا ما سوف نحاول أن نفهمه عن «إيلين» أو «تانيا راديونسكا»... وهذا اسمها الحقيقي!

صالح مرسي

1 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ طراز فريد من الجواسيس..

الزمن : أحد شهور الشتاء المبكر لعام 1958.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، عندما صعدت إلى سطح مياه بحر الشمال، في مواجهة الساحل الشرقي للجزيرة البريطانية، غواصة غامضة.. ما إن استقرت في مكانها حتى فتح الباب المؤدي إلى الداخل في هدوء، كان يخرج منه اثنان من البحارة يحملان قاربًا مطويًّا من مطاط ذي طبيعة خاصة... راح الرجلان يعملان بسرعة، كانا بطبيعة الحال مدربين، فسرعان ما نفذ الهواء إلى القارب، كي يأخذ شكله العادي، حتى إذا اطمأنا تمامًا، دفعا به إلى المياه.

كان المطلوب أن يتم كل شيء دون صوت، لا حركة ولا كلمة ولا ضوء... كان القمر محاقًا والظلام دامسًا رغم أن السماء كانت صافية وإن كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ما دون الصفر، وكانت تقارير رجال الأرصاد تقول إن الرياح في هذه المنطقة لن تكون قوية، كما أن التيارات البحْرية تقود نحو الغرب... وكان هذا هو المطلوب تمامًا!!

ما إن أُنزل القارب إلى المياه، حتى صعد من باب الغواصة شخصان أخذا طريقهما فورًا إلى القارب... وسرعان ما انزلقا إليه، وأخذ القارب يبتعد عن الغواصة تجاه الشاطئ... كان أحد الشبحين شابًّا في الثلاثين من عمره، مفتول العضلات جامد الملامح، وكان يجدف في حنكة ودراية المدرب، فلم تكن ضربات المجدافين تصنع صوتًا في هبوطهما إلى المياه أو صعودهما منها... أما الشبح الآخر، فكان لفتاة شقراء متوسطة الطول ذات عينين زرقاوين وبشرة مشربة بحمرة خفيفة، وجسد متناسق ساهمت في إبراز تناسقه بدلة الغوص السوداء التي كانت ترتديها... كانت نظرة واحدة إلى وجه الفتاة، تكفي لكي يحكم من يراها، مهما كانت خبرته بعلم الأجناس، أن الدماء الإنجليزية التي كانت تجري في عروقها، شديدة العطاء!!

مضت الدقائق والقارب يبتعد عن الغواصة حتى اختفى في الظلام المتكاثف، لكنه في نفس الوقت، كان يقترب من نقطة بعينها على الشاطئ... حتى إذا ما أصبح على بُعد مئات قليلة من الياردات، توقف الشاب عن التجديف، وراح يدقق البصر في الشاطئ الصخري... نظر في ساعة يده الفسفورية، وكانت تشير إلى الواحدة وخمس عشرة دقيقة... اختطف نظرة من الفتاة القابعة أمامه في صمت، ثم مضت ثوانٍ كأنها دهور، انبثق بعدها، من بين صخور الشاطئ، ضوء مصباح كهربي لثلاث مرات متتالية، ثم توقف ثواني، ثم انبثق ضوء رابع، وكان هذا يكفي!

التفت الشاب نحو الفتاة وأشار نحو البقعة التي انبثق منها الضوء... التفتت الفتاة وانتظرت، هكذا كانت الأوامر الصارمة قد صدرت إليها... مضت دقيقتان، عاد بعدهما ضوء المصباح كي يلمع مرة، ثم يتوقف ثواني،

ويعود إلى الإلماع ثلاث مرات متتالية، بعكس المرة الأولى... وكان هذا إيذانًا بأن تنزل الفتاة إلى المياه.. في هدوء رفعت يديها تحية للشاب، ثم انزلقت إلى المياه وراحت تسبح نحو الشاطئ في هدوء.

ما إن ابتعدت الفتاة بضع ياردات حتى راح الزورق يبتعد عائدًا إلى الغواصة مرة أخرى... أما الفتاة، فكانت تسبح في ثقة وعيناها مسمرتان على تلك البقعة من الشاطئ، كانت في انتظار الإشارة الثالثة والأخيرة، فهي على يقين من أن من ينتظرها على الشاطئ لا يراها... وعلى كل، فلقد كان الأمر هينًا بالنسبة إليها... كانت قد قامت بمثل هذه الرحلة في الشهور الأخيرة مرات ومرات، وفي كل مرة، كانت تجتاز الاختبار بنجاح كان يسعد أساتذتها ومدربيها!

عندما انبثقت الإشارة للمرة الثالثة، كانت قد اقتربت من الشاطئ تمامًا. وما هي إلا دقائق قليلة، حتى كانت تلتقي بمن كان في انتظارها، وكان رجلًا في الخامسة والأربعين من العمر، وشت قبضته التي اجتذبتها من المياه بقوة حقيقية يتمتع بها، دون كلمة أو تحية، وفي صمت راحت تتبعه وهما يتسلقان الصخور، ويقطعان المسافة إلى حيث كانت في انتظارهما سيارة إنجليزية الصنع.

وسرعان ما انطلقت السيارة الغامضة تقطع الطريق السريع إلى إحدى قرى الشمال البريطاني!

■ ■ ■

لا أحـد يعرف عـلى وجه اليقين اسـم تلك المدينة الصغـيرة التي ظهرت فيهـا «إيلين» في صبيحة اليوم التالي. ولكن التحريات التي أجريت بعد ذلك بثلاثـة أعوام، أشـارت جميعهـا إلى مدينة صغـيرة خاملة في الشـمال الشرقي للجزيـرة البريطانيـة... لم يكـن اسـم الفتـاة «إيلـين» بطبيعة الحـال، بل كان هـذا هو الاسـم الذي أعطـي لها مهمتها تلـك الغريبة، كان اسـمها الحقيقي «تانيا ماركوفنا راديونسـكا» وكانت واحدة من خريجات مدرسة الجواسيس السوفيتية الشهيرة «جاتزينا».

والحديـث عن «جاتزينا» قد يطول بعض الشيء... لكننا نسـتطيع القول إن اختيـار الطلبـة لهذه المدرسـة الرهيبة، يخضع لمقاييس بالغـة الدقة، وما إن يتم اختيارهم وهم لا يزالون في مدارج الصبا، حتى يعيشـوا في هذه المدرسة لعشر سـنوات كاملة لا يبرحونها إلى أي مكان... كانت المدرسة من الفخامة بحيث تتسـع لعدة مدن صغيرة تناثرت في أرجائها، يفصل بينهما سياج أمني مـن المسـتحيل اختراقه... ذلـك أن كل مدينة مـن هذه المدن، كانت نسـخة طبـق الأصل من حي من أحياء مدينة معروفـة في البلاد الناطقة بالإنجليزية مثل كندا وأسـتراليا ونيوزيلاند وإنجلترا بطبيعة الحال... وكان على الطالب أو الطالبـة، أن يعيـش في هـذه المدينة نفـس الحياة التي يعيشـها مواطنو هذه الـدول، كان عليه أن يتحدث بلغتهم دون أيـة لغة أخرى، وأن يتقن لهجاتها ويتعامل بعملاتها ويأكل نفس الطعام ويدخن نفس السجائر... وعلى سبيل المثال: فإذا كانت المدينة التي سـيعيش فيها الطالب هي لندن فإن المدينة التي يعيـش فيها في المدرسـة هي صورة طبق الأصل من حي مـن أحياء لندن، لا شيء فيها يمت إلى الاتحاد السـوفيتي بصلة... البنايات، الشـوارع، إشارات

المرور، المحلات، البضائع، البارات، دور السينما، المسارح، الأتوبيسات والتاكسيات... ولعشر سنوات كاملة يظل الطالب أو الطالبة في هذه المدينة، متدرجًا في العلوم الخاصة بهذه الدولة أو تلك، مع علوم الجاسوسية بطبيعة الحال... حتى إذا ما تخرج أصبح وكأنه مواطن من هذه الدولة أو المدينة، تعلم في مدارسها ويعرف كل شيء عن تاريخها وحضارتها وطباع أهلها التي تصبح مع الزمن طباعه!

ولذلك، فلم يكن من الصعب على «إيلين» أن تجد عملًا في تلك المدينة البريطانية الصغيرة... وكان لابد لها أن تبقى هنا لأسابيع قد تطول أو تقصر، حتى تتأقلم تمامًا على «الجو الجديد» الذي ظهرت فيه كفتاة جاءت من الأنحاء المجاورة كي تبحث عن عمل، وكانت الفتاة -وهذا أمر طبيعي- مزودة بكل ما يلزمها من أوراق ومستندات. إنها بريطانية مائة في المائة... وهي في حقيقة الأمر، لم تكن في حاجة إلى إثبات ذلك حتى إن كل الذين عرفوها وتعاملوا معها، كانوا يلهجون بالثناء عليها وعلى أدبها وطيبة قلبها ورقتها ودماثة خلقها... كانت، باختصار، إنجليزية حتى النخاع!

في تلك الفترة، لم يكن مطلوبًا منها، بأي شكل من الأشكال، أن تمارس مهمتها التي من أجلها أُرسلت إلى الجزر البريطانية... ذلك أن مهمتها الحقيقية لم تكن في إنجلترا كلها، بل في مكان آخر يبعد آلاف الأميال، ويفصله عن بلاد الإنجليز محيط كامل... كانت مهمتها في كندا.

لم تكن «إيلين» وحدها هي التي تحدد مدة بقائها في هذه المدينة أو في ذلك المكان... فالمعروف، أن هناك من كانوا يراقبونها بعناية، ويختبرونها،

ويحتكون بها، ثم يقدمون تقاريرهم عن مدى تقدمها أو تعثرها في هذه المرحلة أو تلـك... وكما كانت الفتـاة متفوقة في «جاتزينا»، جاءت التقارير تقول إنها مثالية إلى الحد الذي كان يدفع بعض زبائن المحل الذي كانت تعمل فيه، إلى شراء بضائع ليسوا في حاجة إليها، لمجرد أن يتبادلوا معها بعض الكلمات، أو يحظى أحدهم منها بابتسامة!

لكـن الغريـب في الأمـر، أن كل الشـباب الذين حظوا منهـا بموعد على العشـاء أو لمشـاهدة فيلم سـينمائي، كانوا دائمًا يولون الأدبار بعد مقابلتين أو ثلاث... فلقد كانت «إيلين» لفرط هدوئها تبعث على الملل!!

وعندمـا أعلنـت الفتاة عـن عزمهـا النزوح إلى لنـدن، عـزا البعض هذه الخطـوة إلى فشـلها في الحصول على صديق «بـوي فرند» من أبنـاء المدينة... لكـن أحـدًا منهم، لم يكن يعـرف أن تلك كانت هي الخطـوة التالية في رحلة هذه الجاسوسة الماهرة!

في لنـدن، وقع اختيارها عـلى حي «كنج كروس» كي تنـزل فيه... كانت الآن أكثـر ثباتًا وأرسـخ قدمًـا... فلقد كان لها الآن، مـاضٍ قريب وأصدقاء وصديقـات ومعـارف... ولقد اسـتأجرت غرفة في بيت سـيدة في الأربعين من عمرها اسـمها «مسـز هنتر»، وكما استطاعت أن تدخل قلب هذه السيدة الطيبـة، فلقد غـزت قلوب العديد من الفتيات اللـواتي كن يلتقين بها في هذا العمل أو ذاك من تلك الأعمال التي كانت تلتحق بها!

كانـت «إيلين» مرحـة كل المرح... والآن، وهي تعيـش في لندن بالفعل، وليس في حي من أحياء «جاتزينا»، فلقد تفجرت مواهبها وثبتت أقدامها... وبدا أن الحياة قد اسـتقرت بها تمامًا، لولا... ذلك الحظ السـيئ الذي لازمها

كلما التحقت بعمل فسرعان ما كانت تترك هذا العمل -لسبب أو لآخر!!- وتبحث عن غيره!

راحت الأيام تمضي بها وقد أصبحت إنجليزية أكثر من الإنجليزيات، ولذلك فلقد استغلت هذه الفتاة حياتها في لندن استغلالًا مثاليًّا كي تعرف كل شيء عن المدينة، وفي شوارعها وأحيائها ومتاحفها ومقاهيها ومسارحها ودور السينما فيها... وهي في نفس الوقت لم تكن تصد راغبًا في دعوتها إلى العشاء، أو لتشاهد إحدى المسرحيات... كانت إذا ما التقت بفتى تراه مناسبًا، تجاوبت معه شأن أي فتاة إنجليزية في الخامسة والعشرين من عمرها تريد لحياتها أن تستقر ولذوقها أن يرسو... لكن الغريب في الأمر، أن كل الشباب الذين تعرفوا عليها، سرعان ما كانوا ينسحبون في هدوء وأدب، وكانت حجتهم جميعًا أن «إيلين» رغم جمالها فإنها هادئة أكثر من اللازم، ينسدل هدوءها مع علاقتها بالشباب بشكل خاص، حتى يشعر الشاب بالملل حقًّا!

هل كانت هذه الجاسوسة المدربة بارعة!!

بالقطع كانت كذلك... بل إن براعتها أذهلت كل من احتك بها أو عرفها، مما دفع البعض إلى التعاطف معها تمامًا عندما قررت أن تهجر العاصمة البريطانية، وتسعى لحياة أخرى في كندا!!

ومنذ البداية، عرف كل من صادقها أن لها خالة مريضة في مونتريال... وبين الحين والحين، كان يصلها بالفعل خطاب يحمل طوابع بريد كندية... وكانت الخالة المزعومة تشكو لابنة أختها من المرض والوحدة... حتى إذا

مـا تلقت «إيلين» الضوء الأخضر من موسـكو، أعلنت أن وقت الرحيل قد أزف كي تلحق بخالتها العزيزة قبل أن تودع دنيانا!

وفي ليلـة السـفر أقامـت الصديقـات، بترحيـب من «مسـز هنـتر» حفلًا اشـتركن جميعًـا فيـه، لتوديع الصديقـة التي سـوف يفتقدنها حقًّـا، وامتدت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل، وعندما حانت لحظة الوداع، كانت الدموع تملأ عيون الكثيرات من الصديقات!!

■ ■ ■

في شهر مارس عام 1959، وصلت «إيلين» إلى مدينة مونتريال.

كانت كل التقارير التي وصلت إلى رئاستها في موسكو، تجمع على أن هذه الفتاة خُلقت لكي تصبح جاسوسة من طراز فريد... ذلك أن رقتها، ودماثة أخلاقهـا، وهدوء طباعهـا، تربط الناس بها... وكانت قدرتها على اكتسـاب ثقـة الناس والأصدقاء، خير سـلاح لهـا في مهمتها التي اقتربـت بدايتها!... ذلك أن كل الحسـابات التي أجراها الرؤسـاء في موسكو، تقول إنها -الآن- أصبحت جاهزة لأداء مهمتها، لكن نفس الحسابات أيضًا، كانت تقضي بأنه لابـد من البقاء في مدينة مونتريال لفترة من الزمـان، قبل الانتقال إلى محطتها الأخيرة العاصمة الكندية أوتاوا.

وفي مونتريـال، كما كان الأمر في لندن، كان لابد لها من أن تصنع لنفسـها تاريخًـا... وكان هـذا التاريخ جاهـزًا بعد أن أصبحت بعـض عناصره واقعًا يعرفه الكثيرون في لندن...

في البداية، وجدت «إيلين» وظيفة في مخبز... وفي هدوء وصبر، راحت تصنع لنفسها ذلك الإطار الاجتماعي الجديد... وهكذا، عرف الكثيرون ممن التقت بهم أو صادقتهم حكاية خالتها المريضة التي أضافت لها الفتاة صفة جديدة هي «الثراء»، وهي في نفس الوقت، كانت تتعرف على المجتمع الكندي وتسبر غوره وتتلمس طباع أهله... وإذا كان عملها كبائعة في مخبز يضيف من محيط علاقتها، فلقد كانت هذه فرصة لأن تجوب مونتريال من أقصاها إلى أقصاها، تدرس وتتقصى وتتعلم، حتى إذا ما حان الوقت للانتقال إلى أوتاوا، أصبحت جاهزة للبَدْء في عملها فورًا ودون إبطاء.

ظلت «إيلين» في مونتريال قرابة ثلاثة أشهر، حتى إذا ما تلقت الضوء الأخضر، أعلنت أن خالتها العزيزة قد توفيت، وأنها تركت لها ثروة لا بأس بها، وأنها، من أجل هذا، قررت الانتقال إلى العاصمة... إن الثروة قد تكفيها شر الحاجة، لكنها لا يجب أن تعتمد على ما ورثته، ولا بد لها من البحث عن فرصة أنسب للعمل!

■ ■ ■

ما إن وصلت «إيلين» إلى أوتاوا، حتى استأجرت مسكنًا مناسبًا وإن لم يكن باذخًا... وسرعان ما وجدت عملًا في أحد محلات بيع الملابس الداخلية للسيدات... وعندما تسلمت وظيفتها، ووصلت تلك الوثائق من مكتب محام مشهور عما ورثته من خالتها، حتى كانت الآن، وقد انقضى قرابة عامين منذ أن غادرت تلك الغواصة الغامضة أمام السواحل الشرقية للجزر البريطانية، جاهزة تمامًا لأداء مهمتها!!

2 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ الوصـــول إلـــى كنـــدا..

لا أحد بالضبط يعرف شيئًا عن المهمة الرئيسية التي من أجلها أرسلت «إيلين» إلى كندا... ذلك أن نشاطها التجسسي بدا للذين راحوا يسعون وراءها، متسعًا، بل يكاد أن يكون شاملًا... قال واحد من هؤلاء الرجال الذين غرقوا حتى أنوفهم في التنقيب عن أثر لها... لقد بدت لي في لحظة، وكأنها تريد أن ترسل إلى موسكو كل ما كان يجري في كندا من نشاط... لقد كانت هذه الفتاة رهيبة بكل ما تحمل الكلمة من معنى!..

وعندما عثر الرجال على شاب من هؤلاء الذين صادقتهم لفترة ثم انسحبوا مبتعدين، قال الشاب:

«لم يكن فيها ما يعيب - كانت جميلة، كما أنها كانت جذابة أيضًا، ولكن... ما إن كنا نجلس منفردين حتى تتحول -دون سبب معروف- إلى دمية من الثلج، ولم يكن أمامي سوى الانسحاب!».

وبطبيعة الحال، فلقد كانت «إيلين» تتعمد هذا البرود وتتصنعه... ذلك أنها كانت تعرف كيف تجعل الشاب يرتبط بها، وحتى تجعله يولي الأدبار

دون أن تثير الشـكوك بافتعال مشـاجرة أو خلاف، كانت قادرة على دفعه إلى الفرار تحت ستار البرود الإنجليزي الشهير!

وقـال آخر: «لقد كانت أنثى بكل ما تحمل الكلمة من معنى، لكنها فجأة كانت تتحول من إنسان إلى شيء آخر...!».

ولذلك، وعندمـا وجدت في أوتاوا تلك الوظيفة الصغيرة كبائعة في محل بيـع الملابـس الداخلية للسـيدات، فلقد لفـت نظرها -بعد بضعة أسـابيع- أن شـابًّا في التاسـعة عـشرة من عمـره، كان يتردد على نافـذة عرض الملابس في الطريـق، وأنـه بـين الحين والحين كان يختلـس النظر إليهـا، ولم يكن صعبًا عليها أن ترقبه من طرف خفي، وأن تدرك، في الوقت نفســه، أن هذا الشاب الصغير يهيم بها حبًّا... ولأنها كانت تكبره ببضع سنوات، فلقد تردد الشاب طويـلًا في محاولة للتعـرف عليها، بل لم يجرؤ على الاقتراب منها... وكان، إذا ما التقت نظراته بنظراتها، يفر مبتعدًا في خجل من ارتكب خطأ لا يغتفر!!

غير أنها كان عليها أن تتيقن من أن هذا الشـاب الصغير قد وقع في هواها حقًّا وأنه ليس دسيسـة يتظاهر بالحب حتى يسبر غورها ويساعد على كشف سرها... ولأنها كانت شـديدة الثقة بنفسـها، فلقد راحت تتحرك. وبالنسـبة لهـذا الفتى الصغير، فلقد ظلت تتحـين الفرصة لكي توقع به، أو تتظاهر بأنه أوقعهـا في شـباكه... حتـى إذا كان في يـوم، لمحتـه يقف على الطـوار المقابل للمحـل الـذي تعمل فيـه... كان وقت إغـلاق المحل قـد أزف، وكان الجو شديد البرودة في الخارج... ولقد أدركت «إيلين» في تلك الليلة، أن صاحبها الصغير هذا عاشق متيم حقًّا، فلم يكن هذا أسلوب شاب يريد الاقتراب من فتاة يبغي أن يعرف عنها شيئًا... وعلى كل، فبعد انتهاء العمل غادرت المحل،

وبدلًا من التوجه مباشرة إلى مسكنها كما كانت تفعل في غالب الليالي، راحت تقطع الطريق إلى حانة صغيرة كانت قريبة، شـأنها في ذلك شأن الكثيرين من العاملين والعاملات في محلات وسط المدينة!

في الحانـة... كان الجـو دافئًـا... كـما كان المـكان مزدحمًـا... وحتى ذلك الوقـت، لم تكـن موسـكو قد أمدتها بـها أو بمن يمكن أن يسـاعدها على أداء مهمتها، أو حتى بمن يسـتطيع نقل الرسـائل لها أو منها... كان الأمر متروكًا لها في البداية حتى تؤسـس هي شـبكتها بأسـلوبها وعـلى أرض واقع راحت تدرسـه في عناية وتـؤدة... ولذلك، فلقد كان ما تطمع إليـه «إيلين» في تلك المرحلـة... أن تعـرف مـن هو هذا الشـاب الذي يظهر بشـكل يـكاد يكون منتظمًا أمام نافذة العرض الخاصة بالمحل... وكانت معه تلك الليلة، وهي في طريقها إلى الحانة، قد اسـتطاعت أن ترصد خطواتـه وهو يتتبعها... وحتى، عندما دلفت إلى الحانة، وكانت كل الموائد مشـغولة، لم يكن أمامها سـوى أن تختار مكانًا إلى جوار الساقي تستطيع منه أن ترصد حركات الفتى إن كان قد وصل في تتبعه إياها إلى الحانة!

ما إن دلفت إلى الحانة، حتى خلعت معطفها، وأطلقت شعرها الذهبي في فوضى لفتت أنظار العديد من الشباب والرجال... ما إن استقرت في مكانها حتى أسرع إليها الساقي سائلًا إياها في ود عما تريد... طلبت مشروبًا ساخنًا، وجلسـت فوق المقعد العالي، وراحت عيناهـا تحاولان اختراق زجاج المحل إلى الطريق في الخارج، ولقد ابتسـمت في رضا عندما شـاهدت الفتى هناك، وكان مترددًا في اللحاق بها.

أدركـت «إيلين» أن الفرصة أصبحت سـانحة له كي يتقـدم، ولقد تحقق ظنهـا، ما لبـث الفتى أن اتخـذ قراره داخـل الحانة وهو يرتجف مـن البرد... التقت عيناه بعينيها فمنحته على الفور ابتسـامة مشـجعة فذهل... لكنه تقدم منهـا متظاهرًا بالبحث عن مكان، حتى إذا اقترب منها، تحركت حركة بدت عفويـة وكأنها تفسـح له المـكان... ولقد شـجعه هذا فتقدم منها مسـتأذنًا في الوقوف إلى جوارها:

-هل تسمحين؟!

-أرجوك..

-نفس المشروب من فضلك!..

انصرف الساقي فقدم لها الشاب نفسه:

-جاك ريموند!..مدت إليه يدها في مبادرة طوته تمامًا

-إيلين ايتهان!..

-بريطانية؟!..

قال هذا وهو يشد على يدها في حرارة، أجابت:

-لكني أرغب في البقاء معكم هنا!..

وهكـذا تم التعـارف... وهكذا قضيا سـاعة وبعض السـاعة تبادلا فيها الحديـث، فعرفـت منه أنه يعمل كاتبًـا في أحد المصانع، وأنـه يأمل أن يكمل دراسـته الجامعية، لكن عمله في المصنع يأخذ كل وقته... وهكذا راحت هي الأخـرى تبثه شـكواها وحظها العاثر في الوطن الأم، وأنـه لولا خالتها التي

توفيت لما استطاعت أن تهاجر إلى كندا... ولقد كان هذا يكفي تمامًا في اللقاء الأول، حتى إذا ما استأذنت في الانصراف - سألها:

-هل أراك مرة أخرى؟!..

قالت وهي تلوح له مبتعدة:

-بالتأكيد!..

ولقد التقى بها بعد ذلك مرتين، وكانت قد حاولت، من خلال أحد أصدقائها الذي تحول فيما بعد إلى عميل، أن تعرف شيئًا عن الفتى، وجاءتها الأنباء بأنه شاب مجتهد وإن كان رقيق الحال، وأن مشكلته وأمله في الحياة هو استكمال تعليمه الجامعي وإن كان طموحه في العمل لا يشجع رؤساءه على الاهتمام به... التقت به ذات مساء في نفس الحانة، وجلست إليه حول مائدة كانت خالية... حتى إذا حدث ما سهل لها خطوتها التالية.

كان ثمة مجموعة من الشباب يتحلقون حول مائدة في ركن من المكان، ولقد لفتت «إيلين» أنظارهم منذ لحظة دخولها، ولم يكن صعبًا عليها أن تلحظ نظراتهم نحوها وهمساتهم التي كانت موقنة أنها تدور حولها... حتى إذا ما كانت لحظة، نهض أحدهم متجهًا نحوها، ورغم مظهر الشاب الذي ينبئ بالشر. فإنه اقترب منها في أدب، حياها فرمته بنظرة متعالية ولم ترد تحيته، سألها إن كانت تقبل دعوته على شراب، فإذا بها تضع يدها فوق ذراع الفتى قائلة:

-لابد أنك في حاجة إلى منظار طبي أيها الشاب!..

ظهر الارتباك على الشاب وتسمَّر الفتى، لكنها أردفت في ثبات:

-ألا ترى أني في صحبة شاب دعاني إلى شراب؟!..

أحس الشاب أمام لهجتها المستقيمة بالارتباك، وفي الوقت الذي اشتعل فيه غضب الفتى وهم للدفاع عن صديقته، اعتذر الشاب وانصرف دون كلمة!

مـا كان من «إيلين» -وقـد اقتربت الآن من هدفها- إلا قلبت شـفتها في ضيق قائلة:

-أخشى أن يضايقني أحد وأنا في طريقي إلى البيت!..

قالت هذا وهي تنظر في ساعة يدها، هتف الفتى في حماس:

-لا تخشي شيئًا، فلسوف أصحبك حتى باب البيت!..

ربتت على ذراعه في امتنان وهي تقول:

-يكفي أن تصحبني حتى أجد وسيلة للمواصلات!..

عندما همت بدفع حسابها، هتف الفتى:

-ألم تقولي لهذا الشاب أنني دعوتك؟!..

-ولكن... ... ...

قبل أن تتفوه بكلمة، دفع الفتى الحساب قائلًا:

-إنه ليسعدني حقًّا أن أكون الداعي!..

وهكذا غـادرت «إيلين» الحانة وهي تتأبـط ذراع الفتى وكأنها تحتمي به، وصلت سـعادة جاك ريمونـد إلى ذروتها وهو يسـير إلى جوارها في الطريق، وعندما سـألته إن كان يسـتطع أن يمـشي معها قليلًا، أجاب بأنه يسـتطع أن يمـشي معهـا إلى الشـاطئ الغـربي للقـارة إن أرادت، ضحكـت لمجاملته ثم

راحت تشكو لـه حياتها، فهي لا تجد فرصة للتريض، فعملها يأخذ كل وقتها، وحتى يومي الإجازة الأسبوعية لا تكاد تجد فيها وقتًا حتى لقراءة كتاب، فهي تنفقهما في تنظيف البيت وابتياع ما تحتاجه للأسبوع التالي... ولقد كانت سعادة الفتى تتزايد كلما ازدادت التصاقًا به وهما يسيران معًا من شارع إلى آخر، حتى إذا ما قالت له، وكأن الأمر جاء بشكل عارض، إنها تعاني من عدم وصول الخطابات إليها من القارة -كانت تقصد إنجلترا بطبيعة الحال- وأنه يبدو أن عنوانها قد أصبح واحدًا من طلاسم أوتاوا... حتى انبرى الشاب عارضًا عليها في حماس أن تعطي أصدقاءها عنوانه هو ولسوف ينقل إليها الخطابات في نفس يوم وصولها... ولم يكن الفتى المسكين يعرف، أن هذا هو كل ما تريده منه... سرعان ما أخرج ورقة وقلمًا ،كتب عنوانه، فرمته بنظرة امتنان جعلته يتبدد حبًّا... ولم ينس وهي تودعه أمام سيارة أجرة استوقفتها، أن تطبع على وجنته قبلة أطارت لبه، ثم همست:

- لست أدري كيف أشكرك، فلقد كانت ليلة رائعة!..

وهكذا تركت «إيلين» الفتى الكندي چاك ريموند ابن التسعة عشر من العمر، ضائعًا، مبددًا، غارقًا حتى أذنيه في حب لن ينال من ورائه سوى الوعود التي لن تتحقق أبدًا!

■ ■ ■

تمثل الغالبية العظمى من سكان كندا قسمين من البشر... قسم ينتمي بالميراث والدم إلى بريطانيا العظمى، وقسم آخر ينتمي إلى فرنسا... ولقد ارتبط كل قسم من هذين القسمين بالوطن «الأم» بكل شيء؛ باللغة

والعادات والتقاليد والعواطف أيضًا... لذلك، فإن القسم الشمالي، خاصة مقاطعة كيوبيك، يتحدث اللغة الفرنسية، أمَّا القسم الجنوبي، الملاصق للولايات المتحدة... فهو يتحدث اللغة الإنجليزية... وعلى كلٍّ، فلسوف يكتشف كل من يزور كندا، أن المواطن الكندي الأصيل، يتحدث اللغتين معًا بنفس السهولة والسلاسة... لكنه في نفس الوقت -ومهما كان انتماؤه- يحمل في جوانحه حنينًا شديدًا إلى القارة الأم التي جاء منها الرواد الأوائل الذين استعمروا هذا الجزء الشمالي من أمريكا الشمالية، واستوطنوه!

ولقد كان چاك ريموند، هذا الفتى الذي لا يتجاوز عمره التاسعة عشرة، من تلك السلالة التي جاء أسلافها من بريطانيا، من حيث جاءت «إيلين إيستمان» -هذا هو الاسم الذي اتخذته لنفسها منذ أن وطئت قدمها الأراضي الإنجليزية- ولذلك، فلقد اشتعل، لا الحب فقط في قلبه، ولكن الإحساس بالانتماء إلى الجذور أيضًا!!

غير أن جاسوسة مدربة مثل «إيلين» لم يكن يعنيها أن تجند موظفًا كتابيًّا في مصنع في عمر مثل چاك ريموند -نحن نعتقد أن هذا الاسم ليس هو الاسم الحقيقي لذلك الفتى، وأنه أعطي هذا الاسم لسبب أو لآخر- في شبكتها التي بدأت في تكوينها لسببين... السبب الأول أنه يشغل وظيفة ليست ذات أهمية بحيث يستطيع أن يمدها بمعلومات ذات فائدة... أمَّا السبب الثاني، وهو الأهم، فإن أية محاولة منه لمعرفة شيء عن طبيعة عمل هذا المصنع وهو في موقعه هذا، كانت كفيلة بأن تثير الشكوك من حوله وهذا ما لم تكن «إيلين» ترغب فيه بطبيعة الحال!

ولكن... هل تقف هاتان العقبتان في سبيل الاستفادة منه؟!

هنا، تكمن عبقرية جاسوسة مثل «إيلين»!

ذلك أنها بعد بضعة أسـابيع من وصولها إلى كندا، أرسـلت إلى رئاستهافي موسكو رسالة تقول فيها:

... ... تعرفـت عـلى فتى في التاسـعة عشرة من عمره يعمـل كاتبًا في مصنـع كبـير... وعندما أخبرتـه أني أضيق لعـدم وصول بريدي مـن القارة -أوربـا- منتظـمًا إلى عنواني، عـرض عليَّ أن أعطي الأصدقـاء عنوانه هناك، كي يراسلوني عليه، واعدًا بإيصال الخطابات إليّ في نفس يوم وصولها!..

وهكذا استطاعت «إيلـين» أن تحصل على صندوق بريـد مجاني، فوق أنه في نفـس الوقـت، وهـذا هو المهـم في الأمر، صنـدوق آمن... فـإن أحدًا لن يستطيع، في أي ظرف يحدث في المستقبل، أن يتهمها بوصول خطابات كهذه التي كانت تصل إليها مكتوبة بشفرة من الصعب حلها!

ومع كلٍّ...

فلقـد كانت هذه الخطوة البسـيطة إيذانًـا بأن تنطلق ملـكات هذه الفتاة، لتكشف عن وجه لم يخطر ببال، حتى الذين صنعوها!!

3 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ شبكة مثالية للتجسس!

بدأت «إيلين» في تكوين شبكتها الخاصة بدأب لا يعرف الكلل... وعلى سبيل اليقين، فلقد كان زبائن المحل الذي كانت تعمل فيه، هم أول من كانت ترتبط بهم وتقيم معهم علاقات كانت تتطور بطبيعة الحال يومًا بعد يوم... إلى أن تضع يدها على نقطة ضعف هذا أو ذاك فتغذيها إذا ما كانت في حاجة إلى معلومات منه، حتى إذا ما ارتبط بها، وبدأ يبوح بأسرار عمله، كان هذا إيذانًا بأن العجلة، عجلة التجنيد ثم التجسس، بدأت تدور.

وفي حقيقة الأمر، وحتى اختفت «إيلين» من كندا فجأة وكأنها تبخرت، فإن أحدًا لم يعرف على وجه اليقين، كم كان عدد أفراد شبكتها، فوق أن أحدًا، بالتالي لم يعرف كل أفراد الشبكة... غير أن جواسيس الغرب في الاتحاد السوفيتي، كانوا يذكرون أن المعلومات التي كانت تصل من ذلك «العميل» في كندا إلى موسكو، كانت من الكثرة والوفرة بحيث أرضت الرؤساء هناك تمامًا... غير أنه تبقى في حياة تلك الفتاة الغريبة، هذه القسوة الكامنة تحت ذلك السطح البريء بملامحها وتصرفاتها معًا... ومن هنا، من

هذه القسوة، استطاع البعض أن يعرفوا بعضًا ممن حاولت «إيلين» تجنيدهم، وتحويلهم من مواطنين شرفاء، إلى جواسيس!

والثابـت تمامًا، أن شـهورًا قليلة قـد انقضت، عندما انتهـت «إيلين» من تكوين شـبكة مثالية للتجسـس... شـبكة كانـت تعتمد على هـؤلاء الرجال الذين فتنهم جمالها ورقتها وحسـن تعاملها... بعضهـم كان من زبائن المحل الـذي كانـت تعمـل فيـه، وكانـت تعلم -عـلى عكس مـا يشـاع- أن زبائن محلات بيع الملابس الداخلية للسيدات، أغلبهم من الأزواج والمحبين الذين يلجئـون إلى مثل هذه المحلات لابتياع هدايـا لزوجاتهم أو صديقاتهم تعبيرًا عن الحب... فكانت تساعدهم على الاختيار، وتنصحهم بابتياع هذا أو ذاك من المعروضات دون أن تشعرهم بأي من أنواع الحرج، وبذلك، كانت تقيم معهـم علاقات مـودة كانت تتطور مع الأيام إلى صداقـة... فإذا ما التقى بها أحدهـم مصادفة -!!!- في حانة أو مطعـم، كانت رقتها ودماثتها خير معين لهم على الإفضاء إليها بمتاعبهم في محاولة للتخفيف مما يعانونه...

... ...

... ...

قبل نهاية 1959، كانت ثمة خطوة هامة لابد من اتخاذها.

كادت الشـبكة المرجوة أن تكتمل، وبالتالي، فلقد كانت «إيلين» في حاجة لأن تكـون حـرة في حركتها... أهـم ما في تلك الحركة هـي تحديد مواعيدها مـع عملائها، سـواء أكانوا عـلى دراية بأنهم عمـلاء، أم أنهم عـلى غير دراية بالأمر... وكان هذا يتعارض تعارضًا مطلقًا مع عملها في ذلك المحل الذي كان ولابد أن تلتزم بمواعيده!

حتى إذا ما كان يوم - أعلنت أنها قررت استثمار تلك الثروة التي ورثتها عن خالتها، في افتتاح محل خاص بها، لبيع الملابس الداخلية للسيدات!

وبالفعل... وقبل مضي أسابيع قليلة، وجدت «إيلين» محلًّا مناسبًا... ولأنها لم تكن تترك شيئًا للمصادفات، فلقد كلفت محاميًا بأن يستأجر هذا المحل، ثم شرعت في تأثيثه... كانت الآن ذات دراية بهذا النوع من التجارة، فسرعان ما عقدت الصفقات وامتلأ المحل بالبضائع - وافتتح ذات يوم افتتاحًا لفت أنظار الكثيرين!

■ ■ ■

حدث ذات يوم أن ذهبت إلى طبيب الأسنان كي يعالج لها ضرسًا سبب لها آلامًا مبرحة... فما كان من الطبيب -بعد أن كشف عليها- إلا أن قرر خلع الضرس في الحال، ولم تمانع هي، وكتب لها الطبيب روشتة كان من بين الأدوية التي فيها، دواء مخفف للآلام!

وكعادتها في الحرص، فلقد اختارت صيدلية بعيدة عن بيتها والمحل الذي تملكه وتديره في نفس الوقت... كان الوقت ظهرًا ما إن دلفت إلى الصيدلية، حتى طالعها وجه غريب لشاب يميل لونه إلى السمرة، بينما كان شعره الأسود ينسدل على جبهته فيحيل الوجه إلى لوحة فنية، استطاعت بنظرتها النافذة أن تكتشف أن وراء تلك الملامح الدقيقة مأساة حقيقية.

على الفور، انبثقت في ذهنها فكرة جهنمية لم تتردد في تنفيذها... فما إن تسلمت الدواء، حتى راحت تسأل الصيدلي الشاب عن هذا المسكِّن للألم، وهل هو كافٍ لتسكين الألم بعد زوال أثر البنج، بدت «إيلين» رقيقة هشة ترتجف رعبًا وخوفًا من الألم إذا ما داهمها في المساء... لكن الصيدلي الشاب

أخـذ يطمئنهـا ويهـون عليها الأمـر... رمته بنظـرة امتنان وهـي تنصرف... لكنها عندما همت بمغادرة الصيدلية، التفتت نحو الشـاب الذي كان يتتبعها بنظرات فيها إعجاب صارخ لم يسبق له مثيل...

لقـد راحـت تـشرح للصيدلي كيـف أن الـدواء لم يخفـف الألم، ولولا أنه حـدد لهـا بصراحة عدد ما يجـب أن تتناوله من أقراص لابتلعـت كل ما كان لديهـا... لم يكن ممكنًا للشـاب أن يعطيها دواء آخر إلا بروشـتة من الطبيب، لكنهـا قالت له إنها حاولت الاتصال بطبيبها وفشـلت. وإنهـا مرتبطة بعمل لا يرحـم صاحبـه، ومواعيد الطبيب تختلف مع مواعيد العمل... في توسـل سـألته إن كان في مقـدوره أن يعطيهـا دواء آخر ولم يكن هـذا ممكنًا بأي حال من الأحوال. إن القوانين شديدة الصرامة، وهو لو فعل هذا واكتشف أمره، فلسوف تسبب له متاعب هو في غنى عنها!..

أثناء الحوار الهامس بينهما، ومع تردد الصيدلي وخوفه البادي، استشفت أن ثمة شيئًا يكتمه هذا الشاب ويخيفه في نفس الوقت... تظاهرت بالاستسلام، وضعـت يدها فوق صدغهـا وانصرفت مترنحة... مـا كادت تصل إلى باب الصيدلية، حتى اسـتوقفها ذلك الشاب الأسمر، وأعطاها دواء آخر متوسلًا إليهـا ألا تذكـر هذا لأحد مهـما كان الأمر... كان الرعب الذي اسـتولى على الصيـدلي كفيلًا بأن يؤكد لها أن في حياته سرًّا يحرص على إخفائه... وكان أن اتخـذت قرارًا بأن تعرف هذا السر... فهي، عن طريقه، سـوف تسـيطر عليه سيطرة قد تفيدها إذا ما احتاجت ذات يوم لمساعدته!

وهكذا انصرفت في ذات اليوم تحمل الدواء الجديد، الذي لم تكن في حاجة إليه!

... ...

... ...

ثمـة شيء يلفت النظـر في هذه الجاسوسـة الغريبة الأطـوار، فلقد كانت تستطيع أن توفر الوقت والجهد الذي بذلته مع الفتى چاك ريموند حتى تجد لنفسـها صندوق بريـد آمنًا، وبعيدًا تمامًـا عن تلك الصناديـق التقليدية التي يصطنعهـا الجواسـيس في كل أنحـاء العـالم... لم تكـن تريد شـيئًا جاهزًا، أو وسيلة يمدها بها الآخرون... كانت تريد شبكة ذات «خلق» من نوع خاص بها... وهكذا، أخذت تغزل تلك العلاقة مع الفتى الصغير السـن لأسـابيع، حتى حققت ما كانت تصبو إليه وتحصل على صندوق بريد مبتكر.

تمامًـا كما حدث مع هذا الصيدلي المسـكين الذي وقـع في براثنها، فأمدها بوسـائل المـوت التي كان مـن الممكن أن تحصـل عليها من موسـكو بمجرد الطلـب... لكنهـا فضلت أن تسـلك طريقًا خاصًّـا حتى تبتعـد تمامًا عن أية علاقة من بعيد أو قريب مع السفارة السوڤيتية في كندا!

وعلى كل الأحوال، فلقد مضت أيام طالت بعض الشيء منذ أن حصلت على هذا الدواء من الصيدلي الشاب، وكانت موقنة تمام اليقين أنه يحترق شوقًا لرؤيتهـا، حتى إذا ما أحسـت بأن هـذا يكفي، طلبته بالتليفـون، كان صوتها الآن ناعـمًا، هادئـا، هامسًـا... راحت تبثـه امتنانها العميـق لأن الدواء الذي أمدها به كان له مفعول السـحر، اعتذرت لعدم اتصالها به طوال الأيام التي انقضت لأسـباب فوق إرادتها... لم تذكر الأسـباب قطعًا فلقد كانت تعرف أن الغموض يزيد من حرارة الحب واللهفة. قالت وهي تنهي المكالمة:

-مرة أخرى، لست أدري كيف أشكرك!..

جاءها الرد متلهفًا:

-بأن تقبلي دعوتي على العشاء!..

تظاهرت بالتردد، لكنها وافقت في النهاية!

■ ■ ■

كانت السهرة ممتعة إلى أقصى حد.

وكان العشـاء في ذلك المطعم القائم على تل خارج المدينة فاخرًا، دفع فيه الصيدلي الشاب ما لا طاقة له به، لكنه كان سعيدًا!

في ذلـك اللقاء الأول قصـت عليه قصة حياتها، نفـس القصة التي روتها لـكل مـن التقى بها... حياتها في لندن، فشـلها في العثور على عمل مناسـب، خالتهـا المريضـة، نزوحها إلى كندا... ثم أضافـت إلى كل هذا، ما تعانيه الآن من الوحدة في مدينة متجهمة مثل أوتاوا...

وعندما دعاها الصيدلي الشاب إلى الرقص على أضواء الشموع التي امتلأ بها المطعم، أراحت رأسـها فوق كتفه وهي تهمس له بأن هذه هي المرة الأولى التي تشـعر فيها بالأمـان منذ وصلت إلى كندا... غير أنـه -في تلك الليلة- لم يذكر عن نفسـه شيئًا، وهي بالتالي، لم تسأله ولم تطالبه بأن يقص عليها حياته، وإن كانت قد تيقنت أن في حياته ذلك السر الرهيب الذي يخشى البوح به...

وعندما حان وقت الفراق سألها:

-ألن نلتقي مرة أخرى؟!..

-بالتأكيد!..

هكذا قالت وهي تلقي بنفسـها في سـيارة أجرة، تاركة الشـاب وحيدًا في الطريق وقد قارب الليل على أن ينتصف، وهو لا يدري أو يعرف عنها شـيئًا سوى ما قصته عليه.

ولم يكن فرناندو كورتيز -هكذا كان اســم الصيدلي الشاب- هو شاغلها الوحيـد بطبيعـة الحال، كانــت هناك شـبكتها الذهبية تلك التـي بدأت تؤتي ثمارها، ولقد راحت المعلومات تتوالى على موسـكو في تزايد يومًا بعد يوم... كانــت هنــاك معلومـات عــن المصانــع، والإدارات الحكومية، ومراسـلات وزارة الخارجيـة السريـة، والمشروعـات العملاقة، والشركات المشـتركة مع الولايات المتحدة، وتلك المتعددة الجنسـيات... ووسـط كل هذا النشاط، لم تنس صديقها الصيدلي، وهكذا راحت تتصل به بين الحين والحين دون لقاء، حتـى إذا ما حدث والتقيـا غمرته بذلك الحنان والـدفء اللذين كانا يلهبان عواطفه... كانت، منذ أن عرفت اسـمه، مدركـة تمام الإدراك أنه من إحدى دول أمريـكا الجنوبية... ربـما كان من كوبا وقد هرب من حكم كاسـترو... وبذلـك يكـون قـد وقع في براثن من سـوف تجعلـه في خدمة كاسـترو الذي هـرب منه... وربـما كان من بيرو، حيث الصراع بين الاشـتراكيين وحكومة الجيش محتدم منذ اغتيال الليني والاستيلاء على الحكم... وهنا، سوف تعطيه الفرصة كي يعبر عن إيمانه بالاشتراكية عمليًّا... ربما... ربما... ربما...

وعـلى كل الأحوال فلقد كانت الأيام، وكانــت اللهفة في صوت فرناندو تحتـدم مـرة بعد أخرى، حتى إذا مـا طلبته ذات مسـاء في التليفون، صاح بها قائلًا: إنه في حاجة لأن يراها مهما كلفها الأمر... ولأنها لم تكن من هذا النوع الذي تؤثر فيه العواطف مهما كانت مشبوبة، فلقد راحت تتمنع، وفي أعماقها إحســاس بالغضب لأنه لم يقص عليها شـيئًا من حياته رغم أنها بادرته بقصة حياتهــا المزيفـة تلك... لذلك فعندمـا التقت به بعد أيام أضناه فيها الشـوق، بادرها قائلًا بصوت مرتجف:

«إيلين»... لابد لي من الاعتراف بأني أصبحت مجنونًا بحبك!..

هـا هي الدماء الحارة لأهل أمريكا الجنوبية تدفع مرجل الحب إلى الغليان... وفي مواجهـة هذا الحب المشـبوب، كان لابد من أسـلوب آخـر للتعامل... فهي تعـرف أن الفتـاة التي تواجه مثـل هذا الحب، عليها أن تتصرف تصرفًا يتناسـب معـه تناسـبًا يدفع إلى لسـان الفتـى بالحقيقة دون أن تطلـب... كانا قـد التقيا في ذلـك المطعـم الكائن فوق تل خارج أوتاوا... وكان كل منهما قد ذهب وحده... وهي عندما وصلت بعد دقائق من الموعد، وجدته في حالة من القلق يرثى لها... وعندمـا قـال فرناندو كورتيز ما قال، كان يرتجف حقًّا، وكان شـاحب الوجه... مدت يدها كي تمسك بيده في رفق فوجدت أصابعه في برودة الثلج، عاد يهتف:

«إيلين»... ... ...

قاطعته وهي تضع أصابعها فوق شفتيه، قالت:

-«أعرف فرناندو... أعرف حقًّا أنك تحبني!»..

«فهل تُحبينني؟!»

رفعت إليه عينين يسيل منها العتاب صارخة، قالت:

-«كيف لي أن أحب من لا أعرف عنه شيئًا؟!»..

وكان في هـذا الكفايـة... فلقـد اندفع لاهثًـا، وكأنه يلقي بنفسـه في أتون ملتهب، قال:

-«إن اسمي ليس فرناندو كورتيز!»..

بدت الدهشة على ملامحها ممتزجة برعب أضاعه، فقال:

-«لا تسيئي الظن بي... أقسم لك إني إنسان شريف!»..

وكان هـو هذه المرة الذي أمسـك بيدها وكأنه يتـوكأ عليها، وراح يقص عليها ما لم يخطر ببالها!

4 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ حقيــقــة فــرنــانــدو كــورتيـــز..

ما إن فاه فرناندو كورتيز بما فاه به، حتى أحست «إيلين» بغبطة شديدة... ذلك أن حاستها الغريبة تلك التي قادتها إلى ذلك الفتى من أمريكا الجنوبية، تصـدق مـرة أخرى... ولقد أدركت على الفور أنه يحمل سرًّا سـوف يسـهل عليها مهمتها، ويجعله طوع بنانها في كل ما تريد وتبغي!

قال فرناندو وهو يرتجف انفعالًا، إن أكثر ما شـده إليها وربطه بها هو أنها -رغم لونه- لم تسأله من أية دولة هو، وإن كان هذا قد أدهشه إلى حد ما، إلا أن هذا قد كشف له عن معدن إنساني قلما يتوافر لفتاة بيضاء... لزم الصمت بعد ذلك لثوان ثم زفر زفرة حارة وهو يقول: إنه يحمل جواز سفر مكسيكيًّا وإن كان في الأصل من كولومبيا!

ركنـت «إيلين» إلى الصمت ولم تفه بحرف واحد وتركته على سـجيته... كان كل ما فعلته أنها راحت تربت على يده التي أمسـكت بيدها وكأنه يتوكأ عليهـا بـين الحين والحين مشـجعة، بينما كانـت عيناها تبثانـه نظرات جعلت الكلمات تسـيل من بين شـفتيه في تدفق لا يعرف التوقف... قال إنه تخرج في

كليـة الدواء -الصيدلة- في بوجوتا عاصمـة كولومبيا، وكان تخصصه الذي عشقه في فرع السموم.

... «لقـد اكتشـفت مبكـرًا «إيلين» أن بعض السـموم تريـاق يقضي على الكثـير مـن الأمراض... لكن المذهل في الأمر أن النـاس يلجئون إليها كمادة للقتل لا للشفاء!»..

أضاف «فرناندو» -لم يكن قد ذكر لها حتى الآن اسـمه الحقيقي- أن هذا الفـرع مـن العلـوم ليس سرًّا... بـل لقد توصـل بعض العلـماء الذين وقعوا تحت سـيطرة عصابات المخدرات في كولومبيا إلى تخليق أنواع مذهلة منها... ولقـد وجد عملًا بعـد تخرجه مباشرة... لكنّ شـهورًا قليلة ما كادت تمضي، حتـى اتصـل به رجال المافيـا طالبين منه نوعًا من تلك السـموم التي لا تترك أثـرًا في جثـة من تقضي عليه... ولقد كان موقفًا أشـد ما يكون اليقين، إنهم لم يكونوا في حاجة إلى هذا النوع حقًّا، وإنهم يستطيعون الحصول عليه بسهولة وفي أي وقـت يشـاءون، لكنهـم في حقيقـة الأمر كانـوا راغبين في السـيطرة عليـه حتى يوظفوه معهـم وقتما يحتاجون إليه... ولقد امتلأ الشـاب رعبًا في البدايـة رغـم أن ما حـدث كان، بالنسـبة للكثيرين في كولومبيا التي تسـيطر عليها عصابات المخدرات أكثر من سيطرة الحكومة، طبيعيًّا للغاية... حاول المقاومـة بالرغـم من يقينـه أن المقاومة لن تجدي، هذا فـوق أن كل المحيطين بـه من أهـل وأصدقاء لم يـروا في الأمر شـيئًا غريبًا... وهكـذا، لم يكن أمامه سـوى الاستسلام فاستسـلم ولم تمض سوى أسـابيع قليلة، حتى تحقق ظنه، فـما أن أمدهم بـما طلبوا، حتى بدءوا يطالبونه بمهام بدت له مخيفة، فلقد نقل ذات مرة شحنة من المخدرات من بوجوتا إلى مطار سري يبعد عن العاصمة

بضع مئات من الأميال، وحمل مرة أخرى شحنة صغيرة إلى المطار الرئيسي، واحتفظ مرة ثالثة بكميات وضعوها كأمانة عنده حتى أتى من أخذها... وهو في كل مرة، كان يقع تحت طائلة القانون... كان يعرف عن يقين مدى التدمير الذي تحدثه هذه المخدرات فيمن يتعاطونها، كما كان يعرف مدى القسوة التي يتعامل بها رجال هذه العصابات مع من يعجز عن الدفع أو يعصي الأمر... و... و...

... ... «الغريب في الأمر أني كنت أشعر بتأنيب الضمير رغم أن كل من حولي كانوا يفعلون ما أفعل وربما أكثر... لم يكن فيما أقوم به شيئًا خارجًا عن المألوف في كولومبيا فالجميع، حتى الحكام، كانوا في خدمة هؤلاء الأباطرة... ولقد حاولت، حاولت إقناع نفسي بالاستمرار فيما أنا فيه، دون جدوى!»..

حتى إذا ما كان يوم، لم يكن أمامه من سبيل سوى الهرب!

وهكذا لجأ إلى صديق له كان يعمل في إدارة حكومية لها علاقة بالجوازات... كان مؤمنًا أشد اليقين -هكذا قال لها- إن صديقه هذا يعمل لحساب المافيا أيضًا، فلقد كان من هذا النوع الذي يتأقلم بسرعة مع أي جو يحيط به تجنبًا للمتاعب، كما أن هذا الصديق بالذات كان سببًا من أسباب قبوله في البداية للتعاون مع تلك العصابات... وعلى كل فلم يكن الأمر سهلًا، لكنه بعد إلحاح دام لأسابيع طالت... وافق على أن يمد الشاب بجواز سفر باسم «فرناندو كورتيز»، ولقد فعل هذا بعد أن أقسم «فرناندو» بأغلظ الأيمان بأنه، حتى لو سقط في أيديهم، فلن يبوح بمن أمده بالجواز مهما لاقى من تعذيب!

-ولكن «فرناندو» لم تخبرني حتى الآن باسمك الحقيقي!.

هكذا فاجأته «إيلين» بالسـؤال على حين غرة وفي براءة طفلة كان لابد وأن تسأل السؤال، كانت مدركة لمدى خوفه من ذكر اسمه الحقيقي الذي غاب عنه لسـنوات، ولهذا، فلقد سألته السـؤال وهي ترقبه بعناية شديدة، فإذا به يرتج، يتلفت حوله كمن أصيب برعب هائل... لزمت «إيلين» الصمت، وطلبت له مشروبًا آخر، حتى إذا هدأت نفسه وهم بالحديث، همست في حنان:

-لا عليك... إن اسم «فرناندو» يعجبني!.

-ليس الأمر كما... ... ...

قاطعته في رقة:

-لابد أنك عانيت طويلًا يا حبيبي!.

مـا إن سـمع «فرناندو» كلمة يا حبيبي حتى انهار مـا تبقى لديه من تردد، فإذا به يقول:

-إن اسمي الحقيقي هو «إيمانويل سييرا»!.

انقضت بضع دقائق سادها الصمت تمامًا، كانت «إيلين» -الآن- مدركة أنها سيطرت عليه سيطرة تامة، ولهذا فلقد تظاهرت بنسيان الأمر، قالت:

-أكاد أموت من الجوع!..

وهكذا طلبا العشـاء، وهكذا راحت تدير دفة الحديث إلى أشـياء أخرى، وهكـذا كانت هـي التي طلبت منـه مراقصتهـا، حتى إن هدأت نفسـه تمامًا وأحس بالاطمئنان يحل محل القلق قال:

-ألا تريدين أن أكمل لك القصة؟!

-أخشى أن يثقل ذلك عليك!..

قد يكون ما تبقى منها أغرب مما سمعتيه حتى الآن!

رمته بابتسامة صائبة، أمسكت بيده، فراح يحكي!

... ...

... ...

استطاع «فرنانـدو كورتيز» أو «إيمانويل سـيرا» أن يهرب مـن كولومبيا عـبر الحدود إلى بنما... كان يعرف وجهته تمامًا، ففي المكسـيك، كان ثمة عم ثري له يعيش منذ سـنوات، وهو، في كنف عمه، وباسمه الجديد، سوف يجد الحماية دون شـك... ولقد انقضت أسـابيع وهو ينتقل مـن مدينة إلى أخرى ومـن عمـل إلى عمـل، حتـى إذا وصـل إلى المكسـيك والتقى بعمـه، كانت الصدمة به مروِّعة!

ما إن قص «فرناندو» على عمه قصته حتى أصيب الرجل بفزع رهيب... احتـد الحوار بينهـما فنهض «فرناندو» معتـذرًا وهمّ بالانـصراف... غير أن بقية من حنان دفعت الرجل إلى اسـتبقائه، اكتشـف «فرنانـدو» أن عمه أكثر فزعًا منه، فلقد طلب منه ألا يخبر مخلوقًا عن حقيقته... حمد له أنه غيّر اسـمه واسـتخرج جواز سـفر بالاسـم الجديد، ألحقه بوظيفة صغيرة في قصره ونبه عليه أن يتعامل معه أمام الناس كموظف عنده... قال له العم وقد هدأ روعه قليـلًا: إن عصابات المخدرات في كولومبيا تمتد أذرعها إلى جميع أنحاء القارة إن لم يكـن إلى جميـع أنحـاء العـالم... طلب منه أن يلـزم الحذر حتـى يدبِّر له وسـيلة أخرى للهرب بعيدًا عن أمريكا الجنوبية كلها، ولم يكن أمام الشـاب إلا أن يرضخ تمامًا لأوامر عمه!

انقضــت ثلاثــة أشــهر لان فيها قلب العــم رويدًا رويــدًا، وكان في بعض الأحيان يطلب من ابن أخيه طلبات تبدو غريبة... طلب منه ذات مســاء أن يحلق شــاربه ويطيل شــعره قائلًا: «إن خير وسـيلة للتنكر هي أبسـطها!»... ثــم تأمل ابــن أخيه قليلًا وأضاف: «إنك لو فعلت فلســوف تبدو مكسـيكيًّا من ســلالة الهنود الحمر!»... ثم طلب منه مرة أخرى وقد طال شــعره بعض الـشيء أن يأتيــه ببعــض الصــور، وذات يــوم أمــده ببعض المــال وطلب منه أن يبتــاع ملابــس تليق بشــاب على درجة مــن اليسر... حتــى إذا كانت ليلة، انصرف الخدام والموظفون وأوت زوجة العم إلى فراشــها، استدعى الرجل ابــن أخيه، كان المســاء حــارًّا. وكانا يجلســان في ركن من شرفــة القصر بعيدًا عــن العيــون، قدم له شرابًا وطلب منه أن يشــاركه طعام العشــاء، ثم ما لبث وقد انتصف الليل أن قدم لـ «فرناندو» جواز ســفر مكسيكيًّا باسم «فرناندو كورتيز» قائلًا: «من حســن الحظ أن الاســم الذي وقع اختيارك عليه شــائع في المكســيك!»... مع جواز الســفر ثمة مظروف به وثيقة من مدرســة الدواء -كليــة الصيدلة- في المكسـيك تثبت أن «فرناندو» أنهــى تعليمه فيها... بعد ذلــك أعطاه خطابًا لصديق له في كندا قال فيه إن «فرناندو» ابن لصديق ثري فقد ثروته ومات في حادث، وإن الشــاب لم يعد قادرًا على البقاء في المكســيك بعــد أن أصبــح وحيدًا... وفوق كل هــذا، أمده العم بالمال الــلازم له لموافقة الســلطات الكندية لــه على الهجرة إلى كنــدا، طالبًا منه بأن يبــدأ في إجراءات الهجرة في الســفارة الكنديــة... عندما همّ «فرناندو» بأن يشــكر عمه تغيرت لهجة الرجل وهو يقول:

-«سوف تخرج الآن من القصر «إيمانويل» لكيلا تعود إليه أبدًا!»...

ذهل «فرناندو» وهو يحملق في عمه الذي أردف:

-«إنك إن عدت مرة أخرى فسوف تكون العواقب وخيمة!»...

كان الأمر واضحًا، وكان التهديد سافرًا!.

ورحل «فرناندو» إلى كندا، واستقر في أوتاوا منذ ثلاث سنوات...

ولم يكن الصيدلي المسكين يعلم، وهو ينهي مأساته، أنه إنما كان يستجير من الرمضاء بالنار!

■ ■ ■

قال «فرناندو» بعد أكثر من ثلاث سنوات، وهو يقص على المحقق الذي توصل إليه قصته مع «إيلين»... بعد أن أخذ وعدًا صارمًا بكتمان سره - إن ثمة أمورًا دفعته دفعًا إلى الارتماء في أحضانها... كان أولها أنه شعر بأنها ليست فتاة عنصرية، وأن لونه لا يشكل بالنسبة إليها أية مشكلة... وأضاف أن كثيرًا من الفتيات البيض يتظاهرن بعدم العنصرية... وأن البشر بشر مهما تعددت ألوان جلودهم، غير أنه كان يكتشف بسرعة، أن العنصرية كامنة في دمائهن حتى وإن تظاهرن بغير ذلك... أما الأمر الثاني، فهو إحساسه الغريب بعد أن أمعن التفكير، أن عمه كان بشكل أو بآخر يعمل لحساب رجال العصابات، كانت ثمة أمور تجري في القصر بين الحين والحين، بدت له مريبة إلى حد كبير، وأن عمه، عندما طلب منه عدم العودة إلى القصر مرة أخرى، إنما كان يدافع عن نفسه... لقد دفعته عاطفته إلى مساعدته حقًّا، لكن ارتباطه بهؤلاء الناس، كان من القوة بحيث دفعه إلى توجيه هذا الإنذار

إليـه... ثم تسـاءل «فرناندو» هل كان عمه يسـتطيع أن يـأتي بالوثيقة المزورة وجواز السفر، دون أن يكون على علاقة بقوى هائلة ساعدته على هذا؟!

وهكـذا جاءت «إيلين» إلى حياته وظهرت فيهـا، كي تمثل له زورق نجاة من الوحدة والخوف معًا، زيادة على أنه شعر شعورًا مريحًا تمامًا بعد أن أفضى إليهـا بـسره الدفين... قـال إن هذا ما كان يشـعر به يقينًا في تلـك الليلة التي أفـضى فيها بـسره وهمـا في طريق العـودة، كان يقود السـيارة الصغـيرة التي يمتلكها، وكانت هي تضع رأسها فوق كتفه، وكان الأمل الذي راوده طويلًا منذ أن تعرف عليها قد تحقق. فكيف لا يقع في حبها، بل إنه يشعر حتى تلك اللحظات التي كان يُسـأل فيها وقـد اختفت «إيلين» أنها لا تزال ذلك الملاك الذي هبط عليه من السماء كي ينتشله مما كان فيه!

وفي حقيقـة الأمـر، كانت هـذه هي براعة تلـك الجاسوسـة الرهيبة، فكل الذين التقت بهم، ودفعتهم إلى خدمة أغراضها، لم تؤذهم، ولم تقلب لهم الوجه الآخر، بل لم تضغط عليهم في لحظة... إن كل الذين أجهدوا عقولهم فيما فعلته هذه الفتاة، ومحاولة معرفة أسـلوبها في التفكير وإدارة شـبكة تجسسها، وجدوا أنفسـهم أمام حقيقة بالغة البساطة، تلك الحقيقة التي يستعملها كل جاسوس للوصول إلى ما يريد، وهي أن تستعمل التهديد بكشف سره إن لم ينفذ ما تأمره بـه، لكنهـا أبدًا لم تفعل، بـل إن «فرناندو» على وجه التحديد، ثار عندما سُـئل إن كانـت قد وجهـت إليه تهديدًا مـن أي نوع... توصل هـؤلاء الذين راحوا يحفرون وراءها، إلى أن أسلوبها المنفرد هذا، كان هو سر نجاحها المذهل!

وعلـى كل، فلقـد طال الصمـت بينهما فتـرة حتى سـألها وقد وضعت رأسها فوق كتفه:

-«إيلين»... هل نمت؟!».

هزت رأسها إيجابًا ودون أن ترد فضحك، وعاد يهمس:

-«ألا أعرف رأيك فيما قصصت عليك؟!»

رفعت الآن رأسها نحوه، رمته بنظرة حالمة وهي تسأل:

-«هل تريد أن تعرف حقًّا؟!»

انتفض هاتفًا:

-«بالتأكيد».

اعتدلت في جلستها، نظرت إليه مليًّا، ثم طبعت فوق وجنته قبلة أشعلت النار في صدره:

-«هذا هو رأيي!!».

قالت هذا وهي تعود برأسها إلى كتفه مرة أخرى متمتمة:

-«والآن... دعني أغفو قليلًا فأنا لم أعرف طعم النوم منذ ليلتين!»

-«هل عاودتك آلام الأسنان مرة أخرى؟!».

-«كلا!».

-«إذًا فما السبب في عدم نومك؟!».

-«سوانسون!».

-«سوانسون؟!».

هكذا تساءل في دهشة فهزت رأسها إيجابيًّا. عاد يهتف:

-«ومن هو سوانسون هذا؟!».

ضحكت... ولزمـت الصمت. عاد «فرناندو» أو «إيمانويل» يتسـاءل في إلحاح ممزوج بخوف عنيف:

-«من هو سوانسون «إيلين»؟!».

-«صديق يحرمني النوم طوال الليل، فهو لا يكف عن الحركة!».

لزم «فرناندو» الصمت وكان قلبه يخفق، همت جالسة وهي تقول في مرح:

-«والغريب أن الحركة لا تحلو له إلا إذا نمت وانتظمت أنفاسي!».

انقبـض قلب «فرناندو»... عاود ذلك الإحسـاس المريـر بالعنصرية من الفتيات ذوات البشرة البيضاء قال:

-«ما الذي تقصدينه بالله عليك؟!».

-«هل تغار إيمانويل؟!».

ما إن نادته باسمه الحقيقي حتى ارتجف، هتف:

-«لا... أليس من حقي أن أغار؟!».

وكان ما قالته «إيلين»، أبعد ما يكون عن ذهنه، وأبعد ما يكون عن الخيال أيضًا!.

5 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ مصرع سوانسون!

قال فرناندو كورتيز أو إيمانويل سييرا، إن «إيلين» في تلك الليلة راحت تضحك وكأنها فتاة في الثامنة عشرة من عمرها اكتشفت عالم الحب الوردي فجأة، قالت له إنها سعيدة كل السعادة لأنه يغار عليها... اعتدلت في جلستها على المقعد المجاور والتفتت ناحيته ثم أردفت وكأنها تشكو، إنها كانت تظن أن بني وطنها من شباب الإنجليز هم أكثر الشباب برودًا في العالم، لكنها اكتشفت منذ وصلت إلى كندا، أن شباب كندا أكثر برودًا من الشباب الإنجليزي... أضافت أنها سعيدة لا لأنه يحبها فقط، ولكن لأنه استطاع أن يبثها ذلك الدفء الذي افتقدته طوال العمر!!

والذي لا شك فيه أن «إيلين ويستمان» كانت تضرب بحذق على وتر بالغ الحساسية لدى هذا الشاب الكولومبي الأسمر، ذلك أنه بالقطع كان يعاني وحدة قاتلة منذ جاء إلى كندا... قال للمحقق الذي كان يستمع إليه مندهشًا ومعجبًا في نفس الوقت بأداء تلك الفتاة- إنه أحس في تلك الليلة بأنه تخلص من عبء ثقيل... لا لأنه باح بسره إلى «إيلين» فقط، ولكن لأن الأمل الذي

راوده منـذ أن تعـرف عليها قد تحقق فجأة فبدا له الأمـر كله وكأنه حلم غير قابل للتصديق!

في تلـك الليلـة، وعلى غير العادة، راحت «إيلـين» تتحدث وتثرثر في كل موضوع بعيدًا عما كان يتحدث فيه وكأنها نسيت الأمر برمته... وكلما حاول «فرنانـدو» العودة إلى موضوع صديقها سوانســون هذا الـذي يؤرقها طوال الليـل، هربت مـن الأمر إلى الحديث عن العواطف والحـب فتيقن الفتى أنها وقعت في غرامه إلى الحد الذي ملأه بالسعادة... حتى إذا ما كانت لحظة أراد أن يحسم فيها الأمر، سألها:

-ألا تريدين الحديث عن سوانسون؟!.

ضحكت في خجل وكأنه أحكم الحصار حولها، فسألته بدورها:

-هل تريد الحديث عن غريمك؟!.

-فليكن غريمي إيلين... فليكن غريمي ولكن من هو ومتى تعرفتِ عليه وإلى أي مدى وصلت علاقتك به؟!.

هدأت الفتاة قليلًا، انكشمت في جلستها، لزمت الصمت لثوان قالت بعدها.

-إذن فاعلـم أيهـا الشـاب أن غريمـك ليس سـوى فأر صغير تسـلل إلى البيت من حيث لا أدري!.

ذهل «فرناندو» ولكن السعادة اجتاحته حقًّا، هتف:

-ولماذا لا تحاولين اصطياده؟!.

-هل جننت؟!.

-وماذا في هذا؟!.

-ماذا؟!... رباه... إني أكره السجون، فكيف أسجن مخلوقًا بريئًا كل ذنبه أنه، ولد فأرًا؟!.

أسرتـه رقتها كـما أسره ذلك المنطـق الذي لا يحمله سـوى ذوي النفوس الشفافة، لكنه سأل:

-ولماذا لم تخبريني؟!.

ضحكت الآن مثل طفلة، هتفت في مرح:

-هل تنوي منازلته؟!.

-لا... بل أنوي القضاء عليه!.

دفعته في رفق مازحة:

-وهل تظن أني قادرة على رؤية فأر يحتضر؟!.

-لسوف يموت دون احتضار!.

-إنك تهزل أيها الشاب!.

-أنا لا أهزل... سوف أمدك بنوع من السموم تكفي قطرة منه لكي تقتل رجلًا في خمس ثوان!.

رمته بنظرة شك وقد بدت الدهشة في عينيها صارخة، فأردف ممازحًا:

-وحتى لو اكتشفت الشرطة جثة هذا الفأر، فلن يجدوا فيها أي أثر لهذا السم!.

لم تجب... فقط، وضعت رأسها من جديد فوق كتفه، أغمضت عينيها... فلقد كان هذا بالضبط ما تسعى إليه!!

... ...

... ...

ما الذي كانت هذه الفتاة تفكر فيه تمامًا؟!

سـؤال من الصعب الإجابة عنه، فمن المحـال أن يعرف المرء، في ظروف كتلـك التي وجد فيها «إيمانويل سـييرا» أو «فرناندو كورتيـز»، المدى البعيد الذي كانت تفكر فيه «إيلين إيسـتمان»... ذلك أن الشـبكة كانت، حتى ذلك الوقـت، لا تـزال في طور التكوين... حقًّا كانت هناك شـبكة محدودة، وكان هنـاك تجسـس، ومعلومات تتـسرب إلى الاتحاد السـوفيتي، كـما كانت هناك تكليفـات تصـل إليها عبر تلك الخطابات المرسـلة إلى ذلـك الفتى البالغ من العمر تسـعة عشر عامًـا، والذي ظلت علاقته بها طوال مـدة إقامتها في كندا دون انفصام... كل هذا كان قائمًا حقًّا، لكنه لم يكن قد تشـكل وثبت بشـكل يدفعهـا لأن تنطلـق في مهمتها التي أوصلتها إلى ما كشـف عن هوايتها تلك الغريبة في قتل أي إنسان يعترض طريقها!

وهكـذا وجد المحقـق الذي جلـس إلى «فرنانـدو كورتيز»... نفسـه أمام عقلية غريبة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، عقلية نافذة ومتحجمة -هذا هو تعبـيره- ثم أضاف: كيف يمكن لشـاب في مثل ظـروف «فرناندو» أن يقاوم بعد ذلك أي طلب تطلبه «إيلين»، حتى ولو لم ينل منها ولو قبلة واحدة؟!!

■ ■ ■

بعـد هذا اللقـاء اختفـت «إيلـين»... كان «فرناندو» يعرف مـكان إقامتها بالقطع، كما أنه كان يعرف أين المحل الذي كانت تملكه وتديره... لكنه لم يجرؤ عـلى الاتصال بها... فلقد طلبت منـه ذات مرة، لظروف خاصة، ألا يتصل بها

إلا إذا اتصلت هي به، وهو -عاطفيًّا- كان لابد له أن يطيع، غير أنه -عمليًّا- لم يكن يملك وقد أعطاها كل أسراره، سوى الطاعة، والطاعة العمياء!!

كان بطبيعة الحال قد جهز السم الذي وعدها به، وهو سم متطور غير هذا الذي كان يمد به عصابات المخدرات في كولومبيا - كانت خبرته الآن قد تراكمت، كما أن هوايته لهذا النوع من علوم الدواء قد ازدادت... وعلى كل، فلقد جهز السم، وجلس في الانتظار!!... حتى إذا ما اتصلت به ذات يوم والتقيا، هتف في احتجاج:

-إيلين... أين كنت طوال تلك الأيام؟!.

كان وجهها مكفهرًّا، وملامحها تنبئ عما يعكر خواطرها، طلبت منه ألا يلح في السؤال... قالت إنها ليلة أن كانا معًا، عادت كي تجد في انتظارها عددًا من المشاكل لا بأس به، وأن هذه المشاكل قد استغرقتها تمامًا طوال الفترة الماضية.

رفعت إليه عينين حزينتين، سألها إن كان يستطيع أن يقدم لها يد المساعدة، فهزت رأسها نفيًا، حاول أن يعرف شيئًا عما يكدرها عبثًا... كانا يجلسان في صمت وهما يحتسيان فنجانين من القهوة السوداء،وكانت تبدو عصبية بعض الشيء لا تكاد تستقر على حال، ما لبثت أن نهضت قبل أن تنتهي من قهوتها وهي تتمتم:

-لابد من الانصراف إيمانويل!.

-ألم تنسي شيئًا؟!.

رمتـه بنظـرة تائهة وكأنها نسـيت أمر سوانسـون برمته، أخـرج من جيبه زجاجة صغيرة بها سائل أبيض:

-هذا دواء مستر سوانسون!.

ابتسـمت وكانت ابتسـامة شـاحبة، تناولت منه زجاجة السـم بلا مبالاة واضحة، همس:

-حـذار يا حبيبتي، إن قطـرة واحدة، واحدة فقط، فوق قطعة من الجبن، كفيلة بأن تقتل رجلًا لا فأرًا!!.

وضعت الزجاجة المحكمة في حقيبة يدها، فأردف محذرًا:

-إيلين... أنا لا أهزل!.

سألته في إشفاق:

-هل أنت واثق من أنه لن يعاني؟!.

اجتاحته عاطفة جياشة، هتف مرتجف الصوت:

-كم أنت رقيقة يا حبيبتي!.

رمته بنظرة شكر وانصرفت!.

... ...

... ...

قال أحد المخضرمين في هذا الحقل عندما اسـتمع إلى ما حدث: «إن هذه هـي ذروة العبقريـة في أداء تلـك الفتاة... فهي لم تطلب السـم، بل هو الذي قدمه إليها، وعندما تناولته، بدت وكأن الأمر لا يعنيها!!».

■ ■ ■

بعـد أسـابيع كانت «إيلين» قـد انتهت تمامًا مـن تكوين شـبكتها المثالية، ولكـن، لأنهـا لا تريـد أن تترك شـيئًا للمصادفات أو الظروف، فلقد اسـتقر رأيها أن تطلب من موسكو، ما يمكن أن نطلق عليه «فريق الحماية»!

قـال أحـد المتخصصين في شـئون الاتحـاد السـوفيتي، إن الـروس كانوا دائـمًا يعتبرون كنـدا، بابًا خلفيًّا للولايـات المتحدة... ففي كنـدا تقوم بعض الصناعـات المسـاعدة للصناعـات الثقيلـة، ومثـل هـذه الصناعات، تشـير بالـضرورة إلى ما يمكـن أن يتم هنالك إذا ما تعذرت الأمـور على المعرفة... ولذلك، فلقد كانت هذه الجاسوسة المتميزة، في حاجة إلى مجموعة صغيرة من هؤلاء الذين يأتمرون بأمرها دون سـؤال أو مناقشـة... مجموعة من الأفراد، يتميزون بملكات خاصة، قد تحتاج إليها هذه الفتاة إذا ما اضطرها الأمر إلى العنف بكل صوره.

ولقد استغرقت المناقشات في موسكو بعض الوقت... كان الطلب في حد ذاته خطيرًا... ذلك أن اسـتعمال العنف في غير محله، وبأسـلوب بالغ الدقة، كفيل بكشـف أمر الشبكة، أو على الأقل، في بعث الشكوك إلى عقول هؤلاء الذين يتربصون بالجواسيس في دولة مثل كندا... غير أن كل التقارير، بل كل الإنجـازات، وكم المعلومات التي أمدتهم بها «إيلين» كانت كفيلة بأن تقضي عـلى كل اعتراض للفكرة... خاصة، أن أحدًا لم يتصور، بل لم يخطر بباله، أن «إيلين» سـوف تلجأ إلى العنف... فلا المعرفة الشـخصية بها، ولا الدراسات النفسـية التي وضعت تحتها أثناء وجودها في جاتزينا، كانت تشـير بأي حال مـن الأحوال، إلى نزعـة الإيذاء أو القتل... وعلى هـذا، فلقد جاءت الموافقة

أخـيرًا، والكل على يقين كامل بـأن هذه الفتاة، لن تلجأ للعنف إلا للضرورة القصوى، وعندما تتعرض الشبكة إلى خطر محقق!

بعد أسـابيع اتصل بها، بوسـائل بالغة السرية طبعًا، عامل من عمال الميناء في مونتريـال... ثم شـاب يعمل في نـاد رياضي في أوتاوا، وكان هذا الشـاب -على وجه التحديد- أحد أبطال رياضة الاسـكواش المرموقين في كندا، كما اتصلت بها سـيدة تعمل في مغسـلة عامة، وكان آخر الذين اتصلوا بها طبيب يشغل منصبًا في إحدى المستشفيات!

كان المفروض ألا يلتقي هؤلاء الأشخاص بعضهم ببعض، بل ألا يعرف أحدهـم الآخـر مهما كان الأمر إلا إذا سـمحت «إيلين» بهـذا... وحتى إذا ما التقوا، لم يكن مسموحًا بأن يعرف أحدهم اسم الآخر أو وظيفته أو عنوانه... وهكذا استطاعت هذه الفتاة الغريبة، أن تبرهن مرة أخرى على قدرتها الفائقة على التنظيم، وما هي إلا أيام، حتى أصبح لديها فريق كامل للقتل يعمل تحت إمرتها كمجموعة، دون أن يلتقي أحدهم بالآخر أو يعرف عنه شيئًا!

■ ■ ■

كان المحـل الـذي افتتحته «إيلـين» -وقد انقضت بضعة أشـهر- قد نال شـهرة لا بأس بها... وكثر عدد الزبائن نتيجة للأسـلوب الرفيع الذي اتبعته هذه الفتاة في إدارته... فما من عميل أو عميلة كان يدخل المحل، إلا ويشـعر بعد دقائق أنه أصبح مالكًا له لا مجرد عميل يبتاع ما يبغي ثم ينصرف إلى حال سبيله... كان عدد العاملات في المحل قليلًا، لكن «إيلين» كانت دائمًا هناك، ترصـد العملاء والعميلات بعين يقظة، حتى إذا كان يوم ، دخلت إلى المحل إحدى العميلات، وكانت ترغب في شراء نوع معين من الملابس الداخلية...

ومنـذ اللحظـات الأولى، أدركت الفتـاة بفطرتها الفاحصة، أن هذه السـيدة تعاني أزمة خاصة، ولأنها كانت تبدو، من نظرتها وملابسـها وتصرفاتها، من طبقة خاصة، فلقد تولت «إيلين» الأمر بنفسها!

كانت السـيدة في الخامسة والأربعين من عمرها، لم تكن جميلة وإن كانت مليحة... فرغم السنوات، فإن هيئتها كانت تشي بتلك الملاحة الغابرة، والتي كانت بالقطع جزءًا من جاذبيتها.

مـا إن تبادلـت «إيلين» معها بعـض الكلمات، حتي اكتشـفت من لهجتها أنهـا مـن أصل ألماني... على الفـور، برزت قرون الاستشـعار لديها، فأعطت السيدة قدرًا أكبر من اهتمامها... فراحت تساعدها، بل تدلها على أنواع معينة مـن الملابس الداخلية كانـت كفيلة بأن تجذب أنظار زوجهـا... وسرعان ما استجابت هذه السيدة للإغراء، فأسلمت قيادتها تمامًا لـ «إيلين» التي راحت تسـتدرجها في الحديث، حتى عرفت أنها تستشـعر مـن زوجها بعض الفتور في الفـترة الأخـيرة، وعندما قبلت دعـوة «إيلين» إلى فنجان قهـوة في مكتبها الصغير، وقد انتهت من ابتياع ما أرادت، حتى راحت تشكو لها همها!

عرفت «إيلين» أن «الهينرتش» -زوج السـيدة- يعمل كمهندس كهربائي في مصنع للكيماويات، وأن الرجل قد تقلد، منذ بضعة أشهر، مركزًا مرموقًا في المصنع، بعد أن أثبت جدارة في تطوير العمل بالمصنع، واسـتخدام الطاقة الكهربائية بأسـاليب مبتكرة... كان واضحًـا كل الوضوح أن فراو هينرتش غارقة في حبها لزوجها حتى أذنيها، فلقد راحت تحكي بحنان بالغ، كيف كان يسـهر الليل في محاولة لتطوير العمل في أحد المفاعلات الكهربائية لاستنباط مـواد كيميائية بعينها... حتى إذا نجح في أبحاثه، تقلد منصبه ذاك الجديد...

غير أن الأمر تطور بعد ذلك تطورًا غير محمود، فلقد لاحظت فراو هينرتش -وكان اسـمها الأول جروتـرود- أن زوجها لم يعد يهتم بـها كان يهتم به من قبـل ذلك... وفي البداية، فلقد عزت الأمـر إلى انهماكه في وظيفته الجديدة... غير أنها اكتشفت مع الأيام، أن السر يكمن في سكرتيرته الجميلة التي تصغره بعشرين عامًا كاملة، وأنها بذلت معه كل جهد ممكن دون فائدة تذكر.

وفي الحقيقـة، فلقـد كانت ابتسـامة «إيلين» ورقتها وتفهمها لمشـكلة هذه السـيدة البائسة، مثل بلسم يشـفي الجراح، فلقد راحت تطيب خاطر السيدة جروترود، وتنصحها بتغيير نوع العطر الذي تسـتعمله، بل لقد حضتها على تغيير تسريحة شـعرها، قالت إن مثل هذه الأمـور تحدث عادة بعد مضي فترة معينـة مـن الـزواج، وأن كل ما عليهـا أن تفعله، أهم من الملابـس والعطور وتصفيف الشـعر، أن تستعيد ثقتها بنفسـها... ذلك أن جمالها الكامن، أقوى بكثير من جمال أية سكرتيرة!!

غادرت السيدة هينرتش محل «إيلين» راضية تمامًا... خرجت سعيدة دون أن تدري أن «إيلين» في نفس اليوم، أرسلت برقية عاجلة إلى موسكو تستعلم فيها عن مهندس كهربائي مقيم في كندا ويعمل في مصنع للكيماويات، يحمل اسم «فريدرك هينرتش»، وإن كانت تظن، أن الاسم ليس حقيقيًّا، وأن وراءه سرًّا لابد من معرفته!

■ ■ ■

بعـد بضعة أسـابيع لم تطل كثـيرًا، وصل إلى «إيلين» تقريـر واف عن هذا المهنـدس... الـذي كان -لحظه التعس- بدايـة الطريق الذي شـقته «إيلين» نحو العنف، وكان طريقًا ملطخًا بالدماء حقًّا.

6 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ محاصرة الهر هينرتش!

لم يكن إرسال «إيلين ويستمان»، أو «تانيا راديونسكا» من قبل المخابرات السوفيتية إلى كندا اعتباطًا بطبيعة الحال... ذلك أن الشعب الكندي كان، ولايزال، يضم مهاجرين من جنسيات عديدة، حقًّا كانت الحكومة الكندية في البداية تدقق كثيرًا في طلبات الهجرة وماضي المهاجرين وجنسياتهم، لكن اتساع رقعة الأراضي هناك، والحاجة الشديدة إلى الأيدي العاملة، جعلت الحكومة الكندية تتنازل كثيرًا وتغض الطرف عن شروطها الصارمة الخاصة بجنسية المهاجر وربما ماضيه... ولذلك، فلقد كان من الضروري أن يضم الشعب الكندي الكثيرين ممن لهم ماض يريدون نسيانه أو التخلص منه.

من أجل هذا، كانت «إيلين» تبحث دائمًا عمن له ماض، ذلك أن تجنيدهم لحساب موسكو، سوف يكون أهون عليهم من كشف هذا الماضي الذي قد يؤدي إلى طردهم من البلاد!

وعلى كل الأحوال فإن هذه الفتاة الغريبة لم تضيع وقتًا، فقبل أن يصل التقرير الخاص بالمهندس الكهربائي فريدرك هينرتش من موسكو، كانت

قـد جمعت قدرًا لا بأس به من المعلومات عن مصنع الكيماويات الذي يعمل فيـه... لم تكـن المعلومات التي حصلـت عليها وافية تمامًا، وإن كانت تشـير بشـكل ما، إلى تجارب سرية كانت تتم في قسـم خاص من هذا المصنع حول بعض الأسـلحة الكيماويـة التي كانت لاتـزال تحت التجربـة، ولقد جعلتها هـذه الأنباء تطير فرحًـا، كانت هذه هي المرة الأولى التـي ينمو إلى علمها أن ثمـة أسـلحة كيماوية تجـرى عليها التجـارب في كندا، وكان لابـد لها أولًا أن تطـير الخبر إلى موسـكو، ثم تعكف بعد ذلك على اسـتكمال هـذه المعلومات الخاصـة بالمصنـع... وبعد ذلك كان عليها أن تعرف كل شيء عن سـكرتيرة الهرهينرتـش التي أكـدت لها التقارير أنه أصبح يرأس ذلـك الفريق الفني في هذا القسم السري بالمصنع!

ما إن علمت موسـكو بالخبر حتى وصل إلى «إيلين» تكليف من الرؤساء هنـاك، بتكثيف البحث حول هذا المصنع ومعرفـة كل شيء عما يدور في هذا القسـم بالذات. مع تشـديد صـارم بالحرص الشـديد... ذلـك أن مثل هذه المصانع عادة ما توضع تحت حماية أمنية صارمة!

... ...

... ...

كانـت مسـاحة العمل أمامها واسـعة، فقسـمت الأمر إلى ثلاث شـعب راحت تعمل ليل نهار وفي سرية مطلقة بطبيعة الحال... كانت الشعبة الأولى خاصـة بالمصنـع نفسـه، والثابت، أن وثائـق سرية قد صدرت وسـلمت إلى «إيلين» التي أرسـلتها بدورها إلى موسـكو، لكن هذه الوثائق لم تشبع فهمها لمعرفـة ما كان يدور في هذا القسـم السري بالـذات، غير أنها علمت في نفس

الوقت، أن كل ما يتعلق بهذا القسم، لا يعرف حقيقته سوى ثلاثة من بينهم الهرهينرتش نفسه!

وهكذا ركزت في المرحلة الثانية على معرفة كل شيء عن تلك السكرتيرة!

كان أول ما لفت نظرها في هذه الفتاة التي كانت في الثلاثين من عمرها هو الاسم، كان اسمها لويز ماك كورميك، وهو اسم بدا لها بريطانيًّا... ولقد أكدت لها التقارير التي راحت تتدفق عليها صدق حدسها!

عرفت أنها هاجرت من بريطانيا منذ حوالي عشر سنوات، وتنقلت في بعض الأعمال حتى استقر بها الأمر كسكرتيرة في أحد مصانع الأدوية... وكان أن التقت أثناء حفل أقامته إحدى صديقاتها، بشاب أمريكي كان يعمل في إحدى الشركات المشتركة اسمه چاك براندون، وسرعان ما توطدت العلاقةبينها وبين السيد «براندون» الذي كان يكبرها بخمس سنوات، وما هي إلا بضعة أشهر، وكان هذا منذ خمس أو ست سنوات، حتى أعلنا خطبتهما أثناء حفل أقيم في أحد نوادي أوتاوا الليلية بمناسبة عيد ميلاد صديق مشترك... بعد مضي عام وبعض العام، كان على السيد «براندون» أن يعود إلى الولايات المتحدة بعد أن انتهت مهمته في كندا... وهكذا ودعها على أن تلحق به بعد أن تستقر له الأمور في الوطن، ولقد انقضت أسابيع كانت تتصل به هاتفيًّا بين الحين والحين، وكان هو، من ناحيته، وكلما سألته عن موعد رحيلها واللحاق به، يؤجل الأمر لسبب أو لآخر... وبعد مرور خمسة أشهر أحست «لويز» أن في الأمر ما يريب، حدث هذا عندما طلبته ذات يوم في البيت فجاءها الجواب من رجل لم يذكر لها اسمه، بأن «براندون» قد انتقل

إلى مسكن آخر، وعندما طلبته في العمل مرات لم تجده، لكنهم قالوا لها ذات يوم إنه ترك العمل في الشركة وانتقل إلى عمل آخر لكنه لم يترك عنوانه!..

لم تطق «لويز» صبرًا، وقررت أن تطير إلى الولايات المتحدة لتكتشف الأمر بنفسها بعد أن حصلت على إجازة لمدة أسبوع، لكنها غابت هناك لأكثر من ثلاثة شهور، اختفت فيها تمامًا مما اضطر أصحاب العمل إلى فصلها... وعندما عادت، قال لها كل من كان يعرفها إنها عادت إنسانًا آخر... كانت قد أصبحت منطوية على نفسها، ساهمة دائمًا، قليلة الكلام وقد غادرها مرحها الذي اشتهرت به بين الأصدقاء والصديقات... وعبثًا حاول البعض معرفة شيء عما حدث فلقد لزمت الصمت تمامًا، وكان كل ما قالته لإحدى صديقاتها ذات ليلة: «لقد كنت حمقاء!!»... غير أن بعض الشائعات تناثرت بين الأصدقاء مؤداها، أنها اكتشفت في الولايات المتحدة أن «براندون» متزوج وله أسرة، لكن أحدًا لم يذكر كيف توصلت إلى معلومة كهذه!

بدأت لويز ماك كورميك في البحث عن عمل آخر حتى وجدت عملًا في هذا المصنع الذي تعمل فيه بعد انتظار طال لأسابيع استنفدت كل مدخراتها... استأجرت منزلًا متواضعًا في أطراف المدينة، ولم يعد أحد يراها في المحلات العادية أو في رحلات نهاية الأسبوع مع الأصدقاء والصديقات... ولقد وجدت «إيلين» نفسها أمام لغز يبحث عن حل، غير أن كل ما كان يعنيها في ذلك الوقت هو: كيف تعيش هذه الفتاة؟!.

دلت التحريات التي قام بها عملاء «إيلين» أن «الهرهينرتش» كان يزور «لويز» بالفعل بين الحين والحين في بيتها المتواضع هذا، وأن ثمة علاقة قد نمت بين الاثنين خلال الشهور التي انقضت، وأن البِشْر قد عاود الفتاة مرة

أخرى، وشوهدت عدة مرات وهي تحتسي المشروبات مع مجموعة الأصدقاء والصديقات القدامى وقد عادت إليها نضارتها وكأنها نسيت تمامًا خيبة أملها مع «براندون» الأمريكي... وفي المرات القليلة التي سُئلت فيها عن سبب تلك السعادة لم يحظ أحدهم بجواب... وهكذا، لم يعد أمام «إيلين» سوى مراقبة الفتاة بدقة وانتظار ما قد يجدُّ من أمور أو معلومات!

في نفس الوقت، كانت زوجة الهر هينرتش دائمة الاتصال بـ «إيلين» هاتفيًّا وقد تغيرت نغمة صوتها وجنحت إلى السعادة والمرح... حتى كان يوم -وكان هذا بعد بضعة أسابيع من زيارتها الأولى لمحل «إيلين»- فاجأت صديقتها الجديدة بالزيارة دون موعد مسبق... ولم تكن الزيارة هذه المرة لابتياع المزيد من الملابس الداخلية، ولكن فقط كي تراها وتحتسي معها فنجانًا من القهوة.

كانت جروترود هينرتش الآن قد استردت ثقتها بنفسها وعادت إليها نضارتها واستعادت مرحها المفقود فبدت أصغر من عمرها الحقيقي بكثير... ولقد قالت فراو هينرتش فيما بعد: إنها كانت تشعر بامتنان شديد حيال هذه الفتاة التي تصغرها كثيرًا، لكنها استطاعت أن تساعدها وتساندها في استعادة زوجها مرة أخرى... وقبل أن تنصرف -ولم تكن الزيارة قد استغرقت أكثر من خمس عشرة دقيقة- قالت لـ «إيلين» إنها سوف تقيم عشاء لمجموعة من الأصدقاء في نهاية الأسبوع، وأنه يسعدها لو أنها قبلت الدعوة لحضور هذا العشاء...

فكرت «إيلين» بسرعة، كان هذا هو غاية مرادها، وها هي الزوجة تفسح الطريق أمامها كي تلتقي بـ «فريدريك هينرتش» وجهًا لوجه... غير أنها

تظاهرت بالأسف وهي تعتذر للسيدة هينرتش قائلة إنها مرتبطة في نهاية الأسبوع بموعد مع صديق، ولم يكن هذا ليمنع جروترود أن توجه الدعوة إلى هذا الصديق الذي لم تكن تعرفه، قالت:

-«إن أصدقاء «إيلين» لابد أن يكونوا محل ترحيب مني ومن «فريدريك»!».

-«ولكن... ... ...».

هكذا قالت «إيلين» ثم لزمت الصمت وقد أرخت عينيها خجلًا، هتفت جروترود:

-إيلين... لابد أن تحضري هذا العشاء، إن فريدريك مشوق لرؤياك!.

-ولكني أخشى ألا يرحب زوجك بصديقي!.

-لماذا؟!.

-لأنه مكسيكي الأصل، فوق أن بشرته سمراء!.

فضحكت جروترود في مرح وهي تقول:

-هل تظنين أننا عنصريان أيتها الفتاة؟!.

وهكذا وافقت «إيلين» وكانت قد قررت أن تصحب فرناندو معها إلى العشاء!

■ ■ ■

ما إن انصرفت هذه السيدة الألمانية وكانت تتقافز في مشيتها كصبية في العشرين من عمرها، حتى راحت «إيلين» تفكر في أمر شغل بالها أخيرًا...

حقًّا لقد وضعت جروترود على الطريق الذي تستعيد به زوجها، ولكن ...
إذا كان «فريدريك هينرتش» على علاقة بسكرتيرته «لويز» التي تصغر زوجته بخمسة عشر عامًا على الأقل، فهل يمكن أن تتغير عواطف هذا الرجل بمثل هذه السرعة، لمجرد أن زوجته غيرت تسريحة شعرها واستخدمت نوعًا مختلفًا من العطور وابتاعت ملابس داخلية من نوع خاص...

كانت «إيلين» تعرف يقينًا أن الجاسوس العظيم، هو من يستطيع أن يسبر غور النفس الإنسانية، والذي يعرف كيف يتعامل مع الآخرين ويصل إلى الحقيقة منهم، دون أن يشعر هذا الآخر بأية غرابة في أسئلته... كانت قد طرحت على «جروترود» أثناء تناول القهوة عددًا من الأسئلة أرادت بها أن تعرف كنه هذا التغيير الذي طرأ على سلوك زوجها... ومن إجابات «جروترود»، أيقنت أن ثمة سببًا آخر غير تسريحة الشعر أو العطر الجديد أو الملابس الداخلية التي تغري الزوج بزوجته... أيقنت أن هناك سببًا بعيدًا تمام البعد عن السيدة «هينرتش»... ولم يكن هناك من سبب واضح للعيان، سوى «لويز ماك كورميك»... فما الذي حدث؟!.

... ...

... ...

كان عليها الآن أن تكثف الرقابة حول «لويز ماك كورميك»، وأن تعرف تفاصيل حياتها اليومية، أدق التفاصيل دون إغفال لشيء مهما بدا للآخرين تافهًا... وسرعان ما جاءتها الأنباء تقول، إن «الهرهينرتش» كان يتردد -طوال الشهور الماضية- على سكرتيرته في بيتها المتواضع بشكل شبه منتظم، وأن سيارته الغالية الثمن قد لفتت أنظار الجيران في البداية، ثم عندما

تعـددت الزيارات، أدرك الجميع أن ثمة ارتباطًا لابد أن يجمع بين الاثنين... لكن أحدًا في الحي لم يعرف شـخصية الرجـل، بل ربما لم يفكر أحد في معرفة شـخصيته، ذلك أن «لويز» كانت -بالنسـبة للجميع- فتـاة مؤدبة ورقيقة لم تسـبب، منذ أن سكنت هذا البيت، أي أزعاج لأحد... ومنذ بضعة أسابيع، بدا للبعض أن ثمة فتورًا قد اعترى العلاقة، فلم يعد هذا السيد المهذب يزور الفتـاة إلا قليلًا... وبحسـبة بسـيطة أدركـت «إيلين» أن هذا الفتـور بدأ قبل أن تزورهـا زوجـة «هينرتش» لأول مـرة، ولقد أكد لها هـذا الظن، أن هناك سـببًا آخر للفتور الذي اعترى علاقة الرجل بزوجته غير تلك النصائح التي زودتها بها...

غـير أن واقعـة حدثت قبـل بضعة أيام جعلـت «إيلين» تطلـب من أحد عملائها أن يأتيها بكل شيء يخص هذه الفتاة الغريبة... ذلك أن «الهر هينرتش» شـوهد وهو يغادر بيت السـكرتيرة ذات مسـاء وهو يدمدم غضبًا، ويركب سـيارته بعصبيـة واضحة، ثم ينطلـق بها في سرعة جعلت عجلات السـيارة تـصرخ أثنـاء احتكاكها بالأرض، بينـما كانت «لويز» المسـكينة تلاحقه حتى الباب والدموع تغرق وجهها... لكن أحدًا لم يعرف -على الإطلاق- سـبب هذا الغضب، والذي بعـد وقوعه، جاءت زوجة «فريدريك كي تدعوها إلى هذا العشاء في عطلة نهاية الأسبوع!

لم تكن معرفة الحقيقة صعبة على أي حال... فسرعان ما عُرف أن «لويز»، منذ قرابة ثلاثة أشـهر، كانت تتردد على طبيب نسـاء معروف في المدينة، لكن اللافت للنظر، أنه لم يكن الطبيب المختص بالكشـف على موظفي المصنع مما أثار الشكوك التي سرعان ما اتضحت... فمن خلال مساعدة ذلك الطبيب،

عـرف عميـل «إيلين» أن «لويز» كانت حاملًا في الشـهر الرابـع، وأنها كانت تحـاول، في الفـترة الأخـيرة، أن تقنـع الطبيب بإجـراء عمليـة إجهاض لكن الرجـل رفـض تمامًا، لأنه رأى أن إجـراء العملية؛ في ذلـك الوقت، كان من الخطورة بمكان!

كانـت الصـورة الآن قـد اتضحـت تمامًا أمام «إيلـين ويسـتمان» أو «تانيا راديونسـكا»... وهكذا، راحت تسـتعد لحضور ذلك العشاء في بيت الرجل الذي أصبح يشغل حيزًا كبيرًا من تفكيرها...

اتصلت ذات مسـاء بـ «فرناندو كورتيـز» صديقها الصيدلي، وطلبت منه أن يلتقيا في أحد مشـارب وسط المدينة بعد انتهاء ساعات العمل... وفي هذا اللقاء، فاجأته «إيلين» بتلك الدعوة إلى العشاء... وكانت سعادة الفتى بالغة عندمـا أنبأتـه أن الدعوة موجهة أيضًا إليه... كان يحلم الآن، بأنها تسـعى إلى الارتباط به، علنًا أمام الأصدقاء.

غـير أن المصادفـة أبـت إلا أن تلعـب مـع هـذه الفتـاة دورًا أعطاهـا ثقة متزايـدة فيـما كانـت مقدمة عليه، فقبـل موعد العشـاء بليلة واحـدة، وصل إليهـا مـن موسـكو ذلـك التقرير الـذي كانت تنتظـره عن المهنـدس الألماني الأصـل «فريدريك هينرتش»... وما إن ألقت على التقرير نظرة سريعة حتى ذُهلـت... ها هي الأقدار تسـوق إليها صيـدًا ثمينًا كان مـن الصعب -وقد امتلكت ما امتلكت عنه من معلومات- أن يفلت من براثنها!

■ ■ ■

قـال التقريـر إن اسـم «فريدريك هينرتش» اسـم مسـتعار، وأن الاسـم الحقيقـي هو «هانز فولر»، ولقـد كان «الهرفولر» الأب ضابطًا نازيًّا، اشـتهر بقسـوته البالغة في معاملة أسرى الحرب في معسـكرات الاعتقال النازية إبان الحـرب العالمية الثانية... قبل نهاية الحرب بقليل اختفى الأب دون أن يعرف أحد سر اختفائه... ولقد قيل إنه أعدم بأمر شـخصي من هتلر لأن الشـكوك حامت حوله لاشـتراكه في مؤامـرة لقتل «الفوهرر»، غـير أن كل التحريات والتحقيقـات التـي أجريت بعـد انتهاء الحرب، لم تثبت شـيئًا من هذا، وعلى ذلك، فإن الظن يذهب إلى احتمالين: الأول أن يكون الرجل قد انتحر، وهذا ما لا يملك أحد دليلًا عليه، أمَّا الاحتمال الثاني، فيذهب إلى أن الرجل فر من ألمانيـا تاركًا أسرته المكونة من الزوجة والابن -«هانز»- وبنتين... وإن صح هذا الظن، فالغالب أن يكون الرجل قد تُوُفِّي الآن...

غـير أن الابـن اسـتطاع بعد فترة وجيـزة، أن يهرب إلى ألمانيـا الغربية، ثم يـذوب بعد ذلك تمامًـا دون أن يعرف أحد عنه شـيئًا ومازالت الأم والبنتان يعشن في ألمانيا الشرقية حتى الآن، وهن لا يعرفن شيئًا عن «هانز» هذا، وقد تزوجت الفتاتان وإن ظلت الأم حتى الآن تعيش في بيت الأسرة!

أحسـت «إيلـين» بعد قـراءة التقرير بعنايـة، وكأنها تقبض عـلى عنق هذا المهنـدس الألماني التعس الحظ، فهي، بداية، تسـتطيع تهديـده بفضح علاقته بـ«لويز ماك كورميك» التي تحاول الآن إجراء عملية إجهاض من الواضح أنهـا لم تتـم... ورغم أنها لا تعرف متى تزوج من «جروترود»، وكيف تعرف عليهـا، وأين... فإنهـا أيضًا لا تعـرف إن كانت زوجته تعرف حقيقة اسـمه أم لا... وإذا كان التقريـر القـادم مـن موسـكو يقـول: إن تهمًا مـن أي نوع لم

توجـه للفتى الذي كان صغير السـن عندما وضعت الحـرب أوزارها، فلماذا غير اسمه؟!... هل يخشى من ملاحقة أجهزة المخابرات إذا ما عرفوا أنه ابن رجل مطلوب القبض عليه ومحاكمته كمجرم حرب، أم أن في الأمر سرًّا آخر عليها أن تكتشفه؟!

وعلى كل، فهناك نقطة ضعف من السهل أن تؤثر فيه، وهي اضطهاد أمه وشقيقتيه اللواتي يعشن في ألمانيا الشرقية وتحت رحمة الشيوعيين!

وهكذا كانت «إيلين» تشعر أنها تحاصر الرجل حصارًا لا فكاك منه وهي في الطريـق إلى بيته بصحبة «فرناندو كورتيز» الذي كان قد ابتاع بدلة جديدة خصيصًا كي يحضر بها هذا العشاء!

ولقـد قـال «فرنانـدو» للمحقق الـذي جلس إليـه بعد اختفـاء «إيلين»: «... ... ... وعندما وصلت إلى بيتها بسـيارتي في تلك الليلة، لم أنتظر طويلًا، فسرعان ما فتح الباب وظهرت «إيلين» وكانت... ... ...

صمت «فرناندو» وقد شحب وجهه، بينما لزم المحقق الصمت في انتظار أن يكمل الشاب حديثه هو، وما هي إلا لحظات حتى هتف:

«يا إلهي... لا يمكن أن تكون هذه الفتاة جاسوسـة يا سـيدي، لقد بدت لي في تلـك الليلة،وفي ذلك الثوب الوردي الرائع الذي كانت ترتديه، وكأنها واحدة من نجمات السينما. لقد كانت جميلة إلى حد يدير الرأس!!..

كانـت هذه الفتاة الجميلة تسـتعد في تلك اللحظـات، لواحدة من أعنف معاركها الخفية في كندا!

7 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ مـبــارزة بـالكـلـمـات!

قال «فرناندو كورتيز» إنه في تلك الليلة، وما إن رأى «إيلين» تغادر البيت حتى قفز من السيارة مندفعًا نحوها وقد استبدت به السعادة وملأه الفخر... بـدا لـه الأمر مثل حلـم بعيد عـن التصديق، بدت لـه «إيلين» جميلة بشـكل خـاص، يلتمـع في عينيها الزرقاويـن بريق يحيلهما إلى فيروزتـين مضيئتين... فتح لها باب السيارة فركبت، مال على النافذة المجاورة لها وهو يهمس:

-«يا إلهي... هل تعرفين كم أنت جميلة يا حبيبتي؟!»

منحته ابتسامة جعلته ينتفض في مكانه مثل الفرخ المبتل، دار حول السيارة وركب إلى جوارها وكل خلجة في جسـده ترتجف حبًّا وإعجابًا... ساد بينهما الصمت لثوانٍ قال بعدها «فرناندو»:

-هل تعرفين أن... ...

قاطعته في مرح:

-لست أريد الحديث معك، إني غاضبة منك!

-وهل أستطيع أن أفعل ما يغضبك؟!

-إن سوانسون يهديك تحياته!

هتف دهشًا:

-مـــاذا؟!

-لقد وضعت له قطعة الجبن بعد أن أغرقتها في ذلك السائل الذي أعطيتني إياه، فأكل الجبن كي يزداد نشاطًا وحركة!

-محال... هذا محال!

التفتت نحوه... رمته بنظرة عتاب وهي تقول:

-أتراني أكذب عليك؟!

انتفض الفتى نافيًا:

-ليس هذا ما قصدت إليه!

-لليلتين متتاليتين وضعت الجبن بعد أن غمسته في السائل، ولم يمت سوانسون بل ازدادت حركته إزعاجًا وكأنه يتحداني!

هم «فرناندو» بالحديث فاندفعت مازحة:

-ويتحداك!

كانت «إيلين» بالقطع كاذبة، وكانت في نفس الوقت، تسعى إلى شيء آخر... بعد فترة صمت قال «فرناندو»:

-لا عليك... سوف أمدك بكمية أخرى أشد فتكًا!

هتفت في فرح:

-وإذا عثر البوليس على جثة ذلك الفأر المسكين فماذا أنا... ...

قاطعها:

-لن يكتشفا شيئًا، أقسم لك إنهم لن يكتشفوا شيئًا!

وهكذا ضمنت «إيلين» الحصول على كمية أخرى من سـم شديد الفتك، لا يترك أثرًا في جثة من يتناوله!

■ ■ ■

كان البيـت الـذي دخلتـه «إيلـين إيسـتمان» أو «تانيـا راديونسـكا» مـع «فرناندو» في ذلك المساء، ينم عن حالة اقتصادية مريحة تمامًا... لم يكن واسعًا وإن كان البهو الذي جلس فيه المدعوون، يتسـع لثلاثة أركان يتميز كل ركن فيهـا بطـراز معين مـن الأثاث، وإن كانـت الأركان الثلاثة، تصنـع نوعًا من التناسب الذي ينم عن ذوق رفيع حقًّا.

في ركـن قـصي في المـكان كان البيانـو يتربـع ومـن حولـه ثلاثـة مقاعـد لا أكثـر، تناثـرت الفازات والتحف فـوق الأرفف الأنيقـة، وكأن كل قطعة منهـا معروضـة في متحـف، على الجـدران لوحـات لفنانين محدثـين ولم تكن هناك لوحات كلاسـيكية أو تقليدية ممـا ينم عن متابعة للفن الحديث... كان الضيـوف جميعًـا يرتـدون الملابـس كاملة مما يـدل عـلى أن «الهرهينرتش» أو «الهرفولـر» يتمتع إلى جوار الذوق الرفيع، بخاصيـة الاختيار الدقيق لنوعية الأصدقـاء... كان هنـاك عالم كيميائـي يعمل معه في نفـس المصنع، ولم يكن صعبًا على «إيلين» أن تعرف، قبل أن تنتهي الليلة، أنه من أصل استرالي، جاء إلى كندا في بعثة دراسـية منذ ما يقرب من عشرين عامًا، لكنه اسـتوطن كندا

وتزوج من سيدة أمريكية لا تكف عن الثرثرة دون أن يستمع إليها أحد... كما كان هنا أديب ظهرت له روايتان لفتتا أنظار النقاد والقراء على السواء وحققتا أرقامًا في التوزيع لا بأس بها... ثم رجل أعمال تجمعه بـ «هينرتش» هواية لعب التنس، أما زوجته فلقد قدمتها «جروترود» إلى «إيلين» على أنها فنانة تشكيلية لفتت لوحاتها أنظار النقاد حتى في الولايات المتحدة.

هكذا وجدت «إيلين» نفسها تتناول العشاء مع نخبة من المجتمع الكندي تتيح لها مساحة أوسع من المعارف فطابت نفسًا... وإن كانت بطبيعة الحال، قد ركزت اهتمامها في صاحب البيت الذي كانت الآن تعرف عنه كل شيء، الماضي والحاضر معًا!

... ...

... ...

كان «هرفريديك هينرتش» في الخمسين من عمره، طويل القامة، مليح التقاطيع، وإن كانت الصرامة الألمانية تحتل موقعها فوق تلك الملامح لا تبرح... ولعل أول ما لفت نظر «إيلين» فيه، هي تلك الثقة الشديدة بالنفس التي كان يتعامل بها مع الآخرين، كل الآخرين بمن فيهم زوجته، كان يكفي أن يطلب شيئًا حتى تنتفض هذه السيدة المسكينة لتلبية طلبه... ولقد تعمدت «إيلين»، بعد أن قدمتها زوجته إليه أن تختار مقعدًا نائيًا في المكان... مقعدًا يستطيع من يجلس عليه، أن يرقب كل من في الحفل ببساطة ودون بذل الجهد أو حتى الالتفاف... وقف «فرناندو كورتيز» إلى جوارها بعضًا من الوقت، لكنه سرعان ما اندمج في الحديث مع المهندس الكيميائي... ولأن الفتى لم يكن مجرد صيدلي، ولكنه هاو للكيماويات، فلقد أولى تركيزه

حـول موضوع كان محل مناقشـة بين هذا المهندس وبـين صاحب البيت: مما أثـار إعجاب الاثنين حقًّا... وعندما عبرا عـن إعجابهما، أمد هذا «فرناندو» بمزيد من الثقة بالنفس، فانطلق على سجيته يظهر مواهبه!

ذات لحظـة انتبهت «جروترود» إلى أن صديقتهـا تجلس وحدها، فما كان إلا أن هتفت بزوجها:

-«فريدريك»... ألا تؤنس وحدة صديقتي؟!

-التفـت الرجـل نحو «إيلـين» رنا إليهـا للحظات ارتسـمت بعدها على شـفتيه ابتسـامة خفيفة... ما لبـث أن نهض إلى حيث كانت «إيلين» جالسـة في اسـتقامة فتاة بريطانية محافظة، جذب مقعـدًا جلس عليه إلى جوارها وهو يقول:

-لقد حدثتني «جروترود» كثيرًا عنك في الأسابيع الماضية!

-أرجو ألا تكون قد بالغت في إظهار عيوبي!

رفع الرجل حاجبيه دهشة وهو يقول:

-عيوبك... إنها لم تذكر شيئًا عن العيوب!

قال هذا ثم أردف مغمغمًا:

-وأرجو ألا تكون قد بالغت في ذكر ما تتصفين به من خلق!

أحسـت «إيلـين» مـن حديثـه أنهـا تمثـل لهـر فولـر المتخفـي تحت اسـم «هينرتـش»، تحديًـا من نوع خاص. كما أحسـت -بشـكل غامـض- أنه غير راضٍ عـن علاقتها بزوجتـه... كانت قد لاحظت وقـد انقضى ما يقرب من ثلاثـين دقيقـة منذ أن وصلـت ، أن الرجل إمـا أنه يتجنب الحديـث معها -

وكان هـذا طبيعيًّـا لو أن زوجته كانت قد أخبرته بها دار بينهما من حديث، أو -عـلى الناحيـة الأخرى- أنـه كان يرى أن مركزه الاجتماعي لا يتناسـب مع صاحبة محل صغير لبيع الملابس الداخلية للسيدات... فإذا أضافت إلى هذا، أن الحـوار بينهـما منذ البداية، بدا وكأنه مبارزة مـن نوع خاص، فلقد اتخذت قرارًا بأن تنتصر في هذه المباراة!

عـلى كل، فهي لم تعلق عـلى ما قال بل لزمت الصمت وهـي ترميه بنظرة نافذة أحست بعدها باضطرابه من الداخل، ولذلك، فقد سألها:

-لم تجلسين وحدك؟!

- أخشى ألا تسعفني ثقافتي للحوار معكم!

تجاهل ما قالته وهو ينظر نحو «فرناندو» قائلًا:

-إن صديقك عالم بحق... هل تعرفين هذا؟!

-يقـــينًا!

-لقد خطر لي أن أسألك إن كان يقبل العمل معنا في المصنع!

كان الأمـر مفاجـأة كاملـة لهـا... أدركت على الفـور أنها أمـام عقلية من الصعـب التقليل من شـأنها، لم يكن قـد مضى أكثر من خمـس وأربعين دقيقة منـذ أن وصلت بصحبة «فرناندو» إلى البيت، فهل اكتشـف هذا الرجل فيه، وبمثل هذه السرعة، كفاءة تدفعه إلى طلب الالتحاق بالعمل معه في المصنع، أم أن هناك كمينًا ينصبه لها هذا الرجل؟!

كان عليها أن تقرر الأسـلوب المثالي للتعامـل معه، ولقد لجأت إلى الحيلة الوحيدة التي تعطيها الفرصة لإمكان التفكير، وهي الصمت... كان صمتها

الآن يعني أشياء كثيرة، وكان على «هر هينرتش» أن يتخذ هو القرار حتى يكشف عن مكنون تفكيره.

-يبدو أنك مندهشة من طلبي هذا!

هكذا قال بعد لحظات فلم تزد عن القول:

-حقًّا؟!

قال «فريدريك» وهو ينهض إلى مائدة مجاورة كي يعد لنفسه شرابًا:

-أعلم أن العرض مفاجأة... كما أعلم أني ربما كنت متسرعًا بعض الشيء، لكن الذي عليك أن تعرفيه جيدًا، أن العالم لا يقاس بكمٍّ ما حصَّل من معلومات، بقدر ما تقاس مقدرته وملكاته، بأسلوبه في التفكير!

كانت المعركة ضارية، هكذا أحست «إيلين ويستمان»، عاد «فريدريك» إلى جوارها وهو ينظر نحو «فرناندو»، والذي كان منهمكًا في الحوار مع الآخرين، ثم أردف:

-هل تسألينه إن كان يقبل؟!

-ولم لا تفعل هذا بنفسك؟!

جاءه ردها المفعم بابتسامة باردة مثل صفعة فلاذ بالصمت لثوان، ثم ما لبث أن نهض قائلًا:

-ربما كنت على حق، ربما كنت على حق!

■ ■ ■

كانـت الدقائـق التالية، والتي تنـاول فيها المدعوون طعام العشـاء، كافية تمامًالأن تسـتعيد «إيلين» ما حدث، وأن تستعد في نفس الوقت لجولة أخرى قررت أن تخطوها في نفس الليلة:

ويبدو أن هذه الفتاة كانت تمتلك ملكات فذة بحق، فلم يفتها -على سبيل المثال- أنه كان في البيت خادمة واحدة متوسطة العمر، وأنها كانت تقوم على خدمتهم بمسـاعدة السـيدة «جروترود»... وكان هذا غريبًـا، ففي مثل هذا البيت، كان لابد وأن يكون هناك اثنان على الأقل -في مناسبة كهذه- يقومان بالخدمة!

عـلى مائدة الطعام جاءت جلسـة «إيلين» إلى جـوار صاحب البيت وكان لابد لهما بطبيعة الحال أن يتبادلا الحديث، وحسـب الأصول المتبعة، كان على صاحب البيت أن يأخذ زمام المبادرة... ذات لحظة قال وهو يضع قطعة لحم أمام «إيلين»:

-لابد لي أن أطري ذوقك في اختيار المناسب من الملابس!

-أية ملابس تقصد!

هكذا سألته «إيلين» في تحد سافر وواضح، ذلك أن جملته بدت لها مراوغة أكثـر مما ينبغي... ولقـد ضايقها -بصرف النظر عن حلها- أن يسـتهين هذا الرجـل بذكائها إلى هذا الحد... ذلك أن الجملة كانت تحتمل معنيين لا ثالث لهما، الملابس الداخلية التي ساعدت زوجته على اختيارها... أو رداءها الذي كانـت ترتديـه في تلـك الليلة... وعلى كل، فما إن سـألته ذلك السـؤال حتى ابتسم، ثم ضحك ضحكة خفيفة وهو يغمغم:

فهل أطري ذكاءك أيضًا؟!..

لم ترحمه، قالت:

-لكنك لم تجب عن سؤالي!..

هنا حدث ما لم تتوقعه «إيلين» على الإطلاق... فلقد أطلق «فريدريك هينرتش» ضحكة عالية جلجلت في المكان ولفتت الأنظار فساد الصمت والتفت كل المدعوين نحوه وقد استبدت بهم الدهشة، بينما تظاهرت «إيلين» بالانهماك في تناول الطعام وكأن الأمر برمته لا يعنيها... ما لبث الرجل أن هتف موجهًا حديثه إلى «فرناندو»:

-«أيها الشاب... إني أهنئك على اختيارك!»

بدا «فرناندو» مرتبكًا تمامًا، فلم يكن يعرف ما الذي يقصده رب البيت بالضبط... غير أن هذا أفرغ كل ما كان في كأسه من شراب، ثم قال ملوحًا بإصبعه في وجه «فرناندو»:

-وإن كنت أنصحك بالحذر، ففتاة مثل الآنسة «إيستمان» تملك عقلًا شديد اليقظة!

في تلك اللحظة بالذات، أدركت «إيلين» أنها أخطأت في الحساب، فما كان ينبغي أن تكشف عن ذكائها بمثل هذا السفور مع رجل بدا لها غير عادي بكل المقاييس... كان لابد لها من التظاهر بالسذاجة والوقوع في فخ أسئلته حتى يظن أنه -بثقته في نفسه- قد سيطر عليها، حتى إذا حانت اللحظة المناسبة انقضت عليه... هكذا كانت أصول اللعبة لكنه أفلح في استفزازها... ولقد كانت مستغرقة في التفكير لا تسمع ذلك الإطراء الذي

انهـال عليها من زوجة الرجل ومن «فرناندو» على السـواء... كانت الآن في موقف لا تسـتطيع التراجع عنه، وهو موقف، من وجهة النظر الأمنية، يبدو شائكًا!!.

في النهايـة قالت إيلين لنفسـها، إن «فريدريك هينرتـش» أو «هانز فولر» قد كسب الجولة الأولى، هذا ما يجب أن تعترف به، ولكن... وسوف يصبح عليهـا ألا تتيح له أن يتيه بنصره طويـلًا، عليها أن تفرض بداية الجولة الثانية - ولكن كيف؟!!

8 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ الإنـــــــذار!

الذي لا شك فيه، أن شخصية «هر فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر»، كانت مفاجأة كاملة بالنسبة لـ «إيلين إيستمان» التي لابد وأن تكون قد أنَّبت نفسها كثيرًا لأنهـا أعطته الفرصة لاسـتفزازها وجرها إلى مناقشـة كشـفت عن حـدة ذكائها، فلـم يكن هـذا مطلوبًا بأي معنى من المعاني... والآن، وقـد قال ما قال على مائدة العشـاء، لم يكن هناك مجال للتراجـع، وإذا كانت قد هُزمت في الجولة الأولى، فإن المعركة لم تنته بعد، وعليها أن تفكر ألف مرة قبل أن تتخذ الخطوة التالية!

كانت الآن أمام خيارين... أولهما أن تبادر بالهجوم، وبأسلوب لا ينتظره، أسلوب يزعزع تلك الثقة الزائدة بالنفس، والتي وصلت -من وجهة نظرها إلى- حـد الغـرور... أما الخيار الثاني فهو الانتظـار حتى تفكر في الأمر بتَروٍّ، وحتى تختار الوقت المناسب كي توجه إليه ضربتها!

غير أنها سرعان ما وجدت أن الانتظار يمثل خطرًا من نوع آخر، فماذا لو كان العرض الذي طرحه «فريدريك» على «فرناندو» عن طريقها ليس سوى

طعم يريد به شـيئًا آخر؟!... ماذا لو أنه عرض الأمر على «فرناندو» بالفعل، وماذا لو أن «فرناندو» وافق؟!

إن أمـرًا مثـل إعطاء «فرنانـدو» وظيفة في هـذا المصنع، لابد وأن تسـبقه اختبـارات ولقاءات وحوارات وربما لأهميـة المصنع وإذا صحت المعلومات التي وردت لها عنه، مراقبات أيضًا؟!... وإذا كانت المعلومات لديه الآن أنها مرتبطة بـ «فرناندو»، فلابد أن تشـمل تلك المراقبات،إن تحققت، شخصيتها أيضًا!

كانت في مأزق، وكان لابد وأن تسرع بالهجوم ولا تضيع وقتها مهما كان الأمر!

وهكـذا وجدت «إيلين» نفسـها وهي لا تزال جالسـة إلى مائدة العشـاء، تفكـر بسرعة شـديدة، وسرعـان ما اسـتغرقها التفكـير... وحتـى لا تلفت الأنظـار، اتخذت سـمة الفتاة البريطانية المحافظة التـي تتقنها جيدًا، وقبل أن تغـادر البيت، كانت قد وصلت إلى حل بالفعل، فعندما كانت تودع السـيدة والسـيد «هينرتـش» عنـد انصرافها مع «فرنانـدو»، وبينما الرجـل يصافحها احتفظت بيده لثوانٍ وهي تقول:

-إذا كانت هناك مشكلة خاصة بإنسان يعمل في مصنعكم، فهل أطمع في مساعدتك لحل هذه المشكلة؟!

كان السـؤال غريبًـا بـكل المعاني، وكان بالتـالي يمثل بالنسـبة لرجل مثل «فريدريـك» مفاجأة غـير متوقعة، مما دفعه إلى التردد لثـوانٍ كانت كافية لأن تنتهـز زوجتـه الفرصة لرد الجميـل، وكانت بالطبع تقـف إلى جوار زوجها، فلقد قالت بترحاب شديد:

-بالطبع يا عزيزتي، إن «فريدريك» لا يستطيع أن يرفض لك طلبًا!

قالت جروترود هذا وهي تتطلع إلى زوجها في شغف قائلة:

-«أليس كذلك يا عزيزي؟!»

وهكذا ضيعت هذه السيدة المسكينة على زوجها فرصة المناورة، وكان لابد أن يقول:

-بالطبع... بالطبع!

وعندما أطلقت «إيلين» يده من يدها رمته زوجته بنظرة نارية وهو يضيف:

-إن كان هذا في استطاعتي!

-إذن، فلسوف أكون ممتنة لو أنك وجدت من وقتك الثمين بضع دقائق في الأيام القادمة!

قالت هذا دون أن تذكر شيئًا عن المشكلة أو صاحبها، ودون أن تعطيه فرصة للرد، التفتت نحو «فرناندو» وهي تخطو نحو الباب قائلة:

فرنـــــي!..

وكان اسم التدليل هذا الذي نادت به «فرناندو» كفيلًا بأن يصعد بأحلام الفتى إلى عنان السماء!!

... ...

... ...

إن المتأمـل لطبيعـة هـذا الحـوار الـذي دار بـين «هانـز فولـر» و«تانيـا رادیونسـكا»، لابد وأن يكتشـف عنف الصراع الذي بـدأ بينهما منذ اللحظة الأولى... وإذا كانـت المعلومـات التـي توفرت للمحققين بعـد اختفاء تلك الفتاة، لم تسـتطع أن تملأ مسـاحات ظلت مجهولة تمامًا لـكل من أراد البحث عـن القصـة كاملة... إلا أنه في مثل هذه الأمـور، يصبح على المحقق أن يملأ هذه الفراغات باحتمالات لابد أن تكون أقرب ما تكون إلى الحقيقة!

لقد كان السـؤال الذي ألقتـه «إيلين» على «فريدريـك هينرتش» أو «هانز فولـر» كفيلًا بأن يدفـع الرجل إلى التفكـير فيمن تكون هذه الشـخصية التي تعاني مشـكلة في المصنع، والتي تريد منه «إيلين» أن يساعدها، وما هي طبيعة المشـكلة، وهـل هي مشـكلة شـخصية أم أنها خاصـة بالعمـل... وكان لابد -بالتـالي- أن يجنح تفكيره إلى سـؤال: هل أخـبرت زوجته «إيلين» بشيء عن هواجسها فيما يختص بسكرتيرته، وهل المشكلة تخص مسز ماك كورميك؟!!

وعـلى كل الأحـوال، فالسـيدة جروتـرود -زوجتـه- كانت هـي الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يلقي الضوء على حالة الرجل في تلك الليلة... ولقد كانـت هذه السـيدة - بعـد قرابة ثلاثة أعـوام عندما جلس إليهـا المحققون، في حالـة انهيـار حقيقي رغم مضي الزمـن... وفيما يختص بتلـك الليلة، فلقد أجابت عندما سـألوها عن تلك الشـخصية التي تحدثت عنها «إيلين» أو عن طبيعة المشكلة التي كانت تعاني منها:

-... ... لم أعـرف شـيئًا لا عـن المشـكلة ولا عـن صاحبها فـلا «إيلين» أخبرتني، ولا «فريدريك» تحدث إلي في الموضوع بعد ذلك، ولا أنا سألته... كنت قد نسيت الأمر برمته!

وعندما سألها أحد المحققين عن حالة زوجها بعد انصراف المدعوين، سهمت قليلًا ثم كست وجهها غلالة من حزن وهي تقول:

-كنت أظن أنه عاد إلي أخيرًا، لكني اكتشفت في تلك الليلة أني كنت واهمة!

لزمت الصمت لثوانٍ صعد فيها الدمع إلى عينيها، حتى إذا تمالكت نفسها أضافت:

-نعم... إني أذكر الآن جيدًا أنه كان عصبيًّا بعض الشيء، وعندما سألته عن رأيه في «إيلين» انفجر وهو يقول إنني لم أعد أحسن اختيار الأصدقاء... وكان معنى هذا أنه يرفض «إيلين» تمامًا، وأنه غير راض عن علاقتي بها مما سبب لي حرجًا شديدًا!

وعندما سألها المحقق إن كانت قد استجابت لرأيه هذا أجابت:

-لم يكن أمامي سوى التظاهر بهذا، لقد كانت«إيلين» صديقة حميمة، وكانت طيبة وحنونًا... وإن كان البعض قد روّج فيما بعد أنهما كانا يلتقيان. إلا أني لا أصدق هذا، لا أستطيع أن أصدق!

■ ■ ■

ولقد كانت «إيلين» هي الأخرى في تلك الليلة، في حالة استغراق وتفكير عميق... هكذا قال «فرناندو كورتيز» الذي كانت السعادة قد أخذته أخذًا، ليس فقط لأنه أصبح موقنًا أن «إيلين» تبادله الحب خاصة بعد أن نادته باسم التدليل هذا «فرني» أمام الآخرين، ولكن لأن «الهرهينرتش» طلب منه رقم تليفونه لأن ثمة أمرًا يريد أن يناقشه فيه... لم يكن الفتى يعرف طبيعة هذا الأمر، وراح يضرب أخماسًا في أسداس، وعندما سأل «إيلين» -وهما في

السـيارة في طريقها إلى البيت- إن كانت تسـتطيع أن تخمن السبب، قالت في اقتضاب وكأن الأمر لا يعنيها:

-إنه يفكر في إلحاقك معه بالعمل في المصنع!

تضاعفـت سـعادة «فرناندو» بطبيعة الحال، راح يتقافز في جلسـته خلف عجلة القيادة وهو يسأل:

-هل أنت موقنة من هذا يا حبيبتي؟!

-أجل!!

هكـذا قالت في اقتضاب، وعندما هم بالسـؤال، كان نصيبه نظرة صارمة جعلته يحدث نفسه مغمغمًا:

-إن أمـرًا مثـل هذا هو حلم أحلامي جميعًا، سـوف أعود إلى المعامل مرة أخرى... سوف أعود إلى عملي الحقيقي!

ولم تعلق «إيلين»، ولم تنطق حرفًا حتى غادرت السيارة!

■ ■ ■

ولابـد أن «إيلـين» ظلـت تفكر طوال الليـل فيما يجب عليهـا أن تفعله في الخطـوة التالية، كانت موقنة أشـد ما يكون اليقين أن سـؤالها هذا الذي ألقته على «فريدريك» سـوف يلقـي به في أتون من التكهنـات لا نهاية له... كانت تعلـم أنها تركـت له الأمر برمتـه، وأن عليه هو أن يتصل بهـا... غير أن أمرًا آخر كان يشـغل ذهنهـا وإن كان لم يحظ منها، حتى انفردت بنفسـها، باهتمام خـاص... فقد لاحظـت أن «فريدريك» كان يختطف منها، بين الحين والحين نظـرات إعجـاب لا تخفى، ولقد أدركـت أن الرجل إلى جانـب ذكائه الحاد،

زير نسـاء من طراز خاص... ولقد كان هذا يمثل لها نقطة ضعف شـخصيته سوف تساعدها حتمًا على الوصول إلى ما تريد منه وتبغي!

في صبـاح اليـوم التالي وصلهـا خطاب عن طريـق ذلك الفتى ابن التاسـعة عشرة، والذي كان الآن قد ارتبط بها ارتباطًا شديدًا، وقنع منها بلقاءات متباعدة مع نظرة امتنان كلما جاءها بخطاب من الأهل!! - من ابن عمها في لندن!!

كان الخطـاب طويـلًا ومكونًا من صفحة ونصف الصفحـة، وكان ابن العم يتحدث فيه عن العائلة وأحوالها، ويتساءل عن سر انقطاعها عن الكتابة في الفترة الأخيرة، مما دفعه إلى السؤال عن أحوالها وإن كانت في حاجة إلى المساعدة!!

مـا إن قرأت «إيلـين» فحوى الخطاب حتى انكبت عليه كي تحل شـفرته، ورغـم طول الخطـاب، فلقد كان في حقيقته مكونًا من سـطر ونصف يقول: لابـد من معرفـة كل شيء عن هذا المصنـع الذي يعمل فيه «الهـر هانز فولر» الذي اتخذ لنفسـه اسـم «فريدريك هينرتـش»!!... وكان معنى هذا، أنهم في موسكو يتعجلون الأمر، وينتظرون منها فعلًا إيجابيًّا في أسرع وقت!

ولقـد مضت الأيام دون أن يتصل بها فريدريـك... كما أنه -على الجانب الآخـر- لم يتصل بـ «فرنانـدو كورتيز»... ولم يكن هذا باعثًا على القلق، وإن كان باعثًا على التفكير!!

وعلى كل، فلقد وقع في تلك الأيام حادث شغلها بعض الشيء، وأضاف إلى همومها، همًّا آخر!

■ ■ ■

ذات مساء كانت تجلس في مكتبها في المحل تراجع بعض الأوراق الخاصة بالبضائع، عندما دلف إلى المحل شـاب في حوالي الأربعين من عمره بصحبة سـيدة في حوالي الخامسة والثلاثين... كان واضحًا -من النظرة الأولى، ومن أسلوب تعاملهما- أنهما زوجان انقضى على زواجهما سنوات... ولقد أدركت «إيلين» من النظرة الأولى، أنهما من أصل روسي!

ولقـد ظنت في البداية أنهما من موظفي السـفارة السـوفيتية في أوتاوا، ثم شـكت في أن يكونا مبعوثين من الـ «كي. جي. بي» -المخابرات السـوفيتية- جاءا كي يرقبا بنفسيهما أسلوب عملها في المحل... غير أنها سرعان ما طردت الفكرة من رأسها ليقينها أن المخابرات السوفيتية من المحال أن تستعمل معها أسـلوبًا فجًّـا كهذا... ذلـك أن الرؤسـاء في موسـكو، إن أرادوا معرفة شيء عنها. فمن المسـتحيل أن يرسـلا روسيين سوف ينكشـف أمرهما لها من أول وهلة... ولقد رأت -حتى تحسـم الأمر- أن تقوم هي على خدمتهما بنفسها، لكنها أرادت أن تترك الأمور تسـير سيرها الطبيعي، فعادت إلى الأوراق من جديد، حتى إذا ما انتهت مما في يدها نهضت في تكاسل واقتربت منهما!

لم تدهش كثيرًا عندما سـمعتهما يتحدثان بالروسـية، ولقد كانا يتجادلان حول نوعين مختلفين من الملابس... وبطبيعة الحال، لم تكن العاملة التي تقوم على خدمتهما تفهم شـيئًا مما كانا يقولان، توقفت صامتة في انتظار أن يسـتقر رأيهما على صنف بعينـه... وهنا، اقتربت منها «إيلين» وتصنعت معها حوارًا أدى إلى انصرافها للقيام بعمل آخر.

كانت بسمتها وإشراقة وجهها كافيتين تمامًا لأن يلفتا نظر الشاب وزوجته...

ولقد أراد الشـاب أن يحسـم الأمر في النهاية، فالتفت نحو «إيلين» سائلًا إياهـا -بالإنجليزية طبعًا- عن رأيها... وسرعان ما جرتها إلى حديث طويل عن كل ماركة ومميزاتها: وحول الألوان والموديلات والقديم والجديد... كان حديثهـا -إلى جانب إلمامها الكامل بأسرار هذا النوع من الملابس، ومعرفتها المطلقـة فيما يختص بمميـزات كل نوع وعيوبه- مرحًا بسـيطًا وكأنها صديقة قديمة مما دفع الزوجين إلى الإفصاح عن طبيعة الخلاف بينهما طالبين رأيها في الموضوع... وكانت هذه الفرصة التي تنتظرها، قالت:

-ربما كان سببَ الخلاف بينكما في الرأي، هو التقصير في أدائنا هنا!

كانـت الإجابة غريبـة، وكانت في نفس الوقت صريحة مما دفع الزوجة إلى التساؤل في دهشة:

-«وكيف كان ذلك؟!»

وجاءتها إجابة «إيلين» أكثر صراحة:

إن هنـاك نوعًـا آخـر من الملابـس قد يوفـق بـين وجهتي نظركـما ويلبي رغباتكما معًا!

-حقًّا؟!

هكذا سأل الزوج وقد أعطى «إيلين» اهتمامه، فأجابت في بساطة:

-للأسـف، لقـد نفد هـذا النوع في صبـاح اليوم، كان المفـروض أن ننتبه إلى هـذا حتـى لا نفقد عملاء مثلكـما، لكني انتبهت اليوم فقـط، فإذا كان في استطاعتكما الانتظار، فلسوف أستطيع إرضاءكما خلال يومين أو ثلاثة!

كان مـن المحـال، أمام هـذا المنطق، ألا يوافق الزوجـان، وعلى كل، فلقد التفت الرجل نحو زوجته متسائلًا:

-ما رأيك... هل ننتظر؟!

-ولم لا؟!

هكذا أجابت الزوجة، وعندما التفت نحو «إيلين» قالت:

-«إذن فلتـتركا رقـم التليفـون: حتـى إذا توفـر لدينا هذا النـوع، بادرت بالاتصال بكما!»

هم الرجل بالحديث فأردفت:

-مع وعد بألا يتأخر الأمر أكثر من أيام ثلاثة!

وهكذا حصلت على رقم التليفون الخاص بهما، وكان هذا هو كل ما تريده الآن منهـما... غير أن جملة قالهـا الزوج للزوجة بالروسـية، وهما ينصرفان،، جعلت «إيلين» تنتفض، فلقد سمعته يغمغم:

-لولا أن لهجة هذه الفتاة إنجليزية قح، لقلت إنها من أصل روسي!

ولقد كان هذا، بالنسبة لـ «إيلين»، إنذارًا، وكان، في الوقت نفسه، يتطلب عملًا سريعًا!

9 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ أوامـــــر بـــوقـــف التـجـســـــس!

كان عـام ونصـف العـام تقريبًا قد انقضيـا منذ وطئت قدمـا «إيلين» أرض كنـدا لأول مـرة... ولقد أثبتت التحريات بشـكل قاطع، أن شـبكة التجسـس التي كونتها هذه الفتاة العجيبة، كانت في ذلك الوقت تقوم بواجبها على الوجه الأكمل، وأن المعلومات كانت تنهال على الاتحاد السوفيتي بوفرة غير طبيعية... معلومـات الاقتصاد والصناعة وخاصة في الأبحـاث العلمية التي كان بعضها يتم بالتعاون مع بعض المؤسسات الهامة في الولايات المتحدة، مما دفع جواسيس الأمريكيين في موسـكو إلى تحذير واشـنطن من تلك الشبكة البالغة الغموض، والتي عجز هؤلاء الجواسـيس -رغم أن بعضهم كان يحتل مراكز حساسـة كما ثبت فيما بعد- عن معرفة أفراد الشـبكة أو مـن هو الرأس المدبر لها، أو مكانه، ومـا إذا كان في أوتـاوا أو مونتريـال أو كيوبيك أو تورنتو... وتقول سـجلات الحكومـة الكندية السرية، أن ثمة مبعوثًـا أمريكيًّا من الـ «سي. آي. إيه» قد زار كنـدا خصيصًا كي يتباحث في هذا الأمـر الذي أصبح يؤرق حكومة الولايات المتحدة أيضًا... ولما كان للاتحاد السـوفيتي -على الناحية الأخرى- جواسيس في واشنطن، فلقد وصل «إيلين» أمر صارم بوقف النشاط تمامًا!!

هكذا وصلت لعبة التجسس والتجسس المضاد إلى ذروة رفيعة حقًّا في الأداء من الطرفين!!

ولقد أدركت «إيلين» يوم وصل إليها هذا الأمر، من خلال مكالمة تليفونية -من ابن العم في لندن -!!- أن لا سبيل إلى المناقشة، وأنها مجبرة على وقف النشاط مهما كان الأمر... ولقد فعلت، فخلال الأربع والعشرين ساعة التالية، قامت بإجراء عدد لا بأس به من المكالمات التليفونية، من تليفونات عمومية متفرقة، أصدرت فيها الأوامر، بصرامة شديدة، بالكف تمامًا عن أي نشاط مهما كانت أهميته!!

بذلك... وجد المبعوث الأمريكي، مع رجال الأمن في كندا، أنفسهم يتحركون في ظلام دامس امتد إلى بضعة أشهر... ولا أحد يدري، إن كانوا قد أدركوا أن تحذيرًا وصل إلى الشبكة أم لا... لكن الثابت أن احتياطات صارمة اتخذت في موسكو فيما يختص بنشاط «إيلين»، بحيث يتعذر على أي جاسوس، مهما كانت مكانته، أن يعرف شيئًا عن نشاطها!!

■ ■ ■

وبطبيعة الحال، فلقد كان مثل هذا الأمر بالنسبة لـ «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا»، فرصة ذهبية كي تعيد ترتيب أوراقها، وتلتقط أنفاسها، ولكي تتأمل في هدوء ما كانت قد وصلت إليه، خاصة فيما يتصل بذلك الألماني «فريدريك هينرتش» الذي أصبح يمثل لها تحديًا شخصيًّا لا على المستوى الاجتماعي فقط، ولكن على مستوى الأداء المهني نفسه... ذلك أنها منذ تلك الليلة التي تناولت فيها العشاء في بيته، لم تستطع أن تمنع ذلك

الإحساس الغامض الذي راح يلاحقها، بأن لهذا الرجل وجهًا آخر لابد من كشفه... وإذا كان هو لم يبادر بالاتصال بها كما كانت تأمل، كما أنه لم يتصل بـ «فرناندو كورتيز» كما وعده، فلقد كان أمامها الآن وقت كاف لأن تنتظر مهما طالت المدة... كانت على يقين من أن هذا المتعجرف، لابد وأن يخوض صراعه معها حتى نهاية المطاف!!

كان ثمة شيء غريب في شخص «فريدريك» هذا، لم يكن مستغربًا ألا يتصل هو بها، بل إنها -بشكل ما- كانت تنتظر هذا منه، فلربما أراد التفكير في أمر المشكلة التي حدثته عنها، وربما حامت شكوكه حول معرفتها -عن طريق زوجته- بعلاقته بسكرتيرته «لويز ماك كورميك» والتي كان الجنين في أحشائها يعلن يومًا بعد يوم عن وجوده مما كان يسبب له بالقطع أرقًا... كانت هناك احتمالات كثيرة لكن اللافت للنظر حقًّا، أن «جروتود» -زوجته- بعد ليلة العشاء تلك لم تتصل بها على الإطلاق، رغم أن الصداقة بينهما كانت قد توطدت في الفترة الأخيرة... وعندما قلَّبت «إيلين» الأمر على وجوهه، لم تجد سببًا لانقطاع هذه السيدة، سوى أن زوجها كان السبب وراء هذا الانقطاع... فلماذا؟!

كان هذا هو السؤال الذي أثار الكثير من الشكوك في ذهنها، وإذا كان التقرير الذي جاءها من موسكو يقول: إن «هانز فولر» الذي اتخذ اسم «فريدريك هينرتش» ليس في ماضيه ما يشين، إلا أن السؤال ظل قائمًا وملحًّا... فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا غير اسمه؟!

إن طبيعة هذا الرجل، كما شاهدته في ليلة العشاء تلك، تؤكد بما لا يقبل الشك لديها، تلك النزعة النازية التي ترسبت في وجدان جيل بعينه، ولد

ونشأ وتربى في أحضان الفكر النازي والزعامة الهتلرية وتفوق الجنس الآري على غيره من الأجناس... فهل تثبت الأيام صحة ظنها؟!

كانـت مدركة أن الجواب لن يأتيها بين يوم وليلة، كما كانت تدرك أيضًا، أن ذلك الأمر الذي وصل إليها من موسكو بالتوقف عن النشاط لن يستمر إلى الأبـد... ولذلك، فلقد راحت تسـتعد، في هدوء شـديد، لمـا هو قادم من أيـام، وكان قرارهـا الأول، أن تدخـل بيت هذا الرجل وتعيـش فيه وتعرف عنه كل كبيرة وصغيرة!!!

عرفت «إيلين» قبل وصولها إلى كندا أهمية مكاتب التخديم في مجتمع مثل المجتمـع الكنـدي... ذلك أن مثل هـذه المكاتب التي يديرهـا في العادة يهود تمرسوا على هذا النوع من العمل، كانت تستطيع أن ترسل إلى أي بيت يطلب خادمًا أو خادمة أو حتى جليسـة أطفال سـواء بشكلٍ دائم أو لأيام معدودة، من يسـتطيع أن يمدها بأخبار هذا البيـت وما يدور فيه... ولما كانت «إيلين» قـد لاحظت ليلة العشـاء، أن التي كانت تقوم بالخدمـة خادمة واحدة، فلقد كان معنـى هذا أن هذه الخادمة مسـتديمة لم يسـتأجرها أصحـاب البيت لمدة محدودة... ولقد أكد لها هذا، حركة الخادمة في تلك الليلة، والتي كانت تمثل، إلى جانب حرية الحركة، نوعًا من التناسق بينها وبين «جروترود» التي كانت تسـاعدها بطبيعـة الحال بين الحين والحين... ولما كانـت «إيلين» قد أعطيت، قبـل أن تصل إلى كندا عنوان المكتب الرئيس لإحدى شركات التخديم التي كانت فروعها تتناثر في عدد من المدن الكندية، فما كان عليها -عندما وصلت إلى أوتاوا- إلا أن تتصل بإنسـان معين كي تطلب منه، حسـب شـفرة لفظية

خاصة، جليسة للأطفال لمدة ثلاثة أيام متوالية، كما كان عليها أن تعطي هذا الشخص عنوانها حتى يوافيها في ساعة معينة.

ولابد أن «إيلين» قد فعلت هذا بعد أن استقلت وافتتحت محلها الجديد وانتقلت إلى مسكنها الصغير ذاك، لابد أنها التقت الشخص المطلوب وأنهما اتفقا على أسلوب التعامل، غير أنه من المرجح أنهما لم يلتقيا بعد ذلك، إلا ذلك اللقاء الذي شهد به أحد جيرانها في تلك الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر!

فلقد تصادف أن هذا الجار كان يعرف الرجل، وعندما جلس إلى المحققين قال إنه في أحد أيام نوفمبر قبل عامين شاهد ذلك الرجل وهو يدخل بيت «إيلين» فلقد كان يعرفه، وكان قد تعامل معه أيضًا!

كان الرجل الذي زارها في تلك الليلة من ليالي نوفمبر يرتدي قلنسوة صوفية، وكان أبيض الوجه إلى حد الشحوب، كما كان معروفًا لدى المحيطين والمتعاملين معه باسم «الثعلب»، ليس لأن وجهه النحيل كان يشبه وجه الثعلب فقط، ولكن لأنه كان يستعمل المكر والخداع مع كل من تعامل معه، وكان من الصعب على أي ممن عرفوه أو احتكوا به، أن يثقوا في كلمة مما كان يقول إلا إذا كانت له مصلحة في ذلك... غير أن «إيلين» -بطبيعة الحال- كانت تعرف كيف تتعامل معه، فلقد كانت، قبل كل شيء، مزودة بقدر كاف من المعلومات عنه بحيث تجعله طوع بنانها... ولا أحد يدري ما الذي تم بينهما من حوار في تلك الليلة القارسة البرد... لكن المؤكد، أن الخادمة التي لازمت عائلة «هينرتش» لقرابة عام، اعتذرت فجأة لظرف عائلي يضطرها إلى مغادرة أوتاوا إلى تورنتو حيث تعيش ابنة لها متزوجة من بحار يعمل على إحدى سفن الأسطول الكندي التجاري.

وهكـذا كان على فراو «هينرتـش» أن تتصل بمكتب التخديم هذا، طالبة منه أن يمدها بخادمة محل السيدة التي لم تعطها مهلة لأكثر من ثماني وأربعين ساعة... وكان الغريب في الأمر، أن الخادمة الجديدة، كانت هي هي نفسها، تلك السيدة التي كانت تعمل في إحدى المغاسل العامة، والتي كانت واحدة مـن «فريق الحماية» -المخصص للعنف والقتل- الذي زودت به «إيلين» بعد وصولها إلى أوتاوا بقليل!!

مـن حسـن الحظ، أن هذه السـيدة الضخمـة الجثة، والتي كانـت تحمل وجهًا ملائكيًّا، كما تحمل اسم «مارجريت فريش» لم تستطع الفرار أو الاختفاء في الوقت المناسب... وعندما ألقي القبض عليها، لم تقاوم، بل أدلت باعترافات كاملة!

قالـت مسـز «فريـش» إن «إيلين» في البدايـة لم تطلب منها سـوى العمل بإخلاص شديد، كما طلبت منها أن تجلس إلى الخادمة السابقة قبل سفرها، كي تستعلم منها عن عادات هذه العائلة وما يضايق أفرادها، وكان كل المطلوب منها بعد ذلك، أن تكتسب ود السيد «هينرتش» وزوجته واحترامهما معًا!

ولقـد دهشـت هذه السـيدة التي كانت تعلـم يقينًا أن العنـف هو عملها الوحيد في تلك المنظمة التي كانت تدفع لها راتبًا شهريًّا مجزيًا -هكذا أطلقت على الشبكة- وهي عندما حاولت أن تعبر عن دهشتها، رمتها «إيلين» بنظرة صارمة وهي تقول:

-ليس عيبًا أن تتعاملي مع الآخرين بإنسانية!!

-ولكن ما هو المطلوب بعد كل هذا؟!

-لا شيء أكثر من لقاء أسبوعي سوف نحدد موعده فيما بعد!!

ولقد قالت مسز «فريش» للمحققين، إن تلك كانت فترة من أكثر فترات حياتها راحة وازدهارًا في نفس الوقت. فلقد كان عملها في المغسلة العامة يستغرق أغلب ساعات اليوم نظير أجر لم يكن يفي بحاجاتها الضرورية، في حين أن عملها عند المستر «هينرتش» لم يكن يستغرق سوى بضع ساعات في الصباح، وأحيانًا كانت تعمل لساعة أو ساعتين في المساء لقاء أجر إضافي إذا كانوا في حاجة إليها!

لم تكن مسز «فريش» تعلم في البداية، أن «إيلين» وضعتها في هذا البيت، تحسبًا لما هو قادم من أيام!

ولقد قالت هذه السيدة إنها لاحظت منذ اليوم الأول، أن العلاقة بين الرجل وزوجته، كانت متوترة على الدوام، وأنها لم تكن علاقة زوج بزوجته، بل كان ثمة شيء يجمع بينهما قسرًا... وإنها سمعت اسم «إيلين» ذات مرة يتردد بينهما لكنها لم تفهم مما قيل شيئًا لأنهما عادة كانا يتعاركان بالألمانية، كما سمعت مسز «هينرتش» تتحدث ذات ليلة وهي تذرف الدمع عن السكرتيرة التي أصبحت علاقة زوجها بها على كل لسان، وكان التشاحن ليلتها بالإنجليزية، وعقب دعوة على العشاء دُعِي إليها نفر قليل من الأصدقاء.

وعلى كل، فلقد كانت أخبار هذه العائلة تصل دائمًا إلى «إيلين» -بفضل هذه السيدة الجميلة الوجه المتحجرة القلب- بدقة ملاحظتها وكأنها تعيش معهما!

لم تكن السيدة «فريش» بطبيعة الحال، تعرف في البداية حقيقة السبب وراء تواجدها في هذا البيت، حتى لقد شكت في لحظة، أن ثمة علاقة تربط «إيلين» بالسيد «هينرتش»، وأن هذه الفتاة الصغيرة السن، قد وقعت في غرام الرجل الذي كان، لفرط جاذبيته، من السهل عليه أن يوقع بفتاة في مثل سنها في حياته!

... ...

... ...

وعلى كل... فبوجود هذه السيدة في بيت «فريدريك هينرتش» وزوجته، اطمأنت «إيلـين»، وراحت تمارس عملها في المحل على أكمل وجه... وكان طبيعيًّـا -قبل أن تنقضي ثلاثة أيام على زيارة ذلك الروسي الأبيض وزوجته، والـذي عرفـت أنه يحمل اسـم «فاسـيليف إفيفانـوني»، والذي اسـتطاعت حاسـته القوميـة أو الوطنيـة، أن تكتشـف أن الدمـاء التـي تجـري في عروق «إيلـين» سـلافية، وأنه لولا لهجتهـا الإنجليزية القح، لقال إنها روسـية- أن تتصل بهما حسـب وعدها معلنة أنها اسـتطاعت أن توفر لهـما النوع المطلوب مـن الملابس، وأنها سـوف ترسـله لهما مع إحدى عامـلات المحل، إن لم يكن لديهما الوقت الكافي للمرور عليها!!

وكان هـذا مبعـث سـعادة الزوجـة «إيفانوفنا» حقًّـا، فلقد رحبـا بزيارة العاملـة، وكان أيضًـا مبعـث سـعادة لـ «إيلين» فلقـد حصلت عـلى عنوان البيت دون أن تبذل جهدًا يذكر، وعندما استأذناها في أن تمر بهما العاملة بعد سـاعات العمل حتى يكونـا قد عادا إلى البيت، قالت، إنـه ليس في الأمر أية مشكلة على الإطلاق!

في المسـاء، كان الزوجـان في انتظـار العاملـة وهمـا ممتلئـان بالامتنـان... وعندمـا دق الجرس في الموعد تمامًا، كانت المفاجأة أن «إيلين» بنفسـها كانت هنـاك وهي تحمل عددًا لا بأس به من الأنواع المختلفة والجديدة من الملابس الداخلية للسيدات!

عقـدت الدهشـة لسـاني الرجـل وزوجتـه، بينـما اعتـذرت «إيلـين» عن حضورها دون أن تخبرهما، ذلك أنها اكتشـفت أن العاملة التي كان المفروض أن ترسل معها البضاعة، كان لديها موعد مع صديقها في ذلك المساء... و...

-وبصراحـة... لم يطاوعنـي قلبـي أن أحرمها موعدًا غراميًّـا، فرأيت أن أحـضر بنفـسي كي أبر بوعدي... وأرجو ألا يكون حضوري قد سـبب لكما أي نوع من الإزعاج!.

قالت «أنّا إيفانوفنا» بعد عامين من اختفاء زوجها المفاجئ وهي تجيب عن أسئلة المحققين... إن «إيلين» كانت في غاية الدماثة... وأنها قامت بواجبها على الوجه الأكمل معهما وأنهما قدما لها شرابًا احتسـته في رقة فتاة أرسـتقراطية... وأنهما -زوجها وهي- قد سعيا بعد ذلك إلى صداقتها التي استمرت إلى ما بعد اختفـاء زوجها، فلقد كانت «إيلين» هي أول من هب إلى الوقوف إلى جوارها بعد اختفاء «فاسيلي» -اسم التدليل لزوجها- المريب والغريب!!!

■ ■ ■

كتـب أحـد المتخصصين في هذا المجال تقريرًا قـال فيه: ... ... إن عبقرية هذه الفتاة تكمن في تلك المقدرة الفذة على اكتسـاب ثقة الآخرين، حتى لقد قامت بدورها، بما يشبه المعجزة!.

بدخول «إيلين» بيت السيد «إيفانوف» عرفت عنه كل شيء... عرفت أنه ولد في كندا -وكان هذا بالنسـبة إليها تفسيرًا للغته الإنجليزية الخالية من أية لكنـة غريبـة- وأن أباه جاء إلى هذه الأرض وهو صبي صغير في صحبة جده الذي استطاع الهرب بعد قيام الثورة البلشفية في روسيا... وأنه أصبح واحدًا مـن القلة الذين برعوا في علم الإلكترونيات، بحيث أصبح مشرفًا في إحدى

الشركات العملاقة، على قسـم كامـل كان يمد الطائرات والسـفن -خاصة الحربية منها- بكل ما يستجد من اكتشافات في هذا المجال الذي كان الاتحاد السوفيتي يسعى جاهدًا لمعرفة كل شيء عنه في الغرب!

كان «فاسيليف إيفانوف» وزوجته «أنّا»، صيدًا ثمينًا بحق.

لكن الغريب في الأمر، أن المحققين اكتشـفوا أنه في أثناء كل هذا النشـاط المفـزع، كانت «إيلين» تمارس حياتها بشـكل طبيعي تمامًا، حتى لقد قال أحد الذين كرسوا وقتًا ثمينًا لدراسة حياة هذه الجاسوسة البارعة... إنه لابد وأن يكون الإنسـان فيها قد اسـتيقظ أخيرًا... ذلك أنه لم يعرف منها، منذ وطئت قدمهـا الأراضي البريطانية، أنها أقامت علاقة عاطفية مع مخلوق... غير أنها، في تلـك الأيـام بالذات، كانت قد طـورت علاقتها بـ«فرنانـدو كورتيز» إلى حدها الأقصى، حتى لقد قال «فرناندو» للمحققين بعد اختفائها:

أيها السادة، أنتم مخطئون، فمن المحال أن تكون هذه الفتاة الشديدة الرقة والعذوبة، والتي كانت تخطط معي في تلك الأيام للمستقبل، جاسوسة!.

قال «فرناندو» هذا ثم انفجر باكيًا!

حتى إذا ما كان صباح، جاءها عبر الهاتف نداء هو إلى الاسـتغاثة أقرب، كانت المتحدثة هي «جروترود هينرتش» التي هتفت باكية، وربما صارخة:

«إيلين»... إني في حاجة إليك، ليس هناك من أستطيع اللجوء إليه إلا أنت!»

لم تكن «إيلين» تستطيع، إلا أن تلبي هذا النداء.

غـير أنها -هي الأخـرى- لم تكن تدري، أن هذا النـداء بالذات، كان هو بداية الطريق الذي سـلكته نحو العنف، نحو القتل الذي اتخذت قرارها فيه بدم شديد البرودة!

10 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ جـروتـــرود تـــبـــوح بالحقــيقـــة!

لم يكـن مـا قالتـه «جروترود هينرتـش» عندمـا التقت بـ «إيلـين» جديدًا عليهـا... ذلـك أن تلـك السـيدة «مارجريـت فريـش» التي احتلـت مكان الخـادم، قالـت في اعترافاتهـا إن «إيلين» كانت تسـألها في كل لقـاء، عن أدق التفاصيـل في حيـاة هذيـن الزوجـين، وبخاصـة تصرفـات «الهرهينرتش»، حتى لقد كانت تسـألها عـن موعد تناوله فنجان القهـوة في الصباح أو كأس شرابـه بعد العشـاء... ومتى وكيف وهل يغير مـن عاداته أم أنه يحافظ عليها في دقـة؟!... ولقد لاحظت مسـز «فريش» أن ما كان يعنـي «إيلين» في المقام الأول هـو مـا إذا كان «الهرهينرتش» تأتيه مكالمـات غريبة بين الحين والحين، أو أنه كان يستقبل زوارًا يلتقي بهم في مكتبه وحده... غير أن شيئًا من هذا لم يحـدث أثناء وجودها، ففوق أنها لم تكن موجودة طوال اليوم، ولم يكن هناك ما يدفعها إلى البقاء بعد انتهاء سـاعات العمل ما لم يطلب منها هذا، فإن كل ما لاحظته أن العلاقة بين الزوجين كانت تسوء يومًا بعد يوم حتى أصبحت حياتهما نوعًا من الجحيم من الصعب احتماله.

كان واضحًـا أن «مارجريـت فريش» هـذه، رغـم قلبهـا المتحجر، كانت متعاطفـة تعاطفًا شـديدًا مع الزوجة التي كانت تنهـار يومًا بعد يوم... حتى كان ذلـك اليـوم الـذي اتصلـت فيه «جروتـرود» بـ «إيلين»، فلقـد تعالت أصوات الزوجين واحتدم الشـجار بينهـا بالإنجليزية على غير العادة، حتى لقد سمعت «فريدريك» وهو يهدد زوجته بإرسالها إلى ذويها في ألمانيا الشرقية إن لم تكف عن ملاحقته ومحاسـبته على كل صغيرة وكبيرة... ولقد سـمعته، وهو يغادر غرفة النوم -كان البيت من طابق واحد- وهو يدمدم قائلًا:

-«إن الحياة معك أصبحت مسـتحيلة، ويبدو أني سـوف أزور أعمامي في القريب»

وكان معنى هذا أن الرجل يفكر في طلاق زوجته!

في ذلـك الصباح الذي تحدثت فيـه «جروترود» إلى «إيلين» طالبة لقاءها، رحبـت «إيلين»... وحينما أعادت السـاعة إلى مكانهـا، راحت تفكر، كانت الآن في حاجة إلى معرفة ما حدث قبل أن تلتقي تلك السـيدة البائسـة، وهي عندما نظرت في سـاعة يدها، أدركت أن مسـز فريش كانت لابد قد وصلت إلى البيت، ولذلك... فلقد ظلت في بيتها لم تبرحه حتى أيقنت أن «جروترود» قـد غـادرت البيت، فهمت بأن تطلب مسـز «فريش» في التليفـون، لكنها ما كادت تفعل، حتى دق جرس التليفون وكانت المتحدثة مسز «فريش»!

مـرة أخـرى ينتاب «إيلـين» ذلـك الإحسـاس الغامض الـذي ينبئ عن مسـتقبل سوف تتسـارع فيه الأحداث رغم الأوامر التي جاءتها من موسكو بالتوقـف عـن النشـاط... غير أنهـا قبـل أن تغادر البيـت للقـاء «جروترود

هينرتش» أحست أنها أمام طريق مسدود، لم يكن من الممكن أن تتوقف، كما أنها وجدت أنها لابد أن تتسلح لما قد يفاجئها من أحداث غير متوقعة... فما إن انتهت من حديثها مع «مارجريت فريش»، والتي أمدتها بكل ما أرادت أن تعرفه عما حدث، حتى طلبت رقمًا كان واضحًا أنها تحفظه جيدًا.

كان الحوار من طرف واحد، طلبت ممن أجاب عليها، وعلى جناح السرعة، كل شيء عن حياة «لويز ماك كورميك» سكرتيرة «فريدريك هينرتش» الآن... كانت تريد أن تعرف ما وصلت إليه علاقتهما، وموقف هذه البائسة من الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها، وهل عاد السيد «هينرتش» إلى زيارتها أم أنهما يلتقيان في مكان آخر.

وهكذا، ذهبت «إيلين» للقاء «جروترود» وهي تعرف ما حدث بين هذه السيدة البائسة وبين زوجها بالتفصيل، وكان عليها، وهي في الطريق إليها حيث واعدتها على اللقاء في أحد محلات الوجبات السريعة، والذي تعودت «إيلين» أن تتناول فيه الإفطار بين الحين والحين، أن تفكر بسرعة، فلقد كانت هذه فرصة لا تعوض لكي تكشف سر هذا الرجل الذي قال عنه الرؤساء في موسكو، إن ماضيه ليس فيه ما يشين!!!

... ...

... ...

وجدت جروترود في حالة انهيار كامل، كانت دموعها أسبق من كلماتها، وبدا الأمر غريبًا في ذلك المحل الذي كان يتسع في مثل هذا الوقت من اليوم عددًا محدودًا من الرواد مما قد يلفت الأنظار، ولذلك همست «إيلين»:

-لابـد أن تتماسـكي «جروترود»، إننا في محل عام وأخشـى أن يراكِ أحد أصدقاء زوجك أو معارفه ولن تكون النتيجة مرضية!

توسلت جروترود:

-لم أعد أستطيع «إيلين» إن الخوف يشل تفكيري!

-إذن هيا بنا!

كان هـذا بالضبـط ما تريد «إيلـين»... كانت تريد الاختـلاء بها في مكان تستطيع هذه السيدة أن تتحدث بلا حرج، وأن تبوح بما لا تستطيع أن تبوح به في محل عام... لقد صحبتها في سـيارتها الصغيرة إلى بيتها، وهناك، قدمت لها شرابًا قد يسـاعدها على أن تهدأ قليـلًا... ثم تحدثت في الهاتف مع العاملة المسئولة عن المحل في غيابها، تعمدت أن تتحدث أمام «جروترود» وبصوت واضح، قالت إنها لن تستطيع أن تذهب إلى المحل في فترة الصباح فثمة أعمال هامة عليها أن تنجزها، ثم راحت بعد ذلك تلقي ببعض الأوامر والتعليمات في اسـتقامة صاحـب العمل الواثق تمامًا من نفسـه، مما دفـع «جروترود» إلى القول، بعد أن أعادت «إيلين» السماعة إلى مكانها:

-لست أدري كيف أعتذر لك «إيلين»... ... ...

قاطعتها «إيلين»:

-لا عليـك يـا عزيزتي... المهم أن نعرف كيـف نخرج بك من هذا المأزق المشين!

وراحـت جروتـرود تقص عليهـا كل ما حـدث، والذي كانـت «إيلين» تعـرف معظمـه مـن «مارجريت فريـش»، حتى إذا مـا انتهـت، قالت وكان الكأس يرتجف في يدها:

-سوف أبوح لك بسر لا يعرفه مخلوق سواي!

ربتت «إيلين» على كتفها ومسحت على رأسها في حنان وهي تقول:

-فكري ألف مرة قبل أن تبوحي بأسرارك «جروترود»!»

-لكني في حاجة إلى البوح بما يثقل صدري!

-لم لا تنتظري حتى ينحسر عنك الغضب!

-لم أعد أستطيع، أشعر وكأني أختنق!

نهضت «إيلين» وهي تتصنع الانفعال قائلة:

-إن للحيطـان آذانًـا، وأنـت تعرفـين أن كنـدا مليئـة بالسـامعين الذيـن لا يريدون نسيان ما حدث لهم في ألمانيا إبان حكم هتلر!»

ما إن قالت «إيلين» هذا حتى سـقط الكأس مـن يد «جروترود هينرتش» وقد شحب وجهها شحوبًا عظيمًا... تحطم الكأس وسال ما به من شراب فوق الأرض وكانت هذه السيدة المسكينة ترتجف وهي تحملق في وجه «إيلين» وقد جحظت عيناها، ما لبثت أن قالت في فحيح من داخله رعب قاتل:

-إذن فأنت تعرفين!

تشاغلت «إيلين» برفع بقايا الكأس المحطم وتنظيف الأرض وكأن الأمر لا يعنيها... ما إن انتهت حتى جلسـت على مقعد مقابل لـ «جروترود» وقد اسـترخت ملامحها. ها هي اللحظة الحاسـمة تأتيها دون طلب، لقد قالت ما

قالـت ولم تكن في انتظـار أن يأتي الجواب بهذه السرعة، كانـت تلمِّح بطبيعة الحـال إلى ما يمكن أن يفعله الإسرائيليـون بالنازيين الذين كانوا يلاحقونهم في أربعة أركان الدنيا... سـاد الصمت على المكان لثوانٍ فعادت «جروترود» إلى القول بصوت مرتجف:

-هل كنت تعرفين طوال الوقت؟!

-ليس من الصعب أن يتكهن الإنسان بما يحاول الآخرون إخفاءه!

-إن اسمه الحقيقي ليس فريدريك!

-كفي عن هذا الحديث ولا تنسي أن الرجل زوجك مهما كان الأمر!

-لقد كان عضوًا في الشبيبة النازية!

كان هـذا هـو كل مـا تريـد تلـك الفتـاة البارعـة معرفته، صح حدسـها وانكشـف المسـتور وجاءها تفسـير كل الظواهر التي لفتت نظرها والإجابة عـن كل الأسـئلة التي راودتها... رغم غبطتها الشـديدة وإحساسـها الغامر بالانتصار فلقد نهضت قائلة في صرامة:

-«جروتـرود»... إنك لا تعرفين مـدى الخطر الذي يتهدد زوجك لو أن هذه الحقائق وصلت إلى البعض!

لانت ملامح «جروترود»، وراح الدمع يهطل من عينيها وهي تردد:

-كم أنت رائعة «إيلين» أنا لا أكاد أصدق نفسي!

مالت «إيلين» نحوها وهي تقول:

-مهـما كانت أخطـاء زوجك أو حتـى خطاياه... فهل يسـتحق منك أن تسلميه إلى الإسرائيليين؟!

صمتت «جروترود»:

-ولكنني أشهد أمام الله أنه شديد الإخلاص لهذا الوطن!

-أعرف هذا!

-لكنك لا تعرفين كم عدد المغريات التي تحيط به، ولا تعرفين مدى صلابته في حبه لهذه الأرض وكأنه ولد فوقها!

ابتسمت «إيلين» وهي تقول:

-ها أنت تدافعين عنه لمجرد الإحساس بما يحيط به من خطر!

-بماذا تنصحين إذن؟!

وهكذا راحت «إيلين» تتحدث عن الضغوط التي يعانيها العلماء والعباقرة، وعن خطورة الأبحاث التي يقومون بها والسرية اللازمة، لإنجاح هذه الأبحاث فقط، ولكن أيضًا حتى لا تتسرب إلى الآخرين!

ولقد مضت ساعتان كاملتان تحدثت فيهما «جروترود»، أفضت لـ «إيلين» بالحقيقة كاملة... كانت تشعر كما قالت بعد أنها تخففت من ثقل هائل كان يجثم فوق صدرها، ولقد قالت هذه السيدة للمحققين:

-لقد اكتشفت أن سر عصبيتي هي رغبتي الدفينة في الانتقام من هانز بعد كل ما صنعته من أجله، وبعد كل ما صنعه هو بي... وما كان من «إيلين» إلا أن أزاحت هذا الكابوس من فوق صدري، وجعلتني أعود إلى البيت وقد عادت كل الأشياء والأفكار إلى حجمها الطبيعي... وإن أنس فلن أنسى أن «إيلين» طلبت مني ألا أذكر لهانز كلمة عما دار بيننا، ذلك أن معرفته بأن سره قد خرج، قد يعوقه عن الإبداع والعمل!

لزمت الصمت لثوانٍ ثم أردفت:

-كم كانت رائعة هذه الصديقة... كم كانت رائعة!!!

... ...

... ...

وفي حقيقة الأمر، فلقد كانت «إيلين» تخشى أن تبوح هذه السيدة بسر زوجها فيطير العصفور بكل ما لديه من معلومات من يديها، لم يكن يعنيها بطبيعة الحال أن يعثـر عليه الإسرائيليون أو يغتالوه، كان همهـا كله منصبًّا في الحصول على ما وصل إليه من هذا القسم السري من مصنع الكيماويات الذي يعمل به!

ولقد سأل المحققون «جروترود»، إن كانت «إيلين» قد سألتها أو تحدثت معها عن المشروعات السرية التي كان زوجها يقوم بها، فجاءهم الجواب حاسمًا:

-أبدًا... إنها حتى لم تفكر في الحديث حول هذا الأمر!

وعندما أبدى أحد المحققين دهشته طالبًا منها أن تتذكر جيدًا ما دار بينها وبين «إيلين»، قالت:

-«وحتى لو كانت قد سـألتني، فأنا لم أكن أعرف شيئًا عن هذا المشروع، كل مـا عرفتـه من هانز أن ثمـة مشروعًا سريًّا وخطيرًا يعمل بـه، لكنه أبدًا لم يتحدث معي عنه!»

■ ■ ■

في المساء جاءت المعلومات الخاصة بالسكرتيرة، فبدت لـ «إيلين» غريبة... بل بدت لها بعيدة عن المنطق... قال أحد جيران هذه السـيدة وهو يدردش في مشرب قريب من البيت، إن ذلك السيد الثري الذي كان يتردد عليها، لم يزرها

خلال الأسابيع التي انقضت منذ غادر البيت غاضبًا، سوى مرة واحدة، وأن الزيارة، حسب ما قالته له زوجته، لم تدم لأكثر من ثلاثين دقيقة غادر البيت بعدها وكان يبدو راضيًا... وأن «لويز ماك كورميك» انقطعت بعدها عن الذهاب إلى العمل وقد انتفخت بطنها بشكل واضح، ولا أحد يعرف كيف كانت تعيش، لكن المؤكد -هكذا قال من رآها بعد تلك الزيارة- إنها كانت في حالة نفسية جيدة، وأن البسمة عادت إلى شفتيها مرة أخرى... وكانت كل تصرفاتها تدل على أن شيئًا لم يعد يشغل بالها سوى ذلك الجنين الذي كان ينمو في أحشائها يومًا بعد يوم، وأنها باتت تترقب وصوله بشغف شديد!

ولقد راحت «إيلين» تضرب أخماسًا في أسداس في محاولة لمعرفة السبب وراء هذا التغيير الذي طرأ على سكرتيرة الهر «هينرتش»، بل إنها كرست الأيام التي تلت ذلك في محاولة معرفة السر دون جدوى، فلقد ظل هذا الأمر سرًّا مغلقًا لم تستطع الوصول إليه رغم تعدد الأساليب التي اتبعتها، والتي كان منها أن دفعت -عن طريق أحد أصدقائها- مبلغًا من المال إلى مساعدة الطبيب الذي كانت «لويز» تتردد عليه لمتابعة حملها، وكان كل ما استطاعت مساعدة الطبيب هذه أن تصل إليه، أن «لويز» قد استراحت -بعد تردد طال- عندما اتخذت قرارًا بالإبقاء على الجنين، وأنها سوف تعيش، وحتى تضع المولود المنتظر، على مدخراتها التي ادخرتها طوال السنوات الماضية!!

كان هذا كل ما استطاعت «إيلين» أن تتوصل إليه وهو لم يكن مقنعًا بأي حال من الأحوال... ولابد أنها اعتبرت نفسها قد فشلت في الوصول إلى الحقيقة التي أفضت بها «لويز ماك كورميك» بعد ذلك للمحققين... فلقد قالت والحزن يعتصرها اعتصارًا... إن «فريدريك» عندما زارها تلك الزيارة

الأخيرة، بدا لها مسكينًا تمامًا، بل كان يبدو محطمًا... قال إنه لم ينجب أطفالًا، وأن شوقه إلى طفل كان أكبر من شوقه إلى أي شيءآخر... قال إنه لا يستطيع الانفصال عن زوجته لأن هذا قد يقضي عليها، فوق أن هذا الانفصال من الممكن أن يدمر مستقبله بل حياته كلها... ثم أضاف: إنه لا يعارض في الإبقاء على الجنين، بل إنه تعهد، وقد أقسم بشرفه، أنه سوف يتكفل بمصروفات الحمل والوضع كاملة، فوق أنه سوف يخصص لها مبلغًا شهريًّا من المال، شريطة أن تستقيل من عملها وأن تتفرغ للجنين... قال هذا ثم أضاف باسمًا:

-لا أريد لولدي أن يولد عليلًا أو ضعيفًا!!

ثم بعد لحظات أضاف:

-ولن أمانع إذا ما أعطيته اسمي، شريطة أن يظل هذا سرًّا بيننا!

لكن صرامته عادت إليه وهو يردف:

-على أنك لابد ألا تتوقعي أن تدوم علاقتنا، إن استمرار العلاقة من شأنه أن يؤثر على حياتي، وبالتالي، سوف يؤثر على أدائي في العمل... وأنت تعرفين خطورة المشروع الذي أعمل فيه دون شك!

قالت مس «ماك كورميك» هذا ثم أضافت:

أنا لم أكن أريد أكثر من ذلك... لم أكن أريد سوى الاحتفاظ بطفلي!

■ ■ ■

وهكذا عادت «إيلين» إلى الكمون مرة أخرى مستجيبة لأوامر الرؤساء في موسكو... غير أنها لم تكن تدري أنه مع نهاية فصل الشتاء. سوف تهب عليها الأحداث كالأعاصير!

11 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ السير فوق حافة الخطر!

قال أحد الذين خاضوا في حياة تانيا راديو نسكا وتتبعوا آثارها بعد اختفائها ذاك المريب، إن فصل الشتاء ذاك، كان يعتبر من أجمل الشهور التي مرت بهذه الجاسوسة الرهيبة... ذلك أن الهدوء كان هو السمة الغالبة في حياتها... فمن ناحية، لم يكن مطلوبًا منها أن تنشط بأي حال من الأحوال، بل كان عليها أن تعيش حياة عادية للغاية، كأية فتاة من فتيات كندا اللواتي يملكن قدرًا من اليسار وفرته لها تلك التركة التي ورثتها... وبدخولها عالم الكمون، منيت كل التحريات التي اشترك فيها رجال الأمن الكندي مع مندوبي المخابرات الأمريكية بالفشل الذريع، فعلى مدى شهور ثلاثة أو أربعة، لم يستطع هؤلاء الذين كانوا يبحثون عن تلك الشبكة الرهيبة للتجسس، والتي كانت تمد موسكو بذلك الكم الهائل من المعلومات، أن يصلوا إلى شيء، أم حتى خيط يستطيعون فيما هو قادم من أيام أن يتتبعوه.

ومن ناحية أخرى، فلقد ساد بيت «الهرهينرتش» الهدوء، وخفت حدة الخلافات بينه وبين زوجته، بعد اتفاقه الذي أبرمه مع سكرتيرته «لويز ماك

كورميك» والذي جعل «فراو هينرتش» تشعر بمزيد من الأمان والاطمئنان بعدما أخبرها زوجها أنه قرر الاسـتغناء عن سكرتيرته، بل وقرر فصلها من عملها بالمصنع كله، حتى يريح نفسه من تلك المعاناة التي أقحمته فيها دونما سـبب حقيقي !! حتى لقد قالت جروترود لـ «إيلين» بعد أسبوعين أو ثلاثة من لقائها ذاك الأخير، وكانت تشعر بالسعادة:

-لقد عاد «فريدريك» إلى رشده أخيرًا!

وعندمـا أبـدت «إيلـين» -التـي كانـت تعـرف بالطبـع كل التفاصيـل- دهشتها، أضافت جروترود:

لقد عاد إلي أخيرًا «إيلين»، عاد إلي مرة أخرى!

ولقد كانت «إيلين» تعرف -عن طريق مسز «فريش»- كل هذا، لكنها لم تنـس أن تنبـه جروترود إلى عدم ذكر أية تفاصيل عـن الحوار الذي دار بينهما حول زوجها، مضيفة في لهجة الصديقة الوفية:

-إن الرجـل، أي رجـل، لا يشـعر بالأمان مع زوجة تبـوح بأدق أسراره حتى لأقرب صديقاتها!!... وعلى كلٍّ...

فلقـد كانـت تلك الشـهور كفيلـة بأن توطـد الصداقة بـين «إيلين» وبين صديقهـا الروسي الأبيض «فاسـيليف إيفانوف» وزوجته «آنـا»، اللذان كانا دائمًا ما يوجهان لها الدعوة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معهما، مما سهل عليها معرفـة كل شيء عنهـا... وكان أهم ما عرفته في تلك الفترة أن «فاسـيليف» هـذا يعمـل في مـشروع لتطوير أجهـزة التنصـت الإلكترونيـة، والتي كانت تخطـو -في تلـك الأيـام- نحـو ثـورة في هـذا العلـم، خاصة تلـك الأجهزة

الخاصة بالتجسس، مما جعل «إيلين» تتحرق شوقًا لمعرفة كنه هذه التطورات الجديـدة، وكان هذا في حد ذاته، كفيلًا بأن يجعلها تقترب منهما أكثر... حتى إذا مـا كان مسـاء خرجـت معهما لتناول العشـاء في أحـد المحلات، وشرب السـيد «إيفانوف» كمًّا لا بأس به من الفودكا الروسية، راح يتحدث فيها عن روسـيا الحقيقية لا الاتحاد السوفيتي الذي استولى عليه شرذمة من الرعاع... ثم همس وقد تلاعب الخمر برأسه قائلًا: إن السوفيت تقدموا في بعض علوم الإلكترونيـات تقدمًـا دفع الغـرب إلى التسـابق معهم في هذا المضـمار، وأنه كان وراء اكتشـاف جهاز للتنصت ابتكره الروس -كان يكره كلمة سوفيت ويرفض اسـتعمالها حتى في حياته العادية- وأن اكتشـافه هـذا قاده إلى طريق جديد سـاعده على ابتـكار جهاز جديـد للتنصت بدأت تجاربـه الأولى تبشر بنتائـج مذهلة... ولقد كانت «إيلين» -هكـذا قالت «آنا إيفانوفنا» فيما بعد- تبدو متململة كلما تحدث زوجها في مثل هذه الأسرار، وعندما أبدى فاسـيلي -اسم التدليل- دهشته، قالت له «آنا»:

-كيـف لبائعـة ملابـس داخليـة أن تفهـم في مثـل هـذه الأمـور العلمية المعقدة!

وبلا أدنى شك، فلقد كانت هذه براعة من «إيلين إيستمان» تؤكد قدرات هذه الجاسوسـة الفذة؛ ذلك أن فاسـيليف كان يتحدث شوقًا لأن تبدي هذه الفتـاة البريطانيـة المحافظـة بعضًا من الاهتـمام به... ولم يكـن هذا يخفى على «إيلـين» بطبيعة الحال، فكانت -في بعض الأحيان- تسـأله -وكأنها تجادله- عـن أخبار جهـازه الجديد ومـدى التقدم الذي أحـرزه... فإذا مـا انطلق في الحديـث شـارحًا، انتابها الملـل في وضوح لم يكن يخفى عـلى زوجته... وعلى

كل، فقـد عثر في بيـت «إيلين» بعد اختفائها، على قصاصات من ورق في مخبأ سري خلـف أحـد أدراج دولاب ملابسـها، وقـد كتبت فيه بعضًـا من تلك المعلومات التي كان «فاسيليف» يثرثر بها!!

أمـا «فرناندو كورتيز»، فالذي لا شـك فيه أنه كان يعيش في ذلك الوقت أجمـل أيام عمره على الإطـلاق... كانت علاقته بـ«إيلين» قد أصبحت شـبه رسمية، فلقد كانت تزوره في مسكنه أكثر من مرة في الأسبوع... وبدت تلك الفتاة في مجتمع أوتاوا، فتاة بريطانية جذابة ونشيطة وتعيش حياة مثالية بعدما تأكـد للجميع أن العلاقة بينها وبين «فرناندو» تكاد تكون رسـمية، وإن كان هنالك ما يعوق إعلان خطبتهما، فإن الأمر أصبح أيامًا أو أسابيع!!

ولقد قال «فرناندو» للمحققين: إنه لم يشعر في حياته بالاستقرار والأمان، حتـى وهـو يعيش في وطنه وفي بيت أبيه، مثلما عاش تلك الشـهور القارسـة الـبرد، التـي حولتها «إيلين» إلى شـهور شـديدة الدفء... حتـى العاملات اللواتي كن يعملن في المحل، شـهدن جميعًا بأن «إيلين» في ذلك الشـتاء كانت بالنسـبة لهن ملاكًا... فلقد كانت تهتم بمشاكلهن وحياتهن وحتى علاقاتهن الغراميـة... ولقد قالت إحداهن، وكانت مخطوبة لبحار في البحرية الكندية: إن كـرم «إيلين» ورقتها وصلتـا إلى حد أنها تكفلت بكل المصروفات الخاصة بحفل الخطوبة الذي أقيم في أحد الفنادق المتوسطة!

... ...

... ...

ذات مساء كانت جروترود تقضي المساء مع زوجها أمام جهاز التليفزيون، وعندما نهضا كي يأويا إلى الفراش راحا يثرثران في أمور شـتى، وكان طبيعيًّا

أن يعـرج الحديث على «إيلـين»، وإذا بهذا المهندس الألماني المتعجرف يعترف لزوجتـه بأنه أخطـأ في تقديره لهـذه الفتاة... ممـا دفع «جروتـرود» -بتوجيه مـن زوجها- إلى دعـوة «إيلين» مع «فرناندو» إلى العشـاء مـرة أخرى، لكن «إيلين»، بحاسـة الجاسوسـة المدربة كانت تدرك أن أية علاقة مع هذا النازي السابق، سوف تدفعها إلى كسر فترة الكمون التي تعيشها فاعتذرت... ولقد قالت «جروترود» إن الدعوة قد تكررت بعد ذلك مرة أخرى، لكن «إيلين» اعتـذرت أيضًـا، حتى إذا ما حـل الربيع وحـان موعد عيـد الفصح، اقترح عـلى «جروترود» أن تكـرر الدعوة لـ «إيلين» و«فرنانـدو» لقضاء عطلة عيد الفصح على إحدى الجزر التي يمتلئ بها مجرى نهر سـانت لورانس، وعندما فعلـت، كان الرد سـلبيًّا للمرة الثالثة، مما دفـع «الهرهينرتش» إلى الاتصال بـ «إيلين» شخصيًّا!

كان هـذا الاتصـال مفاجـأة لم تتوقعهـا «تانيـا راديونسـكا» أو «إيلـين إيسـتهان»... وعندما دق جرس التليفون ذات مسـاء في بيتها، كانت تفكر في عدم الرد... ذلك أنها كانت، منذ سـاعات قليلة، قد تلقت أمرًا من الرؤساء في موسـكو يطلبون منها معاودة النشـاط ولكن بحذر شديد، مع تحديد عدد من المهمات الملحة... وكانت «إيلين» قد قررت تخصيص الليلة في الاستعداد لمـا سـوف تقوم به من نشـاط وكيـف ومتى وأيـن وبأي أسـلوب... غير أن التليفـون ظل يـدق في إلحاح دفعهـا لأن ترفع السـاعة متصنعة النـوم، فإذا صوت «فريدريك» يأتيها محتدمًا:

-أريـد جوابًا صريحًا آنسـة «إيسـتهان»، لمـاذا ترفضين كل دعـوة نوجهها إليك!

في ذلك المساء، عاود «إيلين» ذلك الإحساس الغامض بأن المستقبل يخفي في أيامه أحداثًا ليست في الحسبان.

كان صـوت الرجل رغم محاولته إضفاء نوع مـن المرح عليه، يحمل تحديًا من نوع خاص... تذكرت الأنباء التي جاءتها قبل أسـبوعين بأن سـكرتيرته قد وضعت مولودًا ذكرًا، وأن باقة من الورود قد وصلتها عشـية ذلك اليوم، ومعهـا بطاقة تهنئة موقعة باسـم «فريدريـك» ليلة العشـاء... ولذلك، فلقد قررت أن يكون ردها حاملًا لنفس لهجة التحدي، قالت:

-لأني على يقين من أن كل دعوة كانت تأتيني من «جروترود»، كنت أنت تقف وراءها!

كان الـرد حاسـمًا ورادعًـا مما أوقع الرجـل في مأزق، ولقد لـزم الصمت لثوانٍ قال بعدها:

-ما الذي يدفعك إلى مثل هذا القول؟!

-تصرفاتك!

كانـت «إيلين» الآن ودون ترتيب سـابق، تعرف يقينًا أن تسـير على حافة الخطر، أجاب «فريدريك»:

-وماذا إذا كان الأمر كذلك؟!

-إذا كان الأمر كذلك، فلم لا تفعله أنت؟!

هم «فريدريك» بالرد على الطرف الآخر، فإذا هي توجه إليه لطمة لم يكن يتوقعها:

-لا تنس «هرهينرتش» أني بريطانية تؤمن بالديمقراطية!

كانت جملتها تمثل طعنة وجهت إلى الرجل الذي جاءها صوته يحمل لمحة من ارتجاف:

-ما الذي يعنيه قولك هذا؟!

-إن له معنى واحدًا ومحددًا!

-هل لك أن توضحيه بعض الشيء؟!

-ببساطة، هناك فرق كبير بين الديمقراطية البريطانية والنازية الهتلرية!

هوت إجابتها على «فريدريك» مثل صفعة أدارت رأسه، لكنه تمالك كي يقول:

-ألم يصل إلى علمك أن النازية قد اندحرت، وأن هتلر قد انتحر، وأن في ألمانيا الآن ديمقراطية ربما علت الديمقراطية الإنجليزية!

-إن الشكل لا يخفي الحقيقة «هرهينرتش!».

هل أفهم من هذا أنك تتهمينني بالنازية؟!

-أنا لم أقل هذا... بل ربما لم يخطر لي على بال!

-كيف وأنت تقارنين بين نازية هتلر وديموقراطية تشرشل!

-ربما كان هذا ناتجًا عن إحساس غامض أحسست به في لقائي الوحيد معك!

-وما هو هذا الإحساس؟!

-إن بقايا من نازية هتلر لا تزال عالقة بثيابك!

كان الحوار ساخنًا، بل كان ملتهبًا، مما دفع الرجل إلى صمت دام لثوان، وكانت «إيلين» تشعر في تلك اللحظات بقوة وتدفق أعطياها ثقة بالنفس،

فلـم تأبـه للحذر ولم تفكر فيه... ورغم طول فـترة الصمت فهي لم تتحدث، ولم تفكر في أن تسأل إن كان لايزال على الطرف الآخر... تلك كانت لحظات رهيبـة قامـرت فيها «إيلين» بـكل شيء، بكل نجاحاتها التـي حققتها منذ أن بـدأت العمـل في كندا، ورغم تلـك الثقة بالنفس، فإنها كانت ترتجف شـوقًا لمعرفة رد فعله، إذ على هذا الرد بالذات تتوقف أشـياء كثيرة بالغة الأهمية... وعلى كل، فقد جاءها صوته أخيرًا كي يقول:

-فماذا لو أنني قلت لك إنه يسعدني أن تقضيا -«فرناندو» وأنت- إجازة عيد الفصح معنا؟!

-لا أسـتطيع أن أعطيك جوابًا الآن، فلابـد أن أناقش «فرناندو» لأن لنا مشاريع أخرى!

كان ردها عليه علامات انتظار كاسح!

... ...

... ...

قالـت «جروترود هينرتش»، أرملـة «فريدريك» فيما بعد: إن زوجها عاد إلى البيت في تلك الليلة شاحب الوجه، وأنه لم يبح لها بسر سهومه وشحوبه، لكنـه أخبرهـا أنه تحدث مع «إيلـين» ووعدت بالرد بعد مناقشـة «فرناندو»، قال هذا ثم أردف:

«جروتـرود»... إن صديقتـك هـذه تملك عقلًا من الصعـب أن يتجاهل الإنسان قدراته! لكنه لم يتفوه بكلمة عن السبب في قوله هذا!

■ ■ ■

إن مثل هـذا الحوار يبدو لنا شـديد الأهمية، لا لأنه يجري بين جاسوسـة مدربـة ورجل عـلى قدر عظيم من الـذكاء؛ ولكن لأنه حـوار يشي بصاحبيه دون مواراة... حوار اعترف فيه «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر» أنه كان نازيًّـا، وإن كان اعترافـه جاء ضمنيًّا وغير مباشر، فـإن تهديد «إيلين» له كان مباشرًا وينبئ عما تريده بالتحديد!

■ ■ ■

تبدو هذه الجزر الصغيرة في مجرى نهر سانت لورانس بكندا، مثل نتوءات صخرية تعترض مجرى النهر، حتى إذا جاء الربيع وانحسر برد الشتاء، تحولت هـذه الجـزر إلى جنات صغيرة متناثرة على صفحة ميـاه هذا النهر الذي يصل فيما بين المحيط الأطلسي شـمالًا، وبحيرة أونتاريو جنوبًا... فما إن يهل الربيع حتى تنمو الزهور في كل مكان وتتفتح كي تحيل المشهد كله إلى لوحة طبيعية أخاذة، فإذا ما أضفنا إلى كل هذا أن أصحاب هذه الجزر يبنون فوقها أكواخًا تتناسب في أحجامها مع مساحة كل جزيرة، بدا الأمر كله كأنه حلم!

لقـد وصل «فريدريـك» وزوجته ومعهـما «إيلين» و«فرنانـدو» ليلة عيد الفصـح إلى إحدى تلك الجزر... والذي لا شـك فيـه أن الرحلة كانت ممتعة رغم طول الطريق، كما أن كثيرًا من الجليد قد ذاب بين «فريدريك» و«إيلين» ممـا جعل «جروترود» تبدو في حالة من السـعادة لم تذقها من قبل... بعد يوم قضياه في الكوخ الجميل المؤثث بأثاث بسيط وإن كان مريحًا، دعا «فريدريك» «إيلين» إلى رحلة صيد في صباح اليوم التالي... تركا «فرناندو» و«جروترود» وحدهما، وانطلقا في زورق صغير إلى جانب من الشاطئ بدا ملائمًا للصيد... ما إن استقر بهما المقام، حتى سأل «فريدريك» متوددًا:

-مـاذا في ذلـك الشـخص الـذي كان يعـاني مـن مشـكلة في المصنـع «إيلين»؟!

نظرت إليه«إيلين» في دهشة، فإذا به يردف:

-لقد تحدثت معي بشأنه ليلة أن تناولت العشاء عندنا!

وهنـا... حـدث مـا جعل الدهشـة تجتـاح «فريدريـك»، ومع الدهشـة، كان هنـاك خوف عربيد قد اسـتولى عليه... فلقد انطلقـت «إيلين» تضحك وتضحك حتى دمعت عيناها، وكان في ضحكاتها رنة سـخرية لم تخطئها أذنا الرجل، فماذا كان وراء تلك الضحكات التي بدت له شيطانية؟!.

12 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ الحـــــوار الـــدامـــــي..

مـا إن اسـتقلت «إيلين» مـع «فريدريك» ذلك الـزورق المطاطي الصغير حتـى أدركت أن الرجـل يعرف تضاريس المـكان جيدًا، فلقد وقـع اختياره عـلى منحنى من الشـاطئ تحيط به أشـجار الشـمال السـاقعة... كان المشـهد أمامهما سـاحرًا بكل المعاني، فعـلى مرمى البصر كانت الجـزر الصغيرة تتناثر مزدانـة بورودها التي كانت تتمايل مع هبات حانية من ريح لاتزال تحمل برد الشتاء... على البعد كانت السفن العملاقة تعبر النهر من الشمال نحو الجنوب أو العكس... ورغم البرودة التي حملتها رياح الشـمال فإن الجو كان صحوًا، وكانت الشـمس ترسـل أشـعتها الواهنة من خلال نتف السـحاب السابحة في الفضـاء... كل شيء كان يوحي بأن هذا الرجل وهذه الفتاة، إنما يجلسـان في خلـوة غرامية، ومن المحـال أن يفكر أحد أن الحوار الذي كان يدور بينهما وهمـا يرقبان معنوياتهما، إنما هو حوار دامٍ سـوف يؤدي -بعد أيام قليلة- إلى أن يصدر أحدهما أمرًا بالاستعداد لقتل الآخر!

والـذي لا شـك فيه أن «فريدريـك هينرتش» أو «هانـز فولر»، قد أحس بالإهانـة لضحكات «إيلين» التي أطلقتها وكأنها سـمعت نكتة عندما سـألها عن ذلك الشخص الذي حدثته عنه يوم تناولت طعام العشاء في بيته... اربد وجهه، وركز عينيه نحو الصنارة، حتى إذا ما انتهت من الضحك سألها:

-هل لي أن أعرف سبب ضحكاتك؟!

اختفى الضحك والتظاهر بالمرح واكتسى وجه الفتاة بطبقة جليدية صارمة وهي تلتفت نحوه مسددة إليه نظرات بالغة القسوة... سألته بدورها:

-«هرهينرتـش... أمازلـت مقتنعًا بأن الجنس الألمـاني يفوق كل أجناس الأرض؟!».

احتقن وجه «فريدريك» وهو يدمدم في غضب:

-«إيلين إيستهان... إن هذه الفكرة... ... ...».

قـال هذا ثم أمسـك عن الكلام، فلقـد أدرك أن الفتاة قد اسـتطاعت أن تفقـده أعصابـه... انتبـه إلى أنـه -نتيجة انفعالـه- كان يتحـدث بالألمانية... وعندما نظر إلى «إيلين» لم يجد سوى ابتسامة هادئة تشي بذلك.

لم تجـب «إيلـين».. التزمت الصمـت.. فوقع الرجل في حـيرة. ورغم أن خيـط صنارته الآن كان يلاعـب الكرة الصغيرة فوق الماء مما يدل على أن ثمة سـمكة قـد التهمت الطعم واشـتبكت بالصنـارة، فإنه ظل جامـدًا في مكانه حتى جاءه صوت «إيلين» دقيقًا حالمًا كأنها قد تحولت في لمحة بصر إلى إنسان آخر:

-فريدريك، إن صنارتك تناديك!

هكـذا بـلا ألقـاب، وهكذا ألقت بشـباكها حولـه فسـقط دون إرادة منه -حـاول جذب الصنارة لكنه كان مرتبـكًا، وضعت صنارتها جانبًا ونهضت كـي تسـاعده، تشـابكت أذرعهـما في لحظة وهي تديـر عجلة الخيط سـاحبة السـمكة من المياه، حاول مشاركتها فلم يستطع، ترك قيادة الصنارة ولم يكن يعلم أنه يترك لها قيادة حياته إلى حيث تريد!

ولقـد مضـت لحظـات بعد إخراج السـمكة سـاد فيها الصمـت، عادت إلى مكانهـا بينـما كان هو يرتجـف بالانفعال والرغبة معًا، كان يشـعر بالهزيمة السـاحقة، اسـتطاعت «إيلين» أن تسـيطر حتى على أفـكاره، لكنه في محاولة لاستجماع نفسه قال:

-إنك لم تجيبي عن سؤالي حتى الآن!

-لابد لي من الاعتذار أولًا لأني ناديتك باسمك الأول ودون ألقاب!

-لا عليك... أجيبي عن سؤالي من فضلك!

-لقد سـألتني عن ذلك الشخص الذي كان يعاني من مشكلة في المصنع، أليس كذلك؟

-هو كذلك!

هكذا هتف في نفاد صبر، فقالت:

-لقد كان هذا منذ بضعة أشهر.

كان يعلـم أنهـا على حق وأنـه كان مخطئًا فنظر إليها في عتـاب بدا صارخًا فأردفت:

-لقد حُلت مشكلته ولم يعد هناك ما يدعو لأن تشغل بالك بالأمر.

-وكيف حُلت مشكلته؟!

-قدم استقالته من المصنع.

قالتهـا ببسـاطة جعلتـه يرتجف، وإذا كانـت أفكاره في البدايـة قد حامت حول سـكرتيرته «لويز ماك كورميك»، فلقـد كانت إجابتها الآن تنطبق على «لويز» التي أنجبت له منذ أسابيع طفلًا كان يتحرق شوقًا لرؤيته.

-وهل وجد عملًا آخر؟!

هكذا سألها كالمتوسل فضحكت متسائلة بدورها:

-ما سر اهتمامك بإنسان لا تعرفه؟!

-ربما كنت أعرفه.

-وهل من حقي أن أبوح بأسرار أصدقائي دون استئذان؟!

كالمطرقة التي تهوي فوق رأسه جاء جوابها:

-ألم يحن الوقت كي نكف عن هذه المبارزة السخيفة!

-ألم تعِـد «فرنانـدو» بـأن تتصل بـه تليفونيًّا بعد أن سـألتني إن كان يقبل العمل في مصنعكم؟!

هتف «فريدريك» في استنكار:

-لا أحسبك قد أخبرته بالأمر!

-وهل كان الأمر سرًّا كي أحجبه عنه؟!

هم بالرد فأردفت:

-ألم تلجأ إليَّ كي أسأله إن كان يقبل؟!

-ولكني... ... ...

قاطعته:

لقد ظننت عندما أخبرني أنك طلبت منه رقم تليفونه أن الأمر ليس سرًّا، وأنك... ... ...

لم يمهلها، صاح في عصبية:

-أنت تعرفين أن مثل هذه الوظائف تحتاج إلى الكثير من الخطوات قبل البت فيها!

-فلم عرضت الأمر عليه وعليَّ بالتالي قبل أن تبت فيه؟!

-«مس إيستمان، إن هذه المصانع لا توظف سوى الموثوق بهم!».

-هل تقصد ذلك المشروع السري الذي تعمل فيه؟!

قالت «إيلين» هذا، فشحب وجه «فريدريك» شحوبًا دفعها إلى السؤال:

-هل أخطأت في حديثي؟!

-من الذي أخبرك أن هناك مشروعًا سريًّا يعمل فيه المصنع؟!

-صديقي صاحب المشكلة!

تلفت «فريدريك» حوله في رعب كمن مسه شيطان، راح يدمدم بالألمانية فاستغرقت «إيلين» في مراقبة صنارتها... كانت الآن مدركة أن الرجل فقد كل قدرة له على التفكير السليم... وأن انكشاف الأمر بالنسبة إليها أصبح يخيفه ويؤرقه... غير أنه تمتم بعد لحظات:

-هل تحدثت إليك «جروترود» في هذا الموضوع؟!

-لـولا يقيني أن «جروترود» ألمانية الأصل والعِرق، لقلت إن عنصريتك تأبى ألا تنسب إليها ما يشين!!

-ما الذي تعنيه بالله عليك؟!

واجهته في صرامة:

-صدقني أنك لا تستحق زوجة مثل هذه السيدة المسكينة!

-إيلين!!

-إن زوجتـك أكثر حرصًا عليك من نفسـك، إن جروترود لم تتفوه معي بكلمة عن عملك، لا لشيء، إلا لأنها -وهذا يقيني- لا تعرف عنه شيئًا!

لم يعد أمام «فريدريك» إلا أن يسحب صنارته من المياه، وأن يترك مكانه مستأذنًا منها متوغلًا بين أشجار الشاطئ وحده... ظلت «إيلين» في مكانها لا تبرحه، كانت الآن تستحلب طعم الانتصار، كما كانت مدركة أنها اكتسحت معاقـل «فريدريك» حتى وصلت إلى القلب منه. فتركته لحاله، واستغرقت في التفكير.

كانت الخطوة التالية تستلزم منها الحذر الشديد، وإلا فقدت كل ما ربحته حتى الآن!

بعد دقائـق قليلة عاد «فريدريك» كي يطلب منها أن تصاحبه في التريض وسـط الأشـجار، عندما نظرت إليـه بدهائها بدا كأنه قطع مـن الدقائق التي غـاب فيهـا عشرين عامًا من عمره... ويقينًا، فلقـد فكر «فريدريك» في تلك الدقائق التي مرت به وحده أن أسلم السبل هو إبلاغ السلطات عن هذه الفتاة الغريبة... غير أنه وجد نفسه كمن يخطو بإرادته في سجن لا فرار منه... فماذا

لـو كان هذا الشـخص الذي تحدثـت عنه «إيلين» كان سـكرتيرته «لويز ماك كورميـك»... إن مثل هذا التبليغ كفيل بأن يضع «لويز» في موقف لا تحسـد عليه، فماذا سيكون مصير ولده لو أن الأمر أدى إلى القبض عليها؟! وماذا لو قالت «لويز» إنه كان ضالعًا معها حتى لو كان الأمر من باب الانتقام؟!

أحـس الرجل أنه محاصر بما لا قبل له به، وأن هذه الفتاة، وإن كانت تمثل لـه خطرًا من ناحية، فإنها تمثل له تحديًا من ناحية أخرى... وهكذا، عاد إليها وقد اتخذ قرارًا بأن يعقد معها هدنة تعطيه الفرصة لأن يفكر في روية!

ولقد مرت بهما لحظات صمت وهما يسيران بين الأشجار لم تحاول «إيلين» أن تقطعـه... كانت تعلم بيقين المدرب والمتمرس أنه أصبح مثل الثمرة التي نضجـت أكثر مما ينبغي، وأن عليها أن تقطفها برفق حتى لا تتمزق بين يديها وتصبح غير قابلة للتناول... كانت على يقين من أن ماضيه في الشبيبة النازية، مـع علاقته بـ «لويز ماك كورميك»، فوق ذلك الفتور الذي يخيم على علاقته بزوجتـه... مضافـًا إلى كل هذا أن ثقـل المشروع السري الـذي يعمل فيه قد فتت كل مقاومة لديه!

ولقد كانت «إيلين» على حق فيما ذهبت إليه.

ذلـك أن «فريدريـك» بعد لحظات بدأ الحديث.. قـال إنها على حق، وإنه يعمـل في مشروع سري لا يملـك البوح به، وإن المسـئولية تثقل كاهله، فهو يعمـل في اليـوم أكثـر مـن اثنتي عـشرة سـاعة، ولا يجـد وقتًا يـروِّح فيه عن نفسـه... قال إنه بالفعل تقدم باقتراح لضم «فرناندو» إلى فريق العمل الذي يرأسه، فهو يرى في هذا الشـاب عبقريًا من نوع فريد... غير أن كل التقارير التـي جاءته تقول إن في حيـاة «فرناندو» غموضًا غير مسـتحب، وإذا كانت

السلطات تحاول معرفة كل شيء عنه، فلابد أن الأمر يتطلب بعضًا من الوقت!

ركن الرجل إلى الصمت بعد ذلك لفترة ثم توقف عن السير ملتفتًا نحو «إيلين» وهو يقول:

-«هل أستطيع أن أثق بك؟!».

كانت نظراته الآن تفضح زير النساء فيه، ولقد أدركت «إيلين» هذا في لمحة بصر... كانت قد تعلمت منذ أيام «جاتزينا» -مدرسة الجاسوسية السوفيتية- أن الرجال سواء، مهما تنوعت جنسياتهم واختلفت أعراقهم... لذلك فهي لم تضع وقتًا، اقتربت منه حتى كادت تلتصق به... وضعت يدها فوق ذراعه فأحست به يرتجف، قالت في شبه همس:

-كنت أعرف عنك الكثير قبل أن أقبل دعوتك على العشاء.

-وكيف كان ذلك؟!

-المصادفة الغريبة التي دفعتني إلى الحديث عنك مع صديقي هذا الذي استقال من المصنع!

-ولكن كيف كان له أن يعرف أن ثمة مشروعًا سريًّا نعمل فيه؟!

ابتسمت «إيلين» الآن وهي تبتعد عنه سائرة وسط الأشجار فتبعها دون كلمة، قالت:

-ثمة أشياء يا صديقي يظن أصحابها أنها طي الكتمان وهي في حقيقة الأمر شديدة الوضوح!

مرت ثوان قبل أن يقول «فريدريك»:

-معك حق... هذا حق!

-فهل لاحظت طوال الشهور التي انقضت منذ أن تعرفت بزوجتك، أني لم أكن محل ثقة؟!

توقف مواجهًا إياها:

-هل تساعدينني في معرفة شيء عن حياة «فرناندو»؟!

-هل تخبرني بطبيعة مشروعك السري هذا؟!

هكذا سألها، وهكذا اقتحمت منطقة الخطر في حياته وحياتها معًا... وهكذا وقف كل منهما قبالة الآخر، في ذلك المكان ذي الطبيعة الساحرة، وكان على فريدريك أن يختار.

13 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ الاستـــعـــداد للقـــتـــل!

قالت «جروترود هينرتش»، كما قال «فرناندو كورتيز» فيما بعد للمحققين: إن « إيلين» و«فريدريك» عندما عادا من رحلة الصيد القصيرة تلك في نهر سانت لورانس، لم يكن يبدو على أي منهما ما يريب... عادا يحملان عددًا لا بأس به من السمكات، وإنهما كانا يبدوان في حالة مرح؛ مما أسعد «جروترود» سعادة حقيقية؛ ذلك أن نمو الصداقة بين زوجها وصديقتها قد رفع عن كاهلها عبئًا أثقله طويلًا!

أما «فرناندو» فقد قال إنه لا يذكر في تلك العطلة أن شيئًا غريبًا أو غير مألوف قد حدث، وإنه قضى الوقت مع «جروترود» أثناء رحلة الصيد هذه في تجهيز طعام العشاء، حتى إذا عادت «إيلين» مع «فريدريك»، جلست إلى جواره، بل جلست ملتصقة به كأي فتاة تحب، كما كانت عادتها كلما دعيا إلى حفل أو شاركا بعض الأصدقاء في نزهة أو رحلة!

ولقد بدا هذا الأمر محيرًا بالنسبة لهؤلاء الذين حققوا الأمر فيما بعد... غير أن الاستنتاج المنطقي يقود بالقطع إلى أن «فريدريك» و«إيلين» لم يصلا في

ذلك اليوم إلى موقف حاسـم، ومن المؤكد أن «فريد ريك» تردد وأحجم عن البوح بطبيعة هذا المشروع الذي كان يشـارك فيه... كما أن «إيلين»، بدورها، لم تبح بحقيقة «فريد ريك» ولا باسمه الأصلي... وأن النظرة المتأنية لمثل هذا الموقف، تقود من يفكر فيه إلى طريق واحد، هو أنهما قد توصلا إلى حل يبقي الأمر على ما كان عليه، وأنهما أجلا المواجهة إلى أيام قادمة.

غـير أن أحد علماء النفس، ممن شـاركوا في بحث هـذه القضية، جزم بأن «فريدريـك» في ذلـك الوقت كان قد وقع في حب «إيلـين» -أو على الأقل- كان قـد وقـع تحـت تأثيرها الأنثـوي، مما دفعـه إلى تأجيل الأمـر حتى يعطي لنفسـه الفرصة للتفكير من ناحية، ولرؤيتها مـرة أخرى من ناحية ثانية، وفي ظـروف تتيح له الاقتراب منها أكثر... ولقد أكد هذا الظن أن «فريدريك» لم يبلغ عن «إيلين» عقب عودته من عطلةعيد الفصح، بل إن الأوراق الرسمية لم تشر من بعيد أو من قريب إلى شيء مثل هذا، فوق أن الرجل، رغم التزامه الصارم بالاتفاق الذي تم بينه وبين سكرتيرته السابقة «لويز ماك كورميك»، فإنه لم يحاول رؤيتها بعد ذلك، وإن كان قد تحدث إليها هاتفيًّا، وأبدى رغبته في رؤيـة ذلك الطفل الـذي أنجبته، ولقد قالت «لويـز» بدورها، إنه وعدها بلقاء قريب، لكن هذا لم يحدث على الإطلاق!

وعلى كل الأحوال، فلقد كانت هناك مفاجأة في انتظار «إيلين إيستمان»بعد انتهاء عطلة عيد الفصح... ذلك أن برقية وصلت إليها من ابن العم في لندن يقول فيها إن ابنة العم «كاي» ترقد على فراش الموت، وإن من المستحسن أن تطير «إيلين» إلى الوطن كي تلقي عليها نظرة أخيرة قبل أن تغادر الدنيا!

كان معنى هذا أن الرؤسـاء في موسكو كانوا يطلبون منها السفر إلى لندن على جناح السرعة، وأن ثمة لقاء سـوف يتـم هناك، بعيدًا عن العيون بطبيعة الحال، لتتلقى فيه بعض التعليمات التي تحتاج إلى لقاء مباشر.

ولقـد لبـت «إيلين» طلـب ابن العم، وطـارت إلى لندن بعـد يومين فقط مـن انتهـاء العطلة... لكـن الغريب في الأمـر، والذي أدهـش المحققين، أن كل التحريـات التي أجريت في العاصمة البريطانية حول ذلك التاريخ الذي سافرت فيه «إيلين»، أكدت أنها حضرت بالفعل جنازة سيدة بريطانية كانت قـد توفيـت قبل وصولهـا بيوم واحد... وأنها شـوهدت في الجنازة ومراسـم الدفن لهذه السيدة التي كانت تحمل لقب إيستمان بالفعل... لكن أحدًا -على الإطلاق- لم يستطع العثور على عائلة بهذا الاسم، ولا على قبر يحمل شاهده اسم سيدة تحمل هذا اللقب الشائع في بلاد الإنجليز.

مـن ناحيـة، كان هـذا دليـلًا عـلى براعـة المخابـرات السـوفيتية، ومـن ناحيـة أخرى، كان يشـير بوضـوح إلى أهمية هذه الجاسوسـة بالنسـبة لجهاز «كي. جـي. بي»، ممـا دفعهـم إلى اصطناع جنـازة بالفعل، حتـى إذا ما كانت «إيلـين» مراقبـة، تأكـد لمراقبيها أنها جاءت إلى لندن لتشـيع جنـازة ابنة العم الغالية تلك!!

■ ■ ■

غير أن رجلًا من رجال المخابرات السـوفيتية الذين لجئوا إلى الغرب فيما تلا ذلك من سـنوات أكد أن «إيلين إيسـتمان» كانت قد التقت مع واحد من الرؤسـاء من ذوي المكانة... ولقد تم اللقاء بالفعل في نفس ليلة وصولها إلى

لندن... وإن كان لم يتم في العاصمة البريطانية نفسها، فإنه تم في إحدى قرى مقاطعة «كنت» التي تبعد عن لندن بحوالي نصف ساعة بالقطار!

رغم خطورة مركز ذلك الرفيق الذي اتخذ اسم «جريتشنكو»، فإن «إيلين» التقت به لقاء الواثق من نفسه ومن إنجازاته... كان عليها في تلك الليلة أن تقدم تقديرًا شفهيًّا عن كل ما تم في أوتاوا من إنجازات، ولقد بدأ الحوار في السادسة مساء، لكنه لم ينته قبل السادسة صباحًا!!

وعندما عرج الحديث على «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر»، قالت «إيلين» إن المعلومات التي جاءتها من موسكو كانت تقول إن الرجل لم تكن له علاقة بالحزب النازي، وأن شيئًا في ماضيه لا يشين، وكانت هذه نقطة أخذت الكثير من الجدل، فلقد كان الرفيق «جريتشنكو» يؤكد أن كل المستندات التي عثر عليها السوفييت في ألمانيا، تؤكد بُعد الرجل عن أي نشاط نازي، فوق أنه كان صغير السن قبل أن يغادر ألمانيا... لكن «إيلين» رفضت هذا المنطق، وأكدت للرفيق «جريتشنكو» أن «هانز فولر» كان عضوًا بالشبيبة النازية، وأن هذا هو السبب الذي يبدو موضوعيًّا لتغيير اسمه... هكذا أكدت لها زوجته أثناء لقائها ذاك الذي كانت تعاني فيه من انهيار حقيقي خوفًا من إقدام زوجها على الطلاق... وعلى كل الأحوال، فلقد طُلب من «إيلين» في ذلك المساء أن تتأكد من هذا الأمر، حتى إذا ثبت لها باليقين أنه صحيح، فسوف يصبح عليها أن تجند الرجل كي يعمل لحساب المخابرات السوفيتية!

وقع الطلب على «إيلين» وقوع الصاعقة، أدركت على الفور أن هذا هو السبب الرئيسي لاستدعائها إلى لندن... كان آخر ما تفكر فيه، بل ربما لم يخطر

بباها على الإطلاق أن الأمر هو أن تجند «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر» للعمل لحساب الـ «كي. جي. بي».

كانت المفاجأة بالنسبة لتلك الفتاة البالغة الذكاء شديدة... وعبثًا راحت تحاول إقناع ذلك الرفيق، بأن محاولةً مثل هذه قد تمثل خطرًا داهمًا عليها وعلى الشبكة معًا... وأنها قد تستطيع بوسائل أخرى، منها على سبيل المثال أن تسعى إلى إلحاق «فرناندو كورتيز» بالعمل في المصنع، وعن طريقه، سوف تعرف كل شيء عن هذا المشروع السري... قالت إنها على يقين من أن محاولة تجنيده سوف تبوء بالفشل الذريع، فالرجل ذو شخصية قوية، ومازالت التعاليم النازية عالقة بتفكيره، فوق أن حوارها معه، ينبئ بشكل قاطع، بأن ولاءه لكندا لا شك فيه... وليس هذا رأيها وحدها ولكن هو رأي زوجته أيضًا.

وعندما سألها الرفيق جريتشنكو عن سبب اقتناعها الذاتي بذلك الولاء قالت إنها أحست ذلك عندما واجه كل منهما الآخر في رحلة الصيد القصيرة التي قاما بها أثناء عطلة عيد الفصح، وعندما طلبت منه معرفة طبيعة هذا المشروع السري الذي يشرف عليه، اربد وجهه واحتقن، رغم أنها عندما فعلت هذا، فعلته معطية إياه إحساسًا بأنها تمزح حتى لا يمسك عليها ما يمكن أن يدينها، أو -على الأقل- يضعها موضع الشكوك!

كانت«إيلين» منطقية تمامًا في حديثها، لكن الرفيق «جريتشنكو» -الذي بدا وكأنه يميل إلى رأي «إيلين»- قال: إن القيادة في موسكو لديها ما يؤكد أن هذا القسم السري الذي يعمل فيه «هانز فولر»، تجرى فيه الأبحاث حول نوع جديد من القنابل الكيميائية ذات قوة الدمار المتفوقة... كما أن الدراسات النفسية والاجتماعية بل والشخصية التي أجريت حول «فريدريك

هينرتش»، تؤكد بما لا يقبل الشك أنه سوف يسقط في براثنها لو أنها عرضت عليه الأمر!

كان معنـى هـذا أن على «إيلـين» أن تنفـذ الأوامر حرفيًّـا، وأن تبدأ، فور تأكدها من صحة معلوماتها حول التحاق الهرفولر بالشبيبة النازية، خطوات تجنيده لحساب المخابرات السوفيتية!

ولكن كيف؟! وبأي أسلوب تبدأ هذه الخطوات؟!

كان هـذا هو السـؤال الذي طرحته «إيلين» على الرفيق «جريتشـنكو»... فإذا الرد يأتيها صاعقًا هو الآخر:

-بالاتصال البارد!

-هذا محال!

هكـذا هتفـت «إيلين» ولقد ثـارت الفتاة ثـورة عارمة مما أدهـش الرفيق «جريتشـنكو»... كانت تشـعر أن المشروع مشروعها وأن البناء الذي تم، تم على يديها هي دون أحد سواها... وأنها أدرى بالحقل الذي تعمل فيه، وأكثر قـدرة على تحديد هوية الشـخصيات التـي تعمل معهـا، وأن الاتصال البارد الذي يطلبون منها أن تمارسه مع الرجل، سوف يكون مدمرًا بكل المعاني، بل ربما أدى إلى كشفها وكشف الشبكة.

وهنا، وبعد ثورتها تلك وحججها التي ساقتها، جاءها الأمر صارمًا:

-عليك بتنفيذ الأوامر أيتها الرفيقة «تانيا راديونسكا»!

وكان ذكر اسـمها الحقيقي دون الاسـم الذي اتخذته يوم وضعت قدمها عـلى الأراضي البريطانيـة نذيـرًا بأنها قد تخطـت الحدود، وأن عليهـا أن تنفذ الأوامر دون أية مناقشة، ولم يكن أمامها سوى القبول على مضض!

كان معنى ذلك «الاتصال البارد» -وهي ترجمة حرفية لذلك الاصطلاح المسـتخدم في أجهـزة المخابرات- أن تواجـه «إيلين» ذلـك المهندس الألماني بطلب التعاون مع المخابرات السوفيتية دون مواراة أو لف أو دوران.

لم يكن هذا في نظر هؤلاء الذين يمارسـون هذا النوع من النشاط الإنساني غريبًـا... نعـم، لم يكـن غريبًا ولا مسـتبعدًا، فلقـد كانت «إيلـين» تملك من المعلومات التي من الممكن أن تودي بمكانته الاجتماعية في أوتاوا، عن طريق كشـف علاقته بسـكرتيرته السـابقة، والتي كانـت قد أعطت اسـمه لولدها منـه... كان هـذا وحده، كفيـلًا بأن يدمـر كل علاقات الرجـل الاجتماعية، وفـوق أنه كان حريًّا بأن يسـبب له كارثة عائلية، فـإن مكانته في المصنع أيضًا كان من الممكن أن تتأثر إلى حد بعيد!

فوق هذا، كان مجرد كشـف اسـمه الحقيقي، ولو لم يكن هناك دليل دامغ على انضمامه إلى شبيبة النازية، كفيلًا بأن تثير الشكوك من حوله... ليس هذا فقط، بل كان كفيلًا بأن تمارس جماعات الضغط اليهودية عليه هيمنة لا سبيل إلى الفكاك منها!

ولم يكن أمام «إيلين»، وقد عادت إلى أوتاوا بعد أن شيعت جنازة ابنة العم الغالية في لندن، سـوى السـير في الطريق الذي رُسـم لها وأُمرت به... لكنها مـن ناحيـة أخرى، كانت تملك حريـة الحركة في اختيار الأسـلوب والظرف المناسبين للإقدام على خطوة خطيرة كهذه!

وهكـذا... مـا إن وصلـت إلى أوتاوا، حتـى طلبـت «مارجريت فريش» تلـك السـيدة التي كانت تعمل في بيـت «فريدريك هينرتـش»، والتي كانت قد اسـتطاعت، بما تملك من ملكات لا شـك فيها، أن تقترب كثيرًا من نفس الرجل وزوجته... فلقد كانت -حسب توجيهات «إيلين»- تتفانى في خدمة الزوجـين، بل إنها تعمل سـاعات إضافية دون أن تطلـب أجرًا عن ذلك، مما دفع الـ «هر هينرتش»، إلى أن يمنحها، في عيد الفصح، مكافأة شـخصية بعد أن شـكرها على المجهود الذي تبذله في إدارة البيت، مما جعله، هو وزوجته، راضيين، بل ممتلئين بالامتنان لها!

تم اللقاء بين «إيلين» و«مسـز فريش»، في أحـد المطاعم العامة التي يخدم فيها العملاء أنفسـهم... كانت مارجريت هي التي وصلت أولًا-هكذا كان الاتفـاق طبعًا، حملـت صينية طعامهـا إلى إحدى الموائد في ركـن من المحل. كانـت المائدة خالية تمامًا من الرواد... وهكـذا، عندما دلفت «إيلين»، وكان هـذا قبـل انتهاء سـاعات العمل في الـشركات والمحـلات بسـاعة تقريبًا... حملت صينيتها كي تجلس بشـكل عفوي وغير لافـت للنظر، إلى نفس المائدة التي اختارتها «مسز فريش».

لم يكن صعبًا عليهما، أو مسـتغربًا، أن تتبادلا الحوار كأي سـيدتين جلستا إلى مائـدة وحدهما، وإن كان من المستحسـن ألا يلحظ أحد أنهما تتحدثان... ذلك أن المحل كان خاليًا من الرواد في مثل هذه الساعة!

كان الناظر إليهما يلحظ أن كلا منهما كانت تلتهم وجبتها بسرعة دون أن تلقـي بالًا إلى زميلتها على المائدة... ولقد بدأت «إيلين» الحوار -هكذا قالت «مارجريت فريش» فيما بعد- بقولها:

-قبل أن أغادر المائدة... سوف أترك زجاجة صغيرة مليئة بسائل سام!

-حسن!

هكذا أجابت «مارجريت» فأردفت «إيلين»:

-أنت بالطبع تعرفين موعد تناول «مستر هينرتش» قهوته أو شرابه!

-بالتأكيد.

-عندما يصلك مني الأمر، سوف تضعين في فنجان القهوة أو كأس الشراب ثلاث نقاط فقط من هذا السائل!

-وإذا اكتُشفت رائحة غريبة؟!

-إن السائل بلا رائحة.

-وكم يستغرق الأمر؟

-لست موقنة تمامًا، وإن كنت أرجح أنه لن يستغرق أكثر من عشرين ثانية.

-ثم؟!

هكذا سألت «مسز فريش» فأجابت «إيلين»:

-ثم لا شيء، سوف تسيرين في حياتك سيرًا طبيعيًّا بعد أن تتخلصي من بقية السائل والزجاجة!

-وإذا ما اكتشفوا أنه مات مسمومًا؟!

-لن يكتشف أحد شيئًا.

-وكيف كان ذلك؟!

-إن السم لا يترك أي أثر في الجسد الإنساني.

قالت «إيلين» هذا، ثم أنهت طعامها، وفتحت حقيبة يدها كي تخرج منها صندوق سـجائرها مع الولاعة... وكان طبيعيًّا، في أثناء الحركة والبحث في الحقيبة، أن تخرج بعض الأغراض التي كان من بينها تلك الزجاجة الصغيرة وتضعهـا فـوق المائدة بشـكل طبيعي تمامًا... أشـعلت سـيجارتها، وأعادت أغراضهـا إلى الحقيبة، لكن الزجاجة التي تحوي ذلك السـائل السـام، كانت قد اختفت!

وهكـذا، انصرفت «إيلـين» راضية تمامًا... غير أن هـذا لم يكن كل شيء، كان ثمة مهام أخرى عليها أن تقوم بها، قبل أن تخطو تلك الخطوة نحو تجنيد ذلك النازي السابق، لحساب المخابرات السوفيتية!

14 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ إيلين تفكر في الهرب!

كان «فرناندو» شديد السعادة بعودة «إيلين» من لندن. لا لأن سفرتها لم تستغرق سوى بضعة أيام فقط، ولكن لأنها عادت من تشييع جنازة ابنة العم هذه أكثر إقبالًا عليه... حتى لقد قال الفتى للذين حققوا معه فيها بعد. وكان التأثر غالبًا عليه:

«أحسست بشكل غامض، أنها كانت تودعني... كان إقبالها عليَّ غريبًا، كان... كان حقيقيًّا لا زيف فيه، ولا يمكن أن يكون هذا الذي فعلته غير حقيقي بأي معنى من المعاني!».

لزم الصمت ثم أردف بعد ثوان مختنق الصوت:

-كانت ودودة، ودافئة... كانت مثل أنثى عادت إلى عشها بعد غيبة طالت رغم أنها لم تغب عن أوتاوا أكثر من أسبوع!

سألته «إيلين» وهي تضع رأسها فوق صدره وكأنها كانت في رحلة شاقة وآن لها أن تستريح:

-ألم يتصل بك «فريدريك»؟!

-لا... لم يفعل!

هبت مرتكزة على كوعيها مسندة رأسها إلى كفيها ناظرة إليه:

-لو أننا فكرنا في الهجرة من كندا... إلى أية دولة تريد أن تذهب؟!

كان السؤال مفاجئًا، وكان غريبًا، وكان بعيدًا كل البعد عن ذهن ذلك الفتى الأسمر الذي كان غارقًا لأذنيه في حب تلك الفتاة التي أوردته الجنة وأعطته الأمان وأشعرته -لأول مرة في حياته- أنه كائن يعيش ويتنفس ملء صدره -كان هذا هو تعبيره بالحرف- ولذلك، فقد اعتدل جالسًا وهو يسألها بدوره:

-ما الذي تفكرين فيه بحق السماء!

نظرت إليه طويلًا، كانت عيناها الآن ترسلان إليه نظرات حانية، كانتا -كما قال- عينين تضيئان من الداخل... ولقد أضاف «فرناندو كورتيز»، أن نظراتها لم تكن هي فقط التي أعطته هذا الإحساس الغامر بالحب... بل إن حديثها كان يشع بصدق باهر، كما كان صوتها رقيقًا حارًّا متدفقًا، أجابته يومها:

-أريد أن أذهب معك إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد... أريد أن أحقق بك ومعك حلمي الكبير!

هتف «فرناندو» مقبلًا عليها:

أي حلم هذا؟!

-بيت صغير ذو حديقة جميلة يمرح فيها عدد كبير من الأطفال!!

-إيلين!!

هبت جالسة على ركبتيها مثل طفلة في الخامسة عشرة:

-هل تعدني بألا تقع في حب امرأة سواي؟!

وضع يده فوق قلبه قائلًا:

-أقسم بكل ما أومن به من مقدسات!

-وأن تحميني؟!

-وأن أحميك!

قال «فرناندو كورتيز»، إن «إيلين» ألقت بنفسها بعد ذلك فوق الفراش، وتركت لدمعها العنان!!

■ ■ ■

ألم يكن هذا الذي قاله «فرناندو كورتيز» أو «إيمانويل سييرا» سرًا طبيعيًّا بأي معنى من المعاني، وبرغم الضغوط التي مارسها عليه المحققون، وبرغم عدد المرات التي قص فيها قصة تلك اللحظات، والتي زادت على خمس مرات، فإن الشاب لم يخطئ في كلمة واحدة مما أكد صدق حديثه... وأكد بالتالي، أنه لا يبالغ في وصف ما حدث أو أن ذاكرته جنحت باللاوعي إلى ما كان يتمنى أن يحدث... لقد كان هذا الإحساس الذي انتاب «إيلين» بعد عودتها من لندن، محل بحث وتمحيص من علماء نفس وخبراء في فنون التخابر والتجسس لفترة طويلة!

فهل كانت «إيلين»، بعد لقائها ذاك مع الرفيق «جريتشنكو» تفكر في الهرب؟!

هـل وصل بها التعب والإجهاد إلى حد أنها فكرت في الاختفاء بعيدًا عن العيـون في بيت يضمها مـع زوج ترجو منه الحماية، وتتطلع إلى أن تنجب منه أطفالًا يمرحون في حديقة هذا البيت المأمول؟!

كان الأمـر غريبًـا وباعثًـا عـلى التفكـير والتمحيـص حقًّـا... ومهما قال أسـاطين علم النفس، مهما بحثوا ونقبوا في نفسـية تلك الفتاة ورغبتها، كأية أنثى في الدنيا، في تكوين أسرة وبيت... فإن هذا كله، لم يتفق أبدًا، ولا يمكن أن يكون متسقًا أو منسجمًا مع ما كانت تفعله أو ما فعلته بعد ذلك، حتى... حتـى عندمـا وقعت في حب رجل آخر -وكان هذا بعـد عام وبعض العام- كان يمثل خطرًا داهمًا على حياتها!

ولقد ظل هذا الحوار، كما ظلت تلك الليلة، وأغلب الظن أنها سوف تظل لفترة طويلة، محل دراسـة جادة، وربما مضنية لمعرفة سر تلك السـاعات التي يتغلـب فيها الإنسـان على الجاسـوس... ولقد قال أحد علـماء النفس الذين تخصصوا في دراسة نفسيات من يعملون في هذا الحقل من الرجال أو النساء، إن هـذا الأمر سـوف يظـل سرًّا لا يملك مفتاحه سـوى «إيلين إيسـتمان» أو «تانيا راديونسكا» نفسها!!

■ ■ ■

أمـا «جروترود هينرتش» فلقد قالت إنها دهشـت دهشـة شـديدة عندما علمت أن «إيلين» قد عادت إلى أوتاوا -وكان هذا بعد عودتها بيومين- دون أن تتصـل بها... وعـلى كلٍّ فلقد بـادرت هي بالاتصـال، واتفقت معها على اللقاء في أحد المحلات لتناول فنجان من القهوة... وأن زوجها «فريدريك»،

عندمـا علم بعودة «إيلين» في مسـاء ذلك اليوم بادر هـو الآخر بالاتصال بها كي يبثها عزاءه... ولقد أضافت «جروترود» أنها دهشـت من اهتمام زوجها هذا، لكنها عزته إلى رغبته في إرضائها لأن «إيلين» صديقتها!

■ ■ ■

وقالـت إحدى عامـلات المحل الذي تملكه «إيلـين»، جازمة بأنها عادت من رحلتها إلى لندن وكأنها شخصية أخرى... قالت إنها -ظاهريًّا- لم تغير من عاداتها أو أسـلوبها في الإدارة شـيئًا... لكنها كانت تشـعر بأن هذه الفتاة التي عادت من لندن، ليست هي «مس إيستمان» التي عرفتها، وعملت لديها، وأحبتها!!

وللدليـل عـلى وجهـة نظرهـا هـذه، قالـت العاملـة، وأيدتهـا بقيـة العامـلات... إن «إيلـين» -ولأيـام عديـدة بعـد وصولهـا- كانـت إذا مـا وصلـت إلى المحـل، لزمـت مكتبهـا لا تبرحـه إلا إن احتـاج العمـل إلى ذلـك، وأنهـا كانـت تبـدو سـاهمة، وربـما اسـتغرقت في قـراءة جريـدة أو كتاب... ولقد أكدت عاملة أخرى أنها:

-كانـت تبـدو لي في تلـك الأيـام وكأنهـا فقـدت كل اهتمامهـا بالعمـل، ولم يكن هذا من طباعها بأي معنى!

وقالت عاملة ثالثة:

-كانت تبدو وكأن في أعماقها جرحًا مخيفًا!!

■ ■ ■

ولقـد لاحـظ كل الذين كانوا قريبـين من «فريدريـك هينرتش»، أو على اتصال به... أنه في تلك الأيام كان يبدو كالتائه... وبالنسبة لزملائه ومرءوسيه في العمل، لم تكن علاقته بسكرتيرته السابقة «لويز ماك كورميك» خافية... فمـن الصعب إخفاء مثـل هذه العلاقـات مهما بذل أصحابها مـن مجهود... وبطبيعة الحال، فلقد كان البعض منهم يعرف ما انتهت إليه هذه العلاقة. بل إن البعض ممن كانت تربطهم بـ «لويز» علاقة صداقة، كانو يعرفون تفاصيل الاتفـاق الـذي تم بينهـما... وكانوا موقنين أشـد ما يكون اليقـين أن «لويز» خرجـت من حياتـه إلى الأبد!... ولذلك، فلقـد كان غريبًا أن يلحظ الجميع سهومه ذاك إلى الحد أنه كان في بعض الأحيان ينسى أشياء هامة في العمل... وقد وصل الأمر إلى حد أنه انصرف ذات يوم مبكرًا بدعوى أنه يشعر ببعض التوعك، ولقد ظن الجميع يومها أنه عاد إلى البيت، لولا أن «مسز هينرتش» أكـدت، أنه في ذلـك اليوم بالتحديـد، لم يصل إلى البيـت في موعده، وكانت رائحـة الخمر تفوح منه مما لفت نظرها إلى ذلك القلق الذي انتاب زوجها... وقـد أضافت هذه الزوجة المسـكينة، أنه قضى أغلب الليـل في غرفة مكتبه لم يبرحها إلا قرب الفجر... وعندما سـألته عما به، أجاب في اقتضاب بأن ثمة مشكلة في العمل تشغل باله، وأنه يحتاج إلى بعض الوقت كي يجد لها حلًّا... وعندمـا حاولت أن تسري عنه أو تسـاعده بإعداد كأس من الشراب، هتف غاضبًا:

«جروترود»... اتركيني وحدي أرجوك!

فتركته وحده، لكنها لم تعرف للنوم طعمًا حتى عاد إلى غرفة النوم!

وحتى اليوم... مازالت تلك الساعات التي قضاها «فريدريك» منذ أن غادر المصنع، وحتى عاد إلى البيت، لغزًا لم يصل أحد إلى معرفة المكان الذي كان فيه، وإن كان المرجح، بطبيعة الحال، أنه قضاها في حانة وحده!

■ ■ ■

في ضحى اليوم التالي اتصل «فريدريك» بـ «إيلين» تليفونيًّا، كان الحوار بينهما -كالعادة- مقتضبًا، قال:

-أعتقد أنه قد حان الوقت كي نلتقي!

-أتظن ذلك؟!

-هذا رأيي على كل حال!

-ولكن أحدًا لم يطلب مني موعدًا أو لقاءً!

-وها أنا أفعل!

-فأين تريد أن يتم اللقاء؟!

-في مكان أستطيع أن أتحدث فيه إليك بحرية دون أن يقاطعنا حدث أو مخلوق!

لزمت «إيلين» الصمت، كانت الآن تفكر بسرعة، إن الرجل يخطو بإصرار نحو حتفه، وهذا اللقاء الذي يطلبه لن يحتمل منها ترددًا، ولسوف تخلع القناع، كما طُلب منها وتعرض عليه التعاون مع المخابرات السوفيتية، وكان احتمال رفضه قائمًا، فماذا تفعل لو أنه رفض فعلًا؟!

-«إيلين»... هل أنت هناك؟!

- إني أفكر في هذا المكان الذي تريد أن تتحدث فيه دون أن يقاطعك أحد!

لم يكن هذا هو أسلوبها في الحديث معه، ولذلك، فلقد تردد قليلًا ثم قال:

-هل أكون متطفلًا لو أني طلبت أن نلتقي في بيتك؟!

ارتابت «إيلين» في الرجل... إن عنوان بيتها لا يعرفه سوى القليلين وليس منهم «فريدريك هينرتش»، فهل توصل هذا المهندس النازي المنشأ إليه؟!

قالت كمن يهم بإنهاء المكالمة:

-حسن... ليكن ذلك في السادسة مساءً!

جاءها صوته في لهفة:

انتظري أيتها الفتاة.

-ماذا هنالك؟!

-ألا تعطينني العنوان؟!

داخلتها الطمأنينة إلى حد ما... أعطته العنوان وأعادت السماعة واستغرقت في التفكير.

... ...

... ...

كانت «تانيا راديونسكا» تعلم يقينًا أن اللحظة الحاسمة قد حانت... وأن عليها أن تنفذ أوامر الرؤساء في موسكو دون تردد... غير أن سؤالًا واجهها الآن: ماذا لو أن «الهر هانز فولر» يريد أن يبوح لها بحبه؟!...

هـي لم تنـس نظراتـه ليلـة أن تناولت العشـاء في بيته، وهـي لم تنس ذلك الارتباك الذي ألم به عندما تشابكت أيديهما وهي تجذب معه خيط الصنارة في رحلة الصيد التي خرجا فيها معًا... هي موقنة بالفعل أن الرجل وقع صريع هواها وأنه يعاني من حبها... فهل يقبل التعاون معها فيعفيها من مهمة تبدو لها في الأفق دامية؟!

ومهما كان الأمر، فلقد كان عليها أن تستعد لهذا اللقاء حتى لا تترك شيئًا للمصادفة أو الظروف. وهو اسـتعداد كان في حاجة إلى العديد من اللقاءات والترتيبات، ولم يكن أمامها سوى ساعات قليلة عليها أن تنجز فيها الكثير... ذلك أن الهاجس الذي ألم بها كان يلح عليها إلحاحًا متصلًا.

ماذا لو أن «فريدريك» ركب رأسه ورفض التعاون معها؟!

بـــــل...

ماذا لو أنه أبلغ عنها سلطات الأمن الكندية؟!

■ ■ ■

كان عليهـا أولًا، وقبل كل شيء، أن تلتقـي بـ «مارجريت فريش»، تلك القاتلة التي تعمل في بيت الرجل... رفعت سـماعة التليفون، وطلبت الرقم، ومـا إن جاءها على الطرف الآخر صوت «مسـز فريش»، حتى فوجئت بها لم يخطر لها ببال... كانت «جروترود هينرتش» تقف أمامها في المكتب!

15 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ ماذا أفعل بعد أن يلفظ أنفاسه؟!

كان وصول «جروترود هينرتش» مفاجأة كاملة لـ «إيلين» التي لم تتعود أن تستقبل أحدًا بلا موعد... غير أن وجه تلك السيدة الألمانية كان يشي بشيء جديد، فكرت «إيلين» أن تعيد السماعة إلى مكانها ولكنها قررت ألا تفعل فلربما كان في الأمر من الأنباء ما قد تحتاج إليه... دق جرس التليفون على الطرف الآخر في بيت «فريدريك»، في الوقت الذي كانت «إيلين» تمنح فيه «جروترود» ابتسامة مرحبة وهي تشير إلى المقعد أمام المكتب، رُفعت السماعة وجاءها صوت «مسز فريش»:

-منزل مستر هينرتش!

سألت «إيلين»:

-هل أستطيع الحديث إلى مستر بلاك؟!

أجابت «مسز فريش» على الفور:

-أعتقد أن الوقت لا يسمح باستدعائه!

-إذن فأرجو أن تبلغوه أننا في حاجة إلى ثلاثة صناديق من ماركة الحصان الأبيض!

-إن المتوافر لدينا الآن لا يزيد على صندوقين!

-لا بأس، على ألا يكون هناك أي نوع من التأخير!

- أو. كي.!

وهكذا انتهت تلك المكالمة الغريبة، والتي كانت تعني بلغة الشفرة المتفق عليها، أن «إيلين» تريد لقاء «مسز فريش» في الثالثة، لكن «مارجريت» فضلت أن يكون اللقاء في الثانية بعد الظهر!

أعادت «إيلين» السماعة إلى مكانها... كانت هذه هي الخطوة الأولى، نظرت في ساعة يدها، وأدركت أنها تستطيع أن تعطي «جروترود» بعضًا من الوقت، التفتت نحوها مرحبة وهي تنهض متسائلة:

-هل لك في فنجان من القهوة؟!

-«إيلين»!

هكذا هتفت «جروترود» فضحكت «إيلين» ضحكة خفيفة وهي تقول:

-لا تقولي شيئًا، إن وجهك يشي بما يعتمل في صدرك!

قدمت لها فنجان القهوة وعادت إلى مكتبها مستطردة:

-والآن، ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟!

-أخشى أن أعطل عملك!

-أمامي اليوم الكثير مما يجب إنجازه، وإن كنت أستطيع أن أمنحك خمس عشرة دقيقة!

قالـت «جروتـرود» فيما بعد، إن «إيلين» في ذلك اليـوم كانت معها رقيقة كالعادة، وأن «جروترود» راحت تشـكو لها حـال زوجها في الأيام الأخيرة، وعندما سـألتها «إيلين» إن كانت تشك أن «فريدريك» عاد سيرته الأولى مع سـكرتيرته، هتفت هذه نافية الأمر تمامًا، قالت إن «فريدريك» على عكس ما كان يحدث في الشهور التي انصرمت، أصبح رقيقًا معها حنونًا كما لم يكن من قبل... غير أن شيئًا ما أصبح يشغل باله!

-ألم تخبريني أنه يعمل في مشروع هام؟!

-نعـم «إيلين»، هذا حقيقي، وهو ليس هامًّا فقط، بل إنه سِرِّيٌّ إلى أقصى درجـة، لكني موقنة تمامًا أن العمل ليس هو ما يشـغل بـال «فريدريك» بأي حال!

وكان هـذا كل مـا تريد «إيلـين» معرفته الآن... إذن، فلقد سـقط الرجل صريع هواها، أو خوفًا منها... ولذلك، فلقد راحت تهدئ من روع جروترود قائلة: إن حبها الشديد لزوجها يجعلها في حالة قلق دائم عليه، وأن هذا القلق بالذات، من الممكن أن يؤثر على عمله... قالت هذا ثم أردفت:

-فهل تريدين يا عزيزتي أن تكوني عقبة في سبيله أم تكوني عونًا له؟!

كانت جملة «إيلين» هذه بلسمًا أرضاها تمامًا، احتست «جروترود» فنجان قهوتهـا وانصرفـت راضية بعد أن زودتهـا «إيلين» بنصائحهـا الثمينة، قالت «جروترود» هذا وهي تتململ أمام المحقق، ثم ما لبثت أن أردفت:

-لست أدري بالتحديد ما هي التهمة التي توجهونها لتلك الفتاة الرائعة، لقد كانت نعم الصديق!

ولقد علق أحد الذين حققوا هذه القضية فيما بعد، أنه -برغم خبرته التي استمرت ربع قرن من الزمان- لم يلتق بجاسوس على هذا القدر من الذكاء والفطنة، بل والرقة أيضًا... لقد كانت هذه الجاسوسة تذبح خصومها بخيوط الحرير!

■ ■ ■

في أطراف أوتاوا، كما في أطراف كل عواصم الدنيا، تتناثر محلات الوجبات السريعة متباعدة، وإن كانت تشكل منظومة من المطاعم التي تملكها شركة عملاقة... إلا أنه -دائمًا- ما يجد المسافر، فيما بين هذه المطاعم محلات خاصة يملكها أفراد... وتتميز هذه المحلات عادة بالجو العائلي... ذلك أن صاحب المطعم يعمل فيه عادة مع زوجته وربما أولاده، وهو قد يستأجر عاملًا أو اثنين في ذروة المواسم، لكنهم في النهاية، يعيشون جميعًا في نفس المكان الذي يقع على جوانب الطرق السريعة التي توصل فيما بين العاصمة والمدن الأخرى!

في الطريق الموصل بين أوتاوا ومدينة كورندول الغربية، يقع مطعم صغير يحمل اسم «كيتشن» أي المطبخ، وهو عبارة عن مبنى صغير برتقالي اللون، ينقسم إلى عدة أقسام تقوم على مساحة صغيرة من الأرض... القسم الرئيسي منها يطل على الطريق مباشرة، وهذا هو المطعم، وفي الخلف يقوم البيت الذي يعيش فيه رجل من أصل بريطاني يحمل اسم «سميث»، وهو اسم إنجليزي

دارج، وهـو يديـر المطعم مع زوجته الهولندية وابنـه وابنتيه... بجوار المطعم والبيـت، وعلى بعد لا يزيد على المائتي متر، تقـوم المزرعة الصغيرة التي يربي فيها «المسـتر سـميث» الدجاج وبضعة خراف مما يغذي المطعم بما يحتاجه... على يسار المزرعة، بناء صغير عبارة عن مخزن للبضائع يحوي، ضمن معدات أخـرى، ثلاجة كبيرة كلفت «المسـتر سـميث» بضعة آلاف مـن الدولارات الكندية!

ولقـد تعودت «إيلين» بين الحين والحين، أن تخرج في نزهة إلى هذا المطعم كي تتناول فيه وجبة دسـمة... إذا ما كانت في حاجة إلى مثل هذه الوجبة... وهـي، في ذلـك اليـوم، عندما وصلـت إلى «المطبخ»، كانت تبـدو -على غير عادتها كلما جاءت إلى المكان- في عجلة من أمرها!

كانت -دون شـك- محظوظة في ذلك اليوم، فلم يكن بالمطعم رواد رغم أن فصـل الربيـع قد بدأ، والزهـور تملأ المكان، والخضرة تصبـغ الدنيا بلونها الزاهي... وهي، عندما دلفت إلى المحل، كان «مستر سميث» يجلس في ركن مـن المكان بجوار نافذة تطل على الطريق، وهو يطالع جريدة يومية كانت قد وصلت منذ سـاعة وبعض الساعة... ولابد أنه كان قد شاهد سيارة «إيلين» لحظة وصولها، لكن الأمر، على ما يبدو، لم يكن يعنيه كثيرًا.

ألقـت «إيلين» عليـه تحية الصباح فنهض إليها في تكاسـل واضح... كان كل منهما يعرف الآخر جيدًا، ففوق أنها كانت تتردد على المحل بشـكل شـبه منتظم، فلقد بدا أن بينهما نوعًا غامضًا من الصداقة... اختارت مكانًا بجوار نافذة في عمق المكان، تسـتطيع من خلال زجاجها أن تشـاهد كل من يدلف

إلى السـاحة المنبسطة... وعندما سـألها «سميث» عما تريد، قالت في اقتضاب وهي تمنحه ابتسامة فاترة:

-أريد وجبة سريعة ومغذية في نفس الوقت!...

-هل تريدين شرابًا بعينه؟!

ألقت ببصرها نحو الساحة من خلال الزجاج ثم ارتدت ببصرها إليه قائلة:

-لك أن تختار فليس لدي وقت للاختيار!

كان جوابهـا غامضًـا وإن كان موحيًـا فأدرك الرجل أن في الأمر شـيئًا... ولذلـك، فسرعان ما دلف من باب خلفي، اختفى لدقائق ثم عاد مع زوجته التـي رحبت بـ «إيلين» في حرارة واضحة وبـدأت على الفور في إعداد وجبة من لحم الحملان الذي تحبه «إيلين» حبًّا شـديدًا، بينما صنع الرجل مزيجًا من العصائر حملها إليها وجلس قبالتها... ما إن رشفت رشفة حتى سألت:

-مستر فريدريك هينرتش!

-ماذا عنه؟!

-أريد أن أعرف كل شيء عن خطواته من الآن وحتى يعود إلى بيته في المساء!

بدا وكأن الأمر لا يستحق كل هذا التوتر الذي لحظه الرجل بعينيه المدربتين.

-أهذا هو كل شيء؟!

-هناك مشكلة أتمنى أن نتغلب عليها!

-وما هي؟!

-سـوف ألتقي بـ «المسـتر هينرتش» في السادسـة، فهل نسـتطيع أن نتتبع مكالماته التليفونية منذ عودته إلى البيت وحتى صباح الغد؟!

ركن الرجل إلى الصمت لثوانٍ قال بعدها:

-لابد أن الأمر هام!

-إلى درجة الخطورة!

زفر «مستر سميث» زفرة ثم قال:

-حسن... سندبر هذا الأمر!

حدجته «إيلين» في تساؤل فأضاف:

-قد نتكلف بعضًا من المال!

-سوف أنسى فوق المائدة خمسمائة دولار... هل هذا يكفي؟!

قال مغمغمًا:

-المهم أن نقوم بالمهمة على وجه مرضٍ!...

-والاتصال؟!

-كالعادة، هل تغادرين البيت الليلة؟!

-ستجدني بجوار آلة التليفون!

وجاءت زوجة الرجل، تحمل لها وجبتها المفضلة!

■ ■ ■

-في أية ساعة في الصباح تذهبين إلى بيت «مستر هينرتش»؟!

-إني أذهب عادة في التاسعة!

-معنى هذا أنه يكون قد غادر البيت إلى العمل!

-هذا هو الموعد!

-هل تستطيعين أن تدبري المبيت لديهم ليلة أو ليلتين؟!

بدت الدهشة على وجه «مارجريت فريش»، غمغمت.

قالت «إيلين» وكأن الأمر لا يعنيها كثيرًا:

-لست أدري تمامًا... وإن كان هذا هو الوضع المثالي!

-قد أستطيع ابتكار قصة تدفعهم لدعوتي لقضاء الليلة عندهما!

-هل هناك مكان لمبيتك؟!

-إن لديهما غرفة للخادم، لكنها لا تستعمل عادة!

-لو استطعت تدبير الأمر فلسوف تكون المكافأة مجزية!

-إذن فلسوف أستطيع!

كانت -«إيلين» و«مسز فريش»- تجلسان في نفس المطعم الذي التقتا فيه من قبل، وإن كانت «إيلين» قد اكتفت بتناول فنجان من القهوة السوداء، فإن «مسز فريش» تناولت وجبة مضاعفة تتناسب مع جسدها الهائل... لزمت «إيلين» الصمت لثوانٍ أشعلت سيجارة، فأردفت «مارجريت» متسائلة:

-ما المطلوب بالضبط!

-إذا دق جرس التليفون، ليلًا أو نهارًا، دقة واحدة ثم توقف. ثم دق دقتين وتوقف بعدها، فإن عليك أن تقومي بالمهمة!

-السم؟!

هزت «إيلين» رأسها إيجابًا فتساءلت «مسز فريش»:

-هل أنت واثقة أن ضررًا لن يلحق بي؟!

-رمتها «إيلين» بنظرة صارمة فزفرت «مارجريت فريش» قائلة:

-لقد قلت إن السم لن يستغرق طويلًا حتى يلفظ السيد أنفاسه، فماذا أفعل بعد ذلك؟!

-لا شيء... تصرفي بشكل طبيعي ولا تتركي السيدة «هينرتش» وحدها في المحنة!

قبل أن تنهض «إيلين»، كانت بضعة أوراق من فئة المائة دولار قد وصلت حقيبة «مارجريت» دون أن يلحظ أحد من رواد المطعم شيئًا!

■ ■ ■

الآن... كان كل شيء معدًّا، في دقة، لاستقبال «فريدريك هينرتش».

وكانت إيلين»، في السادسة، تجلس في انتظاره!

16 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ إيلين تخلع القناع!

اهتم المحققون اهتمامًا خاصًّا بتلك الليلة التي كاشفت فيها «إيلين إيستمان» «فريدريك هينرتش» بحقيقة أمرها... وبمعنى آخر، ليلة أن اتصلت به اتصالًا باردًا... ذلك أن الأحداث في ذلك اليوم وفي تلك الليلة كانت متشابكة ومعقدة أشد ما يكون التشابك والتعقيد، فوق أن معرفة ما وقع خلال الأربع والعشرين ساعة هذه كانت كفيلة بأن تكشف عن الكثير من الجوانب الغامضة في أداء تلك الجاسوسة الخطيرة.

ولقد ذكر رجل المخابرات السوفيتي الذي لجأ إلى الغرب فيما بعد بسنوات، عندما سُئل عن «إيلين إيستمان»، أنها كانت رافضة لفكرة الاتصال البارد مع «فريدريك»، وكانت ترى أن غباء الرؤساء في موسكو وإصرارهم على موقفهم سوف يؤدي بها إلى مأزق هي في غنى عنه.

فمن ناحية، كان غرام «فريدريك» بها، كفيلًا بأن يدفعه إلى استرضائها بإلحاق «فرناندو كورتيز» بالعمل في المصنع، وكان هذا وحده كافيًا لأن تعرف كل شيء عن هذا المشروع السري دون مخاطرة... لكنها -على الناحية

الأخرى- لم تكن تستطيع عصيان أوامر الرؤساء وإلا أدى هذا -بالنسبة إليها- إلى ما لا تحمد عقباه.

غير أن الوصول إلى حقائق تلك الليلة العصيبة، لم يكن له سوى طريق واحد، هو معرفة تصرفات وخطوات «هر هينرتش» بأكبر قدر من الدقة... ولقد قالت زوجته «جروترود» فيما بعد إنها تذكر أحداث ذلك اليوم جيدًا... فهي تذكر مثلًا، أن «مارجريت فريش» عندما جاءت في الصباح، لم تكن مهندمة كما تعودت أن تراها، بل بدت ملابسها شبه مبتلة، وشعرها غير مصفف... وأنها ما إن دلفت إلى البيت، حتى اختفت في الحمام لفترة ليست وجيزة كي تصلح من شأنها وتستعد لأداء عملها، وعندما خرجت كانت عيناها حمراوين مما أكد لـ «جروترود» أنها كانت تبكي... وعندما سألتها عما بها تهربت في البداية من الإجابة، ولكن مع الإلحاح انهمرت دموعها، ومع الدموع، قالت «مسز فريش» إن زوجها طردها من البيت في منتصف الليل في نوبة من نوبات السكر التي تنتابه بين الحين والحين، وإنها قضت جزءًا كبيرًا من الليل في خميلة بإحدى الحدائق العامة... غير أن ما كان يحيرها الآن أنها لا تستطيع أن تعود إلى البيت قبل يومين أو ثلاثة، وهي لا تدري إلى أين تذهب وليس معها من المال ما يكفي للنزول في فندق ولو كان رخيصًا...

وهكذا استطاعت هذه القاتلة المحترفة أن تجيد تمثيل دور الزوجة المضطهدة، وتدفع «جروترود» لأن تعرض عليها أن تبقى عندهم هذين اليومين، فهناك غرفة للخادم لا تستعمل عادة، وكل ما عليها أن تجهزها للمعيشة... ولقد شكرتها «مسز فريش»... ودمعها ينهمر... ثم أضافت «جروترود هينرتش» أنه عندما عرضت الأمر على زوجها رحب هو الآخر،

فلقد كان يكن احترامًا حقيقيًّا لهذه السيدة التي كانت تتفانى في خدمتها... ثم قالت إنه في ذلك اليوم، عاد من عمله مبكرًا عن موعده، وقد برر هذا بأن شخصية مهمة من الشركة الأم في الولايات المتحدة قد وصل إلى أوتاوا، وأن ثمة عشاء عمل عليه أن يحضره في ذلك المساء مع هذه الشخصية... كان «فريدريك» يبدو متوترًا، فلقد راح يستعد لهذا العشاء بانتقاء ملابس تليق بالمناسبة، ولما كانت «جروترود» تعلم أن مثل هذا العشاء عادة ما تحضره الزوجات، فلقد راحت هي الأخرى تستعد له... وعندما سألها «فريدريك» عن سبب استعدادها هذا، قالت:

-ألم تقل إنه عشاء عمل؟!

-نعم... لقد قلت هذا فعلًا!

-ألم تجر العادة على حضور الزوجات مثل هذا العشاء؟!

بدا الارتباك على «فريدريك» لثوانٍ، غير أنه اقترب منها في تودد قائلًا:

-إن هذا عشاءٌ مختلف «جروترود»!

نظرت إليه مستفسرة فأردف:

-إنه في البداية عشاء سري، وكنت سوف أطلب منك ألا تذكري أمره لأحد، خاصة زوجات الزملاء والأصدقاء في المصنع إذا حدث أن التقيت بإحداهن!

-هل الأمر مهم إلى هذه الدرجة؟!

-جروترود... لقد عانيت كثيرًا في الأيام الأخيرة من شكوكك في سلوكي، وليس أمامي الآن؛ حتى نعيش في سلام، إلا أن أبوح لك بسر.

-أنت تعرف فريدي أن أسرارك في صدري لا أبوح بها لمخلوق مهما كان.

-المشروع الذي أعمـل به، ليس على قدر كبير مـن الأهمية فقط، بل على قدر كبير من السرية أيضًا!

راحت تنظر إليه في انتظار أن يكمل حديثه. لكنه سرعان ما هتف:

-هذا كل ما في الأمر، أنا لا أستطيع أن أبوح لك بأكثر من هذا.

قالـت «جروترود» إن زوجها في تلك اللحظـات، وعلى غير العادة، كان يبـدو مثل طفـل ارتكب ذنبًا... ولقد لفت نظرها أنـه راح يتأنق أكثر مما كان يفعل في هذه المناسـبات، وأنه طلب منها أن تساعده في اختيار البذلة المناسبة وربـاط العنق المناسـب، فوق أنـه اعتنى بتصفيف شـعره... لكن الغريب في الأمـر أنه اسـتعمل نوعًا من العطور كانت قد أهدته له في إحدى المناسـبات لكنه رفض استعماله وقتها بحجة أنه يصلح للشباب لا لرجل في مثل عمره، قالت هذا ثم أضافت:

-نعـم... كانت تصرفاته غريبة في ذلك اليوم، لكنني عزوت الأمر إلى أنه كان يريد أن يلقى قبولًا حسنًا لدى هذه الشخصية المهمة... ثم إني أحسست من حديثه أن ثمة تزكية أو منصبًا سوف يعرض عليه، وأنه فضل ألا يذكر لي هذه الحقيقة حتى يتيقن منها!

ركنت «جروترود» إلى الصمت لثوانٍ أردفت بعدها مختنقة الصوت:

-كنت سـعيدة من أجله سعادة غامرة... ولقد ودعني قبل خروجه بقبلة كانت دافئة بحق!

■ ■ ■

في حـوالي السـاعة الثالثة بعـد الظهر، تلقـت «إيلين إيسـتهان» مكالمة من «المطبـخ» وكانـت لا تـزال في مكتبهـا بمحـل بيع الملابـس الداخليـة الذي تملكـه -وكان صـوت المتحدث أجشَّ ويبدو كأنه في عجلـة من أمره... قال صاحـب الصوت إن الشـحنة الجديدة خرجت من المصنـع وهي في طريقها الآن إلى المخـزن... وكان معنـى هذا أن «فريدريك» غـادر المصنع في طريقه إلى البيت... ولقد أنهت «إيلين» المكالمة بعد أن شكرت صاحبها، ونظرت في ساعة يدها وقد اعتراها بعض التوتر وعادت إلى ما كانت فيه... وبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة، دق جرس التليفون دقة واحدة ثم صمت، فأدركت أنه وصل إلى البيت، فلقد كانت هذه الدقة إشارة من «مسز فريش».

وهكـذا تيقنـت «إيلين إيسـتهان» مـن أن «فريدريك هينرتـش» أو «هانز فولر» أصبح تحت رقابة صارمة منها، فأية حركة، أو مكالمة تليفونية، أو حتى حديث بينه وبين زوجته، سوف تحاط علمًا به.

وكان عليها الآن، أن تستعد للقائه.

غـير أنها، قبـل أن تغادر مكتبهـا بدقائـق، دق جرس التليفـون، وعندما رفعت السـاعة كان المتحدث هو «فرناندو كورتيز»... ما إن سـمع الشـاب صوتهـا حتى تدفق في الحديث معاتبًا، فلقـد انقضت أيام ثلاثة دون أن يراها أو حتى يسمع صوتها. كان «فرناندو» يتحرق شوقًا للقائها... ولم يكن صعبًا عليها أن تسترضيه، وأن تعتذر له بكثرة المشاغل، وأنها كانت تستعد في ذلك المساء للقائه لولا دعوة على العشاء تلقتها من عميل مهم، وفي النهاية، وعدته بلقاء قريب...

ولم يكـن أمام «فرناندو» سـوى الخضوع للواقع، فـراح يبثها حبه، لكنها أعـادت السـاعة إلى مكانها معتـذرة بأن ثمـة عميلًا وصل... ومـا لبثت أن غـادرت مكتبهـا معتـذرة للعامـلات معهـا في المحـل، ثـم أصـدرت بعض التعليمات، وانصرفت بسرعة!

■ ■ ■

في الموعـد المحدد تمامًا، وصل «فريدريـك هينرتش» إلى البيت... غير أنه لم ينس، أن يقف بسيارته بعيدًا عن البيت. وأن يقطع المسافة حتى بيتها سيرًا على الأقدام!

عندمـا دلـف «فريدريـك» إلى البيـت، كانـت «إيلـين إيسـتمان» في أبهى حللها... كانت قد صففت شـعرها بأسـلوب مغاير لما تعوده منها، وارتدت فستانًا حديثًا يبرز مفاتنها... وكان هذا وحده كافيًا لحمل الرسالة إليه، فلقد كانت تقول له بهذا الأسـلوب إنها إنسـانة أخرى مغايرة تمامًا لتلك التي كان يعرفهـا... في ركـن من المـكان، كان ثمة مائدة صغيرة تناثـرت فوقها أطباق المشـهيات التي كانت تنم عن معرفة كاملة لما تحتاجه الطبقة الأرسـتقراطية، وكان من بينها طبق اشـتهر به إقليم «السـار» الألماني، والذي ينتمي إليه «هر فولر» أو «هرهينرتش».

بالنسبة لفريدريك، كانت المفاجأة سارة بكل المعاني، ولابد أنه فسر الأمر عـلى غير مـا أرادت «إيلين»، لقد فسره –وكانت هي بالقطع قد وضعت هذا في الاعتبار– على أنه نوع من الترحيب الخاص به!

كانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي دخل فيها «فريدريك» إلي بيت «إيلين إيستهان» أو «تانيا راديونسكا»... ولقد نظر إليها ذلك الرجل الألماني الصارم نظرة كانت تحمل، إلى جانب الإعجاب الصارخ، ضعفًا ووهنًا لم يغيبا عن فطنة تلك الفتاة التي كانت تبتسم له ابتسامة من الصعب على من كان في مثل حالته أن يقاومها!

ما إن استقر «فريدريك» في مقعده، حتى قال وكأنه يزيح من فوق كتفيه عبئًا ثقيلًا:

-«إيلين»... لا بد لي من أعترف لك بشيء يثقل صدري.

فنهضت كي تعد له كأسًا وهي تقول وكأن الأمر لا يعنيها:

-قبل أن تعترف بأي شيء، عليك أن تخبرني بما استقر عليه رأيك!

-بخصوص!

عادت إليه حاملة كأسه وهي تقول ساخرة:

-لعلك لم تنس حوارنا على شاطئ النهر!

-استمعي إليَّ جيدًا أيتها الفتاة... إن الـ.........

كان يتناول الكأس من يدها وهي تقاطعه في صراحة:

-عليك أنت أن تستمع هر فولر!

كانت «إيلين» الآن تخلع القناع، وكانت موقنة من أنها سوف تخوض معركة مخيفة، معركة يتوقف على نتيجتها حياتها أو حياته! راحت ترمقه في إمعان وكان وجهها الآن شاحبًا شحوبًا عظيمًا... مضت لحظات صمت قال بعدها:

-من أين لك بهذا الاسم؟!

تصنعت الدهشــة وهي تراه يبذل جهدًا خارقًا كي يســيطر على أعصابه، جلست قبالته وهي تتساءل:

-أي اسم تقصد؟!

-لا داعي للمراوغة «إيلين»!

-آه... تقصد هانز فولر؟!

احتدم بالغضب، قفز من مكانه ناهضًا وهو يدمدم:

-لقد أخبرتك هذه الملعونة بالحقيقة!

-ملعونة؟!

هكذا تساءلت فاستدار نحوها وكان الخوف يعصف به، قال:

-نعم... «جروترود»... هي الوحيدة في هذا العالم التي تعرف الحقيقة!

-لا داعي للخوف ، كما أنه لا داعي لتوجيه التهم جزافًا!

تقدم منها محتدمًا بغضب هائل:

-هي الوحيدة... قلت لك هي الوحيدة التي تعرف الحقيقة.

-ربـما... لكنهـا لا تعرف أنك أصبحــت أبًا لطفل يحمل اســم «ردولف هينرتش».

كمــن أصابتــه صاعقة كان فاغــر الفم، كان مرتعــدًا في غير خفاء مرتجف الأوصال راح يحملق فيها غير مصدق، حاول أن يقول شيئًا لكنه لم يستطع... أخيرًا وجد صوته فجاءها كالفحيح:

-كيف لكِ أن تعرفي كل هذا؟!

أشعلت «إيلين» سيجارة، ورشفت من كأسها رشفة، نظرت نحوه بعينين كالزجاج، في هدوء وبرود جاءه صوتها كسكين يقطع لحمه، قالت: إن كنت تظن أن «هرفولر» الأب قد أحرق كل المستندات التي تشير إلى انضمامك إلى الشبيبة النازية، فثق يا عزيزي أنك واهم!

بدا «هانز فولر» الذي اتخذ لنفسه اسم «فريدريك هينرتش»، كمن يترنح تحت ضربات قاصمة... اكتشف هذا الرجل المتعجرف أن حياته لم يعد فيها سرٌّ، وأنه أصبح عاريًا تمامًا أمام تلك الفتاة التي كان قلبه لايزال يخفق بإعجاب شديد نحوها... عاد إلى الجلوس مرة أخرى، أخذ يحملق فيها وهي ترشف من كأسها في تلذذ المنتصر، تساءل:

-من أنتِ بالله عليك؟!

نهضت من مكانها متجهة نحو المائدة المعدة وهي تقول:

-ليس في الأمر سرٌّ، أنا «إيلين إيستمان»!

-وماذا تريدين؟!

-أن نتبادل ما يثري حياة كل منا!

-وما معنى هذا؟!

-معناه أن تعمل على إلحاق «فرناندو كورتيز» بالعمل في المصنع.

-هل هذا هو كل شيء؟!

-ومعناه أيضًا أننا سوف نتكفل بكل نفقات طفلك وتعليمه حتى يشب ويصبح رجلًا!

-في مقابل؟!

-أن تتعـاون معنـا، وتمدنا بكل الحقائق عن مشروع هذا السـلاح السري الذي تعمل في إنتاجه!

-أمركم... ومن أنتم!

-كي. جي. بي. المخابرات السوفيتية!

وسقط الكأس من يد «هانز فولر»... وتحطم بين قدميه!

17 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ الاغـتـيـــال..

لـو لا ذلك التقرير الذي اطلع عليه رجل المخابرات السـوفيتي الذي لجأ إلى الغـرب فيـما بعد، والـذي كتبته «إيلين راديونسـكا»، لما اسـتطاع أحد أن يعرف شـيئًا عن تلك اللحظات التي تلت سـقوط الكأس من يد «فريدريك هينرتش» أو «هانز فولر»... فعندما سقط الكأس من يد الرجل كان يرتجف ارتجافًا عنيفًا، وكان جسـده -لفرط انفعاله- يرتـج أمام الفتاة في غير مقدرة منه للسـيطرة على نفسـه... فما كان من تانيا راديونسكا» أو «إيلين إيستمان»، إلا أن نهضـت من مكانها في هدوء كـي تأتي بجاروف صغير ملون، وراحت تجمـع فيه بقايا الكأس المحطمة وكأن ما حـدث شيء طبيعي لا غرابة فيه... ثـم وكأية ربة بيـت حريصة على نظافة بيتها، أخـذت تجفف المشروب المراق بين قدميه... أما هو فكان يتتبعها في حركتها تلك الهادئة بعينين جاحظتين... كانـت الآن راكعة بين سـاقيه، انحنت فتهدل شـعرها الذهبـي وصنع حول رأسـها إطارًا أخـاذًا... لم يسـتطع «فريدريـك» المقاومة، ما لبث أن أمسـك بكتفيها في عنف فراح جسـدها يرتج بين يديه، شـدد الضغط على كتفيها فلم تتذمر ولم تتأوه، بل لم يبدُ عليها أنها تشعر بأي قدر من الألم... سددت نحوه

عينيها الزرقاوين، فازدادت ضربات قلبه، وازداد انفعاله وارتجافه... مضت لحظـات سـاد فيها الصمـت تمامًا، ما لبـث «فريدريك» أن تسـاءل في فحيح المهزوم:

-من أنت بالله عليك؟!

-إيلين إيستمان!

جاءه الرد باردًا كالسـيف القاطع، جـاء هادئًا مثل صفعة مكتومة... دفع بها بعيدًا فسـقطت فوق الأرض، نهـض من مكانه إلى حيث المائدة الصغيرة، أعد لنفسـه كأسًـا مـن شراب قوي طوح به في جوفـه وكان واضحًا أنه يبذل جهدًا عظيمًا للسيطرة على انفعالاته... استدار نحوها فإذا هي تكمل تجفيف الأرض في هدوء... في صوت متوسل هتف:

-«إيلين»!

التفتت نحوه، رمته بنظرة تسيل رقة، تقدم منها خطوة وهو يتساءل:

-هل أنت جادة فيما قلت أم أنه نوع من الهذيان؟!

نهضت وهي تتمتم في استعلاء:

-لن نصل إلى نتيجة ما دمت منفعلًا إلى هذا الحد.

-لابد أنك مجنونة!

قالت وهي تحمل الفوطة الورقية المبللة بالشراب إلى الداخل:

-لم لا نناقش الأمر في هدوء؟!

هم بالحديث لكنها استدارت نحوه مردفة:

-عليك أن تختار، فلن يجبرك أحد على شيء!

قبل أن ينطق حرفًا آخر، كانت قد اختفت!

كانت «إيلين» الآن تضرب على وتر هي موقنة من تأثيره عليه، وكان الاستعلاء والتعالي الذي تتحدث به إليه، يكاد أن يصيبه بالجنون، كانت موقنة أشد ما يكون اليقين من ذلك الإحساس الدفين لدى النازيين بأنهم من جنس أرقى من الآخرين، وكان هذا التعالي الذي تعمدته كفيلًا بأن يحطمه... وهكذا تركت له الفرصة كي يسترد نفسه ويهدأ قليلًا... وبالفعل، وجدت «فريدريك» عندما عادت من الداخل وقد هدأ بعد أن ألقى في جوفه بكأس أخرى، قالت وكأنها تسترضي طفلًا في العاشرة:

-والآن... هل نستطيع أن نتفاهم؟!

الغريب في الأمر أن الرجل انصاع لاقتراحها... كان في تلك اللحظات يشعر بأنه محاصر من كل جانب، فعلاقته بالشبيبة النازية أصبحت تهدد حياته ومستقبله، وحتى لو لم يتبين عليه شيء، فهو خير من يعرف ما الذي يمكن أن يفعل به ومعه هؤلاء اليهود المندسون في كل فروع الحياة، لا في كندا وحدها، بل في الولايات المتحدة وأوروبا... كما أن علاقته بـ «لويز ماك كورميك»، وذلك الطفل الذي أنجبه منها، كانت كفيلة بأن تحطمه اجتماعيًا... ولم يكن أمامه سوى الخضوع... عاد إلى مقعده فجلست قبالته... كانت رغم ضآلة جسدها تبدو شامخة قوية راسخة... غير أنه قبل أن ينطق حرفًا دق جرس التليفون، فانتظر منها أن ترد لكنها لم تفعل ولم تغادر مكانها، وأومأ نحو التليفون متسائلًا:

-ألا تجيبين؟!

هزت كتفيها في لا مبالاة وهي تقول:

هناك ما هو أهم!

... ...

... ...

كانت «جروترود» هي التي تطلب «إيلين» في تلك الساعة، ظلت السماعة في يدها لفترة، ولما لم تجد جوابًا أعادتها إلى مكانها... ولقد قالت «جروترود» فيما بعد دامعة العينين إنها تذكر تفاصيل تلك الليلة بدقة... فما إن غادر زوجها البيت حتى اعتراها قلق غامض، قلق غريب أخذ يتصاعد ويشتد حتى استولى عليها تمامًا... تذكرت أن «فريدريك» لم يذكر لها مكان ذلك العشاء المهم الذي دعي إليه، وقعت في الحيرة، انقضت ساعة وأخرى دون أن يفارقها ذلك القلق الغريب، جلست أمام التليفزيون، حاولت الاستغراق فيما كان يعرضه، غيرت القنوات وانتقلت من قناة إلى أخرى لكنها اكتشفت أنها لم تكن تشاهد شيئًا... أغلقت التليفزيون. وعندما همت بالنهوض فوجئت «بمارجريت فريش» تقف فوق رأسها... انتفضت، تراجعت، فابتسمت «مارجريت» قائلة:

-هل هناك ما يشغل بالك إلى هذا الحد يا سيدتي؟!

هزت «جروترود» رأسها إيجابًا وهي تتمتم:

-يعتريني قلق غريب «مارجريت»!

-ما رأيك في كأس من اللبن الساخن؟!

قالـت «جروتـرود»، إن تلك السـيدة كانت حنونة كالأم، فما إن سـألتها ذلك السؤال حتى وافقت... لكنها كانت في حاجة إلى من تتحدث إليه، من تبثه قلقها، ولم يكن هناك سوى «إيلين إيستمان».

ولكـن «إيلـين» لم تكـن في البيـت فقد ظل جـرس التليفون يـدق لدقيقة وبعض الدقيقة دون أن تجيب.

هكـذا قالـت «جروتـرود»، ولذلـك... عندمـا جاءتهـا «مارجريـت» بكـوب من اللبن السـاخن، طلبت منها الجلوس إليهـا. وراحت تثرثر في لا شيء، وكانت هذه تسـتمع إلى ثرثرتها وهي تبتسـم في حنـان... ما إن انتهت «جروترود» من الحديث، حتى كانت قد أتت على كوب اللبن الساخن.

-الغريب أني بعد أن تحدثت إلى «مسز فريش» داخلني الهدوء، وراودتني رغبة شديدة في النوم... وكانت الساعة تشرف على التاسعة مساءً!

-وهل أويت إلى الفراش في ذلك الوقت؟!

-واستغرقت في النوم!

... ...

... ...

قالت «مارجريت فريش» للمحقق!

-بكل تأكيد اسـتغرقت في النوم، لأني وضعت لها في كأس اللبن حبة من مهدئ قوي!

-ولماذا؟!

أجابت في هدوء وكأنها تتحدث عن نزهة!

-لأني كنـت مدركة أن الليلة تحمل الكثـير في حناياها، ولذلك أردت أن يتم كل شيء في هدوء ودون مفاجآت!

كان الحوار بين «فريدريك» و«إيلين» يحتدم لحظة بعد أخرى، هتف بها:

-لسـت أدري كيـف تتورط فتاة ناجحة وذكية مثلـك في مثل هذا العمل المشين؟!

-إنك ترى الأمور من جانب واحد!

-«إيلين»، استمعي إلي جيدًا!

-إني أستمع بانتباه شديد!

-لا بـد لي مـن الاعتراف بأني معجب بك أشـد الإعجـاب، بل إن الأمر تعـدى الإعجـاب منـذ كنا معًا في تلـك الرحلة التـي قمنا بهـا في إجازة عيد الفصح!

-أيها الرجل... عليك أن تنتبه إلى أنك لسـت من جنس أرقى كما لقنوك وأنت صغير!

-لا تجنحي بالحديث إلى رافد آخر.

-فلماذا تشعر أنك تحن على الآخرين بحبك وإعجابك!

-ليس هذا حقيقيًّا!

-لـو أنـك نظـرت إلى الوجه الآخـر للقضيـة، لأدركت أنك تشـارك في جريمة ضد البشرية كلها!

-لقد أتلف الشيوعيون عقلك!

كان الرجل يظن، حتى تلك اللحظة، أنها بالفعل بريطانية، ولم يخطر بباله أنه يجلس إلى فتاة روسية تعلمت في واحدة من أخطر مدارس الجاسوسية... ولقد كانت «إيلين» تدرك هذا بطبيعة الحال، فهتفت به وكأنها تدافع عن مذهب سياسي:

-إن السلاح الذي تعمل الآن في إنتاجه، سوف يعطي البعض فرصة لتدمير الآخرين!

-أمن أجل هذا تتعاونين مع السوفيت؟!

-من أجل هذا أريدهم أن يعرفوا سر هذا السلاح، لأن وجوده في أيديهم سوف يمنع الأمريكيين من السيطرة على هذا الكوكب التعس!

-ولكن السوفيت يعملون على ابتكار أسلحة أشد فتكًا.

-وهناك منهم من يعمل لحساب الأمريكيين.

-أنتِ بالتأكيد مجنونة!

-ربما... ولكن عليك أن تعترف أنك مكابر!

-ليس في الأمر مكابرة... لكنني لا أستطيع أن أخون الوطن الذي آواني!

-ولكنك في شبابك كنت تقف في المعسكر المضاد، وكنت تعمل على تدمير هذا الوطن!

قبل أن يرد أردفت:

-تمامًا، مثلما فعل أبوك!

كان «فريدريك هينرتش» الآن قد تمالك نفسه، كما أنه استعاد رباطة جأشه بعد أن زال، مع الحوار، تأثير الصدمة التي تلقاها منها... نظر في ساعة يده وكانت تشير إلى العاشرة، ابتسم، وكانت ابتسامته حزينة، قال:

-لقد أتيت إليك أحمل في قلبي مشاعر حميمة!

-والآن!

نهض واقفًا كمن استقر رأيه أخيرًا وهو يقول:

-إني أعلم تمامًا أنك تستطيعين تدميري بما لديك من معلومات، ولا بد من الاعتراف أن كل ما ذكرتِه صحيح تمامًا... ولكن، وبالرغم من كل شيء، أنا لا أستطيع أن أجاريك فيما أنت فيه.

نهضت مواجهة إياه وهي تقول في صوت متكسر كان يحمل شحنة أنثوية صارخة:

-ألا تعطي نفسك فرصة للتفكير؟!

لزم «فريدريك» الصمت لثوان، كان واضحًا أنه يقاوم إغراءً كاسحًا، لكنه لم يلبث أن قال:

-ولسوف أعطيك أنت أيضًا نفس الفرصة!

-فكر في مستقبلك.

في مرارة وتصميم قال:

-لقد أصبح مستقبلي وراء ظهري!

-فكر في ولدك!

-إذن فهو تهديد؟!

-سمه ما شئت!

قالـت هـذا فلزم الصمـت... سـار حتى البـاب، كانت تقـف في مكانها كتمثـال للحسـن لا يبارى، قبل أن يغادر البيـت ألقى عليها نظرة، ثم قال في حسرة:

-ليس أمامي سوى طريق واحد.

ثم انصرف!!

■ ■ ■

أحسـت «إيلين إيستمان» أن الغضب يجتاحها اجتياحًـا، ازداد يقينها من غباء الرؤساء في موسكو، فلو أنهم أخذوا بوجهة نظرها لما وجدت نفسها في مثـل هـذا المأزق... ذلك أن الأمر لم يكن في حاجـة إلى تردد أو تفكير، كانت جملـة «فريدريـك» الأخـيرة واضحة المعنـى والدلالـة معًا، وكان اسـترداده لرباطة جأشة دليلًا على عناده وتصميمه، وقبل أن يأتيها أي تقرير من المطبخ عن تحركات الرجل الذي غادرها منذ دقائق، رفعت سماعة التليفون وطلبت بيت «فريدريك».

كانت «جروترود» مستغرقة في النوم في ذلك الوقت، ولم يكن «فريدريك» قد وصل إلى البيت بطبيعة الحال... دق جرس التليفون دقتين ثم توقف، ثم دقة واحدة وكـف، فأدركت مارجريت فريش، وكانت مسـتيقظة، أن الأمر قد صدر، وأن عليها أن تغتال الرجل!

غـير أن «إيلين» كانت تعلم أن وراءهـا الكثير لكي تفعله... فماذا لو كان «فريدريـك» قـد غادرها كي يبلغ عنها في نفس الليلـة... ولأنها لم تكن تترك شـيئًا للمصادفات، فلقد أسرعت إلى دولاب ملابسـها، ومن درج سري في الدولاب أخرجت بضعة أشـياء على عجل، كان من بينها جواز سـفر باسـم آخـر، كما كانت هنـاك باروكة شـعر سـوداء، ثـم صندوق صغـير لأدوات المكيـاچ... جلسـت أمـام المـرآة وكانـت الآن في انتظـار مـا سـوف يأتي من المطبـخ... قبل أن تخط خطًّا واحدًا على وجههـا دق جرس التليفون، رفعت السماعة في لهفة، جاءها الصوت عبر الأسلاك ثابتًا:

-مس إيستمان؟!

-أنا هي؟!

لقد وصلت البضاعة إلى المخزن!

-شكرًا!

قالت هذا وهي تتنفس الصعداء، لقد وصل «فريدريك» إلى البيت.

■ ■ ■

قالـت «مارجريـت فريـش» إن الرجل عندمـا عاد من الخـارج كان يبدو مستغرقًا في التفكير مهمومًا... سألها عن زوجته فقالت له إنها شعرت برغبة في النـوم فأوت إلى الفراش منذ سـاعة وبعض السـاعة... أبدى دهشـته من استيقاظها حتى تلك الساعة فقالت:

-خشيت أن تحتاج لشيء يا سيدي!

ابتسـم «فريدريـك» في امتنـان، ثم مـا لبث أن قـال وهو يتجـه إلى غرفة مكتبه:

-أكون شاكرًا لو أنكِ أعددت لي كأسًا!

وكان هذا بالتحديد ما تنتظره «مارجريت فريش»... راحت تعد الكأس بينما خلع هو معطفه ودلف إلى غرفة المكتب... كانت تعرف بالضبط ما يجب أن تفعلـه، جهـزت الكأس، أخرجت زجاجة السـم، وأسـقطت في الكأس ثلاث نقط.

عندما دلفت إلى الغرفة كان الرجل يجلس إلى المكتب كي يسـتعد للعمل، وضعت الكأس أمامه ثم سألته:

-هل من خدمة أخرى يا سيدي؟!

لم يرفع رأسه نحوها، بل قال وهو يعد بعض الأوراق:

-لا شيء «مارجريت»، أشكرك وتصبحين على خير!

غادرت «مارجريت» الغرفة لكنها لم تأو إلى فراشـها... بل ظلت جالسـة في انتظار سـماع حركة أو نداء... مضت الدقائق... دون أن تسـمع شـيئًا... بعـد عشرين دقيقـة خرجت من غرفتها متسـائلة، عبرت البهـو على أطراف أصابعهـا إلى حيث كان بـاب غرفة المكتب نصف مغلـق، عندما ألقت نظرة على الداخل، كان «هرهينرتش» منكفئًا على مكتبه جثة هامدة!

18 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ فاتح شهية لمزيد من القتل!

قال كل الذين سئلوا كيف كانت «إيلين إيستهان» في ذلك الصباح الذي اكتشف فيه اغتيال «فريدريك هينرتش»، إنها ظلت هادئة تمامًا. متهالكة لأعصابها، لبت نداء صديقتها «مسز هينرتش» التي كانت في حالة يرثى لها... ذلك أن «جروترود»، ما إن اكتشفت وفاة زوجها المفاجئة لم تجد أمامها سوى اللجوء لـ «إيلين» التي لبت النداء بسرعة، بل كان اللافت للنظر أن «إيلين» كانت وراء ذلك التصميم الذي أبدته «جروترود» على تشريح جثة زوجها لمعرفة سبب الوفاة، رغم أن الطبيب الذي استُدعي على عجل، أكد أن الوفاة جاءت نتيجة هبوط مفاجئ في الدورة الدموية... وجاءت نتيجة التشريح لتؤكد ما ذهب إليه الطبيب، وفيما بعد... فلقد أكدت «فراو هينرتش» أنه لولا وجود «إيلين» وسرعة تصرفها لما استطاعت أن تفعل شيئًا!

ولقد علق المحققون على تصميم «إيلين» على تشريح جثة الرجل الذي أمرت بقتله، بأن هذه الفتاة الغريبة، ذات الأعصاب الفولاذية، إنما أرادت بتصميمها هذا، أن تتأكد من أن السم الذي أمدها به «فرناندو كورتيز»، لا

يترك أثرًا بالفعل في جثة المتوفى، وأن هذا دليل لا سبيل إلى التغاضي عنه، على أن هـذه الجاسوسـة كانت تملك كل مقومات الجاسـوس القوى الأعصاب، والقادر تمامًا على مواجهة أية عقبات مهما كانت خطورتها!

وعندمـا قصـت «مارجريت فريـش»، بعد أن اعترفت بـكل شيء، قصة تلـك الليلـة، قالت إنها عندما رأت «مسـتر هينرتش» منكفئًـا فوق مكتبه، لم تشأ أن تدخل الغرفة أو تفعل شيئًا قبل أن تتأكد من أن «جروترود» مستغرقة في النوم فعلًا... وعندما تأكدت من هذا، عادت إلى غرفة الكتب كي تقوم بما كان يجب عليها أن تقوم به!!

بدايـة -هكذا قالت «مسـز فريـش»- فلقد تأكدت بعد أن جسـت نبض الرجـل، أنه بالفعل قد فارق الحياة... فلم تقترب منه، بل رفعت الكأس من أمامه، وأفرغت ما كان فيها من شراب، ثم غسلتها وجففتها جيدًا، وأعادتها إلى مكانهـا، ثـم التقطت كأسًـا أخـرى أحاطتهـا بفوطة صغـيرة، ووضعت فيها قليلًا من الشراب مما يومئ بأنه اسـتعمله، ثم مسـحت بصماتها من فوق الزجاجة وحملتها كي تضع عليها بصمات القتيل، وكذلك فعلت بالكأس... وقبل أن تنـصرف، لفت نظرها تلك الأوراق الموضوعة فوق المكتب، وكان ثمـة بضعة أسـطر لا تزيد عـلى العـشرة، كان «فريدريك» قـد خطها... وفي حرص شـديد سحبت الورقة مع ورقتين أخريين تحتها وطوت الأوراق كي تسلمها لـ «إيلين» في اليوم التالي... ثم، وعندما اطمأنت إلى أن كل شيء على ما يرام، غادرت الغرفة، وأوت إلى فراشها، واستغرقت في النوم!

كانت رواية «مسز فريش» غريبة إلى الحد الذي دفع المحقق إلى سؤالها:

-هل قرأت ما كان مكتوبًا فوق تلك الورقة؟!

- لم أكن في حاجة إلى هذا!

-ألم يدفعك الفضول إلى قراءة ولو سطرًا واحدًا؟

-نعم حدث هذا... فلقد وجدت الخطاب موجهًا إلى «مستر ج. ويمبلي»!

-هل هذا هو كل شيء؟!

-هذا هو كل شيء؟!

-هل تعرفين من هو «مستر ويمبلي» هذا؟!

-ومن أين لي أن أعرف؟!

-وماذا فعلت بالأوراق؟

-لقد قلت إنني سلمتها لـ «مس إيستمان»!

-متى؟!

قالت «مارجريت فريش» وهي تشعل سيجارة:

-في الصباح التالي عندما استدعتها مسز هينرتش!

-هكذا؟!

رفعت حاجبيها دهشة وهي تقول:

-لم يكن هناك أحد في البيت، فلقد وصلت «مس إيستمان» قبل وصول الطبيب، وكانت «جروترود» تجلس إلى جوار جثة زوجها باكية، وعندما فتحت الباب لـ «إيلين» كان لابد أن أتخلص من تلك الأوراق فلم أكن

أدري ما الذي سـوف يحدث بعد ذلك، فقدمتهـا لها كي تأخذها وتضعها في حقيبة يدها دون كلمة!

لم تكـن «مارجريـت فريـش» تعلم أن «مسـتر ويمبلي» هذا الـذي قرأت اسـمه، كان مديرًا لإدارة الأمن في مصنع الكيماويات الذي كان «فريدريك» يعمل به... وبالقطع، فلقد اسـتنتج المحققون أن الرجل كان جادًّا في تهديده لـ «إيلـين»، وأنـه ما إن عـاد إلى البيت، حتى شرع في كتابـة تقرير عما دار بينه وبين «إيلين» من حوار!

ومـن المؤكـد أن هذه الأوراق كانت دليلًا جديدًا لـ «إيلين» بأن حاسـتها تلك الغامضة، دائمًا كانت تقودها إلى الطريق الصحيح، فلو أنها تأخرت ليلة واحدة عن اتخاذ القرار بقتل «فريدريك»، لحدث ما لا تحمد عقباه!

أمـا «جروتـرود هينرتش»، فلقد قالت إنها اسـتيقظت في حوالي السـاعة السادسة صباحًا، وهذا هو الموعد الذي تعودت أن تستيقظ فيه عادة، كي تعد الإفطار وفنجان القهوة لزوجها قبل أن يستيقظ... ولقد دهشت هذه السيدة عندما لم تجد زوجها إلى جوارها مما دفعها إلى مغادرة الفراش بسرعة... وكان اللافـت لنظرهـا أنها وجدت البهو مضاءً، كـما أن غرفة المكتب هي الأخرى كانت مضاءة والباب مفتوحًا... هرولت قاطعة البهو وكانت تظن أن زوجها ظـل يعمل طوال الليل، غير أنها رأته منكفئًا فوق المكتب، فظنت أنه نائم... ما إن اقتربت منه، وربتت على كتفه منادية إياه، حتى مال جسده وسقط فوق الأرض... وهنـا، أطلقـت صرخة أيقظت «مارجريـت فريش» التي جاءت مهرولة كي تجد جروترود راكعة إلى جوار زوجها وهي تناديه في جزع.

وأضافت «جروترود» أن «مسز فريش» كانت ترتدي قميص نوم من نوع رخيص، وكان النوم لايزال يداعب عينيها، وأنها ساعدتها في حمل «فريدريك» إلى الأريكة حيث أوسدتاه هناك... مالت «مارجريت» بعد هذا كي تضع أذنها فوق صدر الرجل، لكنها ما لبثت أن رفعت رأسها قائلة لـ «جروترود»، إن عليها أن تتمالك نفسها، فلقد فارق زوجها الحياة!

... ...

... ...

بعد يومين من دفن «فريدريك هينرتش»، أو «هانز فولر»، في احتفال عائلي بسيط، حضره عدد من زملائه في المصنع، كما حضرته «إيلين إيستمان» -التي لازمت جروترود طوال الوقت- في ملابس الحداد، وكان في صحبتها «فرناندو كورتيز»... ولم يكن غريبًا بعد أن أصرت «جروترود» بإيحاء من «إيلين» على تشريح الجثة، أن وصل إلى البيت في نفس يوم الوفاة، عدد من رجال التحقيق الجنائي بصحبة «مستر ويمبلي» مدير الأمن في المصنع، لرفع البصمات وتحليل ما تبقى في الكأس من شراب... غير أن النتائج جاءت كلها سلبية، وكانت النتيجة التي توصل إليها الطب مع رجال التحقيق الجنائي... أن السيد «فريدريك هينرتش» تُوفي نتيجة إرهاق شديد في العمل... وهكذا أغلق الملف تمامًا!!

كانت «إيلين» في الأيام التي تلت الوفاة هادئة تمامًا، ولقد ظلت «مسز فريش» تعمل في خدمة «جروترود» لبضعة أسابيع تالية، حتى اعتذرت لها «جروترود» قائلة إنها لا تستطيع أن تدفع لها أجرها، وهكذا انسحبت تلك القاتلة في هدوء من حياة تلك السيدة... وبينما كانت «إيلين» تمارس حياتها

بشـكل طبيعي، كانـت تتصل بين الحين والحـين بصديقتهـا الأرملة لتطمئن عليها أو لتدعوها على كأس أو عشاء خفيف في مقصف قريب!

انقضـت الأيام بعد ذلك حتـى اتصل بها الروسي الأبيض وزوجته آنّا... وكانا قد علما من إحدى عاملات المحل بوفاة زوج صديقتها، فأرادا أن يُرَفِّهَا عنهـا لإخراجها مـن الجو الحزين الـذي أحاطتها به تلك الوفـاة المفاجئة... ولذلـك، فلقـد انتهـزا فرصـة إقامة عشـاء خـاص لمجموعة مـن الأصدقاء المقربين في بيتهما، فوجها الدعوة إلى «إيلين» التي أبدت ترددًا دفع «فاسيليف إيفانوف» إلى القول:

-إنه عشاء من نوع خاص، فكل المدعوين، ما عداك. من الروس!

-أشكركما على هذه الدعوة ولكن... ...

قاطعتها «آنّا إيفانوفنا»:

-لا ترددي «إيلين»، فهي فرصة لا تعوض!

-فرصة؟!

هكذا تساءلت «إيلين» فأجاب «فاسيلي»:

-إذا أردت أن تقومي بسياحة إلى الماضي فاقبلي الدعوة!

ابتسمت «إيلين» مبدية عدم فهمها لما قال، فلاحقتها «آنّا» قائلة:

-إن أردت أن تعيشي في روسـيا، لا في الاتحاد السوفيتي، فإن هذه فرصة لا تعوض... إن الجميع من الروس البيض، ومنهم اثنان يعيشان في الولايات المتحدة!

وبطبيعة الحال، كان هذا صيدًا ثمينًا من الصعب أن تتغاضى عنه «إيلين»، ولذلـك، فلقد تمتمت قائلة إنها مرتبطة بشـاب وإنهـا على موعد معه في نفس المساء، فما كان من آنّا إيفانوفنا إلا أن هتفت:

-إنه يسعدنا أن نستقبل صديقك «مس إيلين»!

وهكـذا وجهت الدعـوة إلى «فرنانـدو كورتيز»، الذي مـا إن اتصلت به «إيلين»، حتى زف إليها خبرًا غريبًا، قال:

-إنك لن تصدقي ما حدث!

-ماذا حدث فيرني؟!

قفز به اسم التدليل هذا إلى آفاق سعادة بلا نهاية... قال:

-وصلت دعوة من مصنع الكيماويات لمقابلة أحد المسئولين هناك!

لم يكن الأمر مفاجأة لـ «إيلين»، فاسـتقبلت الأمـر ببرود... كانت موقنة أن «فريدريـك هينرتـش» لم يكـن ليضيـع الفرصـة من بـين يديـه، وإذا كان «فرنانـدو» يملك تلـك المواهب التي حدثها عنهـا، وإذا كان الراحل العزيز كان يـود التقرب منها بأي ثمـن... فلم يكن من الطبيعي أن يهمل أمر تعيينه في المصنع!

في تلـك الليلـة، كان «فرنانـدو كورتيز» أو «إيمانويل سـييرا» في حالة من السـعادة حلقت به فوق السـحاب، أضافت الدعوة التـي تلقاها في المصنع، مع لقائه «إيلين» سـعادة فوق سعادة... كانت أيام طويلة قد انقضت منذ أن التقى بها مع عشاء، وكان حبه لها يشتعل يومًا بعد يوم... ولقد قال للمحققين واصفًا حالته في تلك الليلة:

-... ... الغريب في الأمر يا سيدي، أن «إيلين» كانت تتعامل معي في خط أفقي لا ذبذبة فيه على الإطلاق، فهو أسلوب لا يرتفع ولا ينخفض، دقيق كل الدقة في مراحله المختلفة... وكان هذا مثيرًا إلى حد الجنون!

-وكيف كان هذا؟!

-إنها أبدًا لم تشعرني في يوم من الأيام بأني عير محبوب أو أن عاطفتها نحوي قد فترت، بل على العكس، كانت هناك لحظات كانت تشعرني فيها بأني قد أصبحت كل شيء في حياتها!

-وماذا في ذلك؟!

-وكانت تلك اللحظات تختفي مع انتهائها كي يحل محلها ذلك البرود الإنجليزي القاتل!

-إذن فلقد كان هناك صعود وهبوط!

-إطلاقًا، كان برودها هذا دافعًا لي كي أبدأ البحث عن تلك اللحظات من جديد!

-ثـــم...؟!

-ثم تأتي تلك اللحظات كي تختفي ثم أبحث... وهكذا!

تململ المحقق في جلسته وهو يسأل:

-ومتى تم استدعاؤك إلى مصنع الكيماويات؟!

-قبل ذلك العشاء في بيت «فاسيليف إيفانوف» بيوم واحد!

-ومن الذي استقبلك؟!

-رجـل يدعى «هنري بلاك»، وكان واحدًا من المدعوين في بيت «مسـتر هينرتش» ليلة أن تناولت العشاء في بيته بصحبة «إيلين».

-وكيف كان اللقاء؟

-هو شيء محير يا سـيدي، لقد وجدت أمـام الرجل ملفًّا به كل شيء عن حيـاتي في المكسـيك، كل شيء عن عمي الذي يعيـش هناك، ورغم هذا، فإن المستر «بلاك» قال لي إنني مستوفٍ لكل الشروط، وأن المصنع في حاجة ماسة إليَّ... خاصـة بعد رحيل «مسـتر هينرتش» الـذي أوصى بتعييني قبل وفاته، لكن ثمة عقبة في الطريق كان الرجل يرجو أن يتخطاها!

-ألم يخبرك عن هذه العقبة!

-لا... لم يحدث، لكنه وعدني بالاتصال بي في خلال أسبوع.

-وهل اتصل بك؟!

اعتدل «فرناندو كورتيز» في جلسته قائلًا:

-إنني أعمل في المصنع منذ عامين تقريبًا يا سيدي.

-هل كنت تبوح لـ «إيلين» بأسرار عملك؟!

تردد «فرناندو» لبرهة، بدا عليه الخجل لكنه تمتم:

-ليس تمامًا!

هز الرجل رأسه قائلًا وهو يزفر:

لنعد إلى ذلك العشاء في بيت «فاسيليف إيفانوف»!

وبدأ «فرناندو» يحكي...

راح يتحـدث عن سـعادته، ويصف الجـو الذي فاجـأه و«إيلين» في بيت «فاسـيلي وأنّا»، وكان ذلك الشاب، خالي الذهن تمامًا مما حدث على حقيقته، لم يكن يعلم أن ذلك العشـاء قد تسـبب في قتل دبلوماسي شاب في الخارجية الكندية، واختطاف «فاسيليف إيفانوف» في صندوق طار به إلى موسكو!

19 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ أســـرار بـــلا ثــمـــــن!

قـال «فرنانـدو كورتيز» عن ذلك العشـاء الذي أقيم في بيت «فاسـيليف إيفانوف» وزوجته «أنّا»، إنه كان بالنسـبة إليه شـيئًا أسطوريًا، فلقد شعر منذ الوهلة الأولى لوصوله مع «إيلين»، أنه انتقل من كندا إلى روسيا القرن التاسع عـشر... كان كل مـا يحيط به يذكره بفيلم «الإخـوة كرامازوف» المأخوذ عن قصـة الروائي الروسي «ديستويفسـكي»... فلقـد كان أول ما لفت نظره، أن الجميع بلا استثناء، رجالًا ونساء، كانوا يرتدون الملابس الروسية التقليدية... الرجال يرتدون ذلك القميص الواسع، والسروال الذي ينتهي بحذاء مرتفع الرقبة حتى قرب الركبة، أما السـيدات فكن يرتدين تلك الملابس المزركشـة ذات الألوان الزاهية... ولما كان الوقت في منتصف الربيع، فلقد أقيم العشاء في الحديقة الخلفية للبيت، حيث تصاعدت رائحة الشواء، بينما راح «فاسيلي» وأحـد الضيوف يشرفان عـلى شي اللحم... وفي ركن مـن الحديقة، كان ثمة مائدة عامرة بأطايب الطعام وفاتحات الشهية خاصة الكافيار الروسي الشهير، وكان أحد الضيوف الذي يذكر «فرناندو» أن اسمه كان «أليكس» يعزف على القيثارة بينما الجميع يرقصون على أنغام العزف... وسرعان ما استغرقه ذلك

الحفل وما فيه من شـخصيات كانت تبدو له في بعض الأحيان وكأنها ليست بـشرًا وإنـما هي مؤلفـة في قصة أو رواية... أمـا «إيلين» فلقـد انتحت جانبًا، جلسـت في اسـترخاء على مقعد وثير وهي ترقب الجميع في صمت... ومن حولهـا كان المكان يضـج بالفتوة والصخب والأنوثـة والتحدي واندفاعات الشـباب... باختصار، كانت تلك ليلة مارس فيها الجميع حريتهم، وأنهم في غالب الأحيان كانوا ينسـون وجوده هـو و«إيلين» ويندفعون في الحديث مع بعضهم البعض باللغة الروسية... وعندما انتبه «فاسيلي» ذات لحظة إلى هذا. حاول الاعتذار لـ «إيلين» التي هزت كتفيها في لامبالاة قائلة:

- إن الجميـل في الأمـر، أن اللغـة الروسـية تضفي على المـكان مزيدًا من السحر!

ولقـد هلل الجميع وصفقوا لهـذا التعليق الرفيع من تلك الفتاة البريطانية الرصينة، والتى كانت تجلس وسـطهم جلستها تلك المعتادة، التى لا تشعرك بوجودهـا، أو حتـى بالحرج إذا ما تصرف أحد الحضـور تصرفًا غير لائق فى لحظة نشوة أو لحظة تهور!

وعندمـا سُـئل «فرناندو» عـن الحضور وعن وظائفهـم ومكانتهم، عجز عن الإجابة، غير أنه قال إن ثمة رجلًا فى حوالى الخامسـة والأربعين، رمادى الشعر، شديد بياض البشرة إلى حد الشحوب، كان يبدو بشكل خاص وكأنه أكبر الجميع مكانة، وأقلهم حديثًا.... وإذا ما تحدث إليه أحدهم شاب حديثه احترام واضح، وربما شيء من خوف!

غير أن «فرناندو» أثناء إدلائه بأقواله، توقف للحظة وكأن هناك شيئًا يريد أن يبـوح به... ولم يكن صعبًا على المحققين أن يدفعوه إلى الحديث، فلقد قال

بعـد قليل من التردد، إنه لاحظ أن «فاسـيلي» يكن إعجابًـا خاصًّا بـ «إيلين» وأنه كان يوليها من اهتمامه أكثر مما يولي الآخرين، مما دفع زوجته «آنّا» إلى أن تنتهز فرصة انفرادها به في طرف من الحديقة كي تنهره... ورغم أن الأمر بدا لـ «فرنانـدو» من بعيد وكأن «فاسـيلي» ينفي عن نفسـه الاتهام، فإن الغضب ظل مسيطرًا على «آنّا» لفترة... وعندما سأل المحقق عن رد فعل «إيلين» إزاء هذا، قال «فرناندو»:

أعتقـد أنهـا لم تنتبـه إلى هذا الموقـف... وحتى ولـو كانت قـد انتبهت أو سمعت الحوار، ما كان لها أن تفهم شجارًا بين زوجين باللغة الروسية!!

صمت الشاب للحظات ثم أضاف:

-كانت كعادتها في مثل تلك الحفلات، تبدو مثل ملكة تتربع على عرشها، تنظر إلى الجميع من عليائها، تسر لسرورهم، وتسعد لسعادتهم، لكنها أبدًا لا تشاركهم مرحهم!!!

... ...

... ...

لم يكن أحد من الحاضرين يعرف، أو حتى يخطر بباله، أن «إيلين إيستمان» إنـما كانت تعيش معهم لحظة بلحظة... وأنها كانـت تفهم ما يدور بينهم من حـوار كلمة كلمة، وأنها مثلهم روسـية حتى النخاع... وبطبيعة الحال، فلقد كان الرجال -وسط الصخب- يتحدثون عن أعمالهم بصراحة ودون حذر... ولقـد توصل المحققون -عـن طريق «آنّا إيفانوفنا»- إلى هؤلاء الأشـخاص الذيـن كان من بينهم دبلوماسي يعمـل في الخارجية الأمريكية، ولقد اعترف

هـذا الدبلومـاسي أنه تحـدث إلى أصدقائه عن أزمة كانت قد نشـبت في ذلك الوقـت بين حكومتـي الولايات المتحـدة وكندا، حول مـشروع حيوي كان مقدرًا له أن يقام في بحيرة أونتاريو في جنوب كندا، والتي تشترك الدولتان في مياهها وشواطئها... غير أن هذا الدبلوماسي أكد أن حديثه مع أصدقائه كان باللغة الروسـية، وأنه تعمد هذا حتى لا تفهم «إيلين» أو «فرناندو» شيئًا عن طبيعة ذلك المشروع الذي كان يعتبر سريًا إلى أقصى حد في ذلك الوقت!

كان هـذا خيطًـا جديدًا أوصـل الرجـال إلى جريمة قتل أخـرى اقترفتها «إيلين» بعد بضعة أسابيع من ذلك الحفل!!

غير أن المهم في الأمر أن «فاسـيلي»، وقد وصـل الحفل إلى ذروته، انتحى ذات لحظة بذلك الرجل الأشـيب الشـعر الأبيض البشرة إلى حد الشحوب، والذي لم نعرف عنه شـيئًا، وإن كان هناك شـك قوي في أن يكون واحدًا من رجـال المخابرات الأمريكية أو الكندية... ولقد تم هذا الحديث بالقرب من «إيلين» التي لم يبد عليها -وقد سمعت ما دار بينهما حرفًا بحرف- إنها كانت تفهـم كل كلمـة... بدا «فاسـيليف» وكأنه يقدم تقريـرًا للرجل عن المشروع الحيـوي الذي كان يشـارك فيه في مصنع الإلكترونيـات... كان واضحًا تمام الوضـوح أنه متحمس، وأنه سـعيد وهو يحكي عن ذلك الاكتشـاف الجديد الـذي توصل إليه مع زملائه العلماء... وقال فاسـيلي لصديقه الغامض ذاك، إنه يعتبر ثورة في أجهزة الرصد، ذلك أنه عبارة عن جهاز يسـتطيع أن يرصد تحـركات الجيـوش أو المعـدات على بعد مئـات الأميال... ولقـد كان هذا في ذلـك الوقـت حلمًا من أحلام رجـال الحرب والعلماء معًـا، والذي تحقق فيما بعد... والمرجح، بل المؤكد، أن «إيلين» اسـتوعبت الحديث الذي كان يدور

بين الرجلين باللغة الروسـية وأدركت أهميته، مما دفعها إلى إبلاغ الرؤسـاء في موسكو، صبيحة اليوم التالي، طالبة الرأي في كيفية الاتصال بـ «فاسيلي»!!

هكـذا قـال رجـل المخابرات السـوفيتي الذي لجـأ إلى الغـرب بعد ذلك بحـوالي عامين، كما أضاف هذا الرجـل، أن مقتل «فريدريك هينرتش»، كان بمثابة فاتح شـهية للقتل والخطف والعنف الذي مارسـته تلك الفتاة إلى حد دفع الرؤساء في موسكو إلى تحذيرها المرة بعد المرة دون جدوى.

كانـت تلـك المعلومات التـي تصل إليهم تلقـي عليهم أعبـاء ثقالًا بكل مـا تحمـل الكلمة مـن معنـى، كان لابد لهـم أن يعرفوا مـن الذيـن اغتالتهم «تانيا راديونسـكا»، أو «إيلين إيسـتمان»، بعد ذلك، والظـروف التي تم فيها الاغتيـال، ومـن الذي قام بالمهمـة وبأية وسـيلة و... و... ولقد كانت هناك عـشرات من علامات الاسـتفهام، ذلـك أن معرفة طبيعة هذه الجاسوسـة، وأسـلوب عملها، كان كفيلًا بأن يكشـف للرجال الذين سـعوا وراء قصتها الحقيقيـة، طبيعـة العمـل في جهـاز المخابرات السـوفيتي «كي. جـي. بي.»، والأسـاليب الجديدة التي أصبح يتبعها في السـنوات الأخـيرة، وطبيعة تلك الدروس التي يتلقاها الطلبة من الشباب في مدرسة الجاسوسية الشهيرة تلك والتي تعرف باسم «جاتزينا»!

وعلى كل، فإن المعلومات التي أدلت بها «آنّا إيفانوفنا» بعد اختفاء زوجها المريب بأكثر من عام، كشفت الكثير عن الجوانب التي كانت غامضة بالنسبة للرجـال، غير أنها أضافت، أنهـا كانت على دراية بذلك الإعجاب الذي كان زوجهـا يكنـه لـ «إيلين»... وهـي في البداية، لم تعط للأمـر أهمية تذكر، لأنها كانـت تـرى أن الرجل المتـزوج -خاصة إذا طال زواجه لسـنوات- كثيرًا ما

يعجب بهذه الفتاة أو تلك إعجابًا عابرًا يعود بعده إلى بيته وزوجته... لكنها في تلك الليلة، لاحظت أن «فاسيلي» قد كشف عن جانب لم يخطر لها على بال، فهي في لحظة، أحست بأنه ربما تطور ذلك الإعجاب إلى حب... فوق أنها رأت زوجها، قبل أن تنصرف «إيلين» بدقائق، وقد انفرد بها، وكان الحديث بينهما متصلًا لدقائق طالت بعض الشيء، وإلى حد لفت نظر إحدى الصديقات التي قالت لها مداعبة، إن عليها أن تنتبه إلى الفتاة الإنجليزية لأنها قد تخطف زوجها وتطير إلى بريطانيا!

هذا ما قالته «آنّا إيفانوفنا».

ولكن «فرناندو كورتيز» قال شيئًا آخر، وأصر على قوله هذا.

قال إن «إيلين» في تلك الليلة قد انصرفت مبكرة، وأنها لم تتحدث إلى أحد من الحاضرين على انفراد سواه، ذلك أنه لم يفارقها للحظة في تلك الليلة، ولأنه كان غريبًا مثلها، فلقد جلس إلى جوارها، وأحيانًا ما كانا يعلقان على شخص أو واقعة، وفي أحيان أخرى كانا يتبادلان كلمات الحب ... ثم أضاف «فرناندو»:

لقد اندمج الجميع مع الوقت في الحديث مع بعضهم البعض باللغة الروسية حتى لقد خُيِّل إلينا -إيلين وأنا- أنهم جميعًا قد نسوا وجودنا... وربما كان هذا سببًا من الأسباب التي دفعت «إيلين» إلى الانصراف مبكرة!

ووقع المحققون في الحيرة، كانت أقوال «آنا» تقود إلى طريق، وأقوال «فرناندو» تقود إلى طريق آخر.

■ ■ ■

كان المدهـش في الأمـر، أن كل الذين كانوا في ذلك الحفل -وقد خضعوا جميعًا بعد ذلك للتحقيق الدقيق- أكدوا أن «إيلين إيسـتمان» لم يبد عليها أنها تفقـه كلمـة فيما كان يقـال باللغة الروسـية... أكد الجميع هـذا وأصروا على أقوالهـم حتـى «آنـا إيفانوفنا» -وقـد كانت تحمـل نوعًا من الضيـق والغيرة مـن «إيلـين»- أكدت أنه من المسـتحيل أن تكـون «إيلين» على درايـة باللغة الروسـية، فلقـد كانت أحيانًـا تتحدث مع «فاسـيلي» بهذه اللغـة أمامها فلم يبـد عليها مـرة أنها تفهم منها حرفًا... وتأكيدًا لهـذا، قالت «آنا» إن الأمر قد وصـل بأحـد الضيوف في ذلـك الحفل، وهو يعمل أسـتاذًا لـلأدب الروسي في إحـدى جامعـات كندا، وكان قد احتسـى عددًا لا بأس بـه من الكئوس، وشـارك الرجـال في تلك الرقصـة الجماعية التـي رقصوها على أنغـام قيثارة «أليكـس»، كـما راقص زوجته على أنغام الموسـيقى الخفيفـة... جاءت لحظة على هذا الأستاذ الجامعي وقف فيها أمام «إيلين» وقد بهرته تصرفاتها، وراح يبدي إعجابًا شـديدًا بجمالها وأرسـتقراطيتها، ثم انتقـل -وقد كان يتحدث بالروسـية- إلى غزل واضح ضاربًا بتحذيـرات زوجته عرض الحائط، وكان مما قاله «سـيرجي» -هذا هو الاسـم الأول للأسـتاذ- إن «إيلين» تشبه ثمرة الفاكهة الطازجة التي لاتزال عالقة بفرع شـجرتها لم تقطفها يد بعد... ولقد ضج الجميع بالضحك، بل إنهم صفقوا استحسانًا عندما ألقى أبياتًا من شعر بوكشـين... حدث كل هذا و«إيلين» جالسـة تسـتمع مبتسـمة دون أن يبدو عليهـا أنها تفهم حرفًا واحـدًا مما قاله الرجل... ولقد أخذ الجميع الأمر دون شـك على أنه نوع من المداعبة والمزاح، غير أن كل هذه الضحكات وكل هذا

التصفيق لم يؤثر في «إيلين» التي كانت تبدو مندهشة ذاهلة، مما دفع «فاسيلي» إلى محاولة توضيح الأمر، فلقد تقدم من الفتاة قائلًا:

-بالقطع أنت لم تفهمي شيئًا مما قاله ذلك المأفون!!

ابتسمت «إيلين» وكانت بادية الحيرة وهي تقول:

-ومن أين لي أن أفهم «فاسيلي»!

-هل تريدين أن تعرفي؟!

هـزت كتفيهـا في لا مبـالاة كعادتهـا، ثم التفتــت نحو «فرنانــدو» وكأنها تطلب رأيه، فإذا به يهتف مازحًا:

-لو كان ما قاله غزلًا فلسوف أدعوه للمبارزة؟

هلل الجميع وصفقوا... ثم شرع «فاسيلي» بعد ذلك في ترجمة كل ما قاله «سـيرجي» حرفًـا بحرف وسـط تعليقـات الجميع وضحكاتهـم... أما هي، فلقد أجمع الكل أن وجهها تضرج بحمرة الخجل، حتى لقد دفنت رأسـها في صدر «فرناندو» حياء مما أسعد الجميع سعادة حقيقية...

بعد أن انتصف الليل بدقائق، مالت «إيلين» على «فرناندو» قائلة:

-«فرني»... أنا أعلم أنك مستمتع بالحفل استمتاعًا شديدًا!

-إني مسـتمتع بوجـودي معـك «إيلـين»، حتى لـو كان هـذا الوجود في الجحيم!

-لا تجامل أرجوك!

-أنت تعرفين أني أقول الحقيقة!

-ولكني لا أريد حرمانك من ليلة كهذه!

انتبه «فرنانـدو» إلى أن «إيلـين» كانـت تريـد الانصراف، وعندما سـألها أجابت:

-أنت تعلم أني لم أتعود السهر إلى ما بعد منتصف الليل!

-لكن العشاء بالكاد سوف يبدأ «إيلين»!

-ولهذا لا أريدك أن تحرم من هذه المتعة!

-ماذا تقصدين بالله عليك؟!

-سأطلب سيارة أجرة!

-وأنا لن أبقى بدونك... هيا بنا!

قـال «فرنانـدو» هذا وهـو ينهـض، فنهضت «إيلـين»، ورغـم احتجاج الجميع، فلقد انصرفت بصحبة «فرناندو».

■ ■ ■

في الطريـق إلى البيت لم تتفـوه «إيلين» بكلمة، هكذا قال «فرناندو»، حتى إذا ما توقفت السـيارة أمام بيتها، انتظر الشـاب أن تدعوه إلى مشروب لكنها لم تفعـل ولم تعتـذر، فقـط، طبعت قبلة خاطفـة على وجنته وهـي تلقي عليه تحية المساء، ثم غادرت السيارة وقطعت الطريق إلى باب البيت وكانت تسير وكأنها جندي في طابور عسكري!!

هكذا قال «فرناندو» بالحرف!!

■ ■ ■

وهكذا وجد المحققون أنفسهم أمام واقع لا مفر منه...

كانت كل الأقوال والدلائل والتحليلات تشير إلى أن «إيلين» انصرفت ممتلئة بتوتر غاضب، وأن السبب في ذلك، هو ذلك المشروع المزمع إقامته في بحيرة أونتاريو والذي سبب أزمة بين حكومتي كندا والولايات المتحدة... كما أشارت التحليلات إلى أنها لم تكن قد سمعت عنه شيئًا، وأنها اعتبرت جهلها بهذا الأمر جريمة لا تغتفر... وكان إحساسها هذا بالذات، هو الذي تسبب في قتل موظف في الخارجية الكندية في الطريق العام، بلا رحمة!

20 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ فتـــــاة بــألــف وجــــه!

كان المدهش في الأمر بالنسبة لـ «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا»، أن المحققين كانوا إذا ما أمسكوا بطرف خيط من الخيوط، اكتشفوا شيئًا جديدًا، أو موهبـة غير متوقعة... ولقد كان حديث ذلك الدبلوماسي في الحفل الذي أقامه «فاسـيليف إيفانوف» خيطًا قاد المحققين إلى ما لم يخطر لهم على بال من قبل... لقد استـغرق الأمر من فريق البحث أسـابيع طالت حقًّا، وأنفق قدر من المال لا بأس به، لكن التحدي كان هو الدافع الكبير كي يكشف الرجال مزيدًا من مواهب تلك الجاسوسة!

ولقـد كان طبيعيًّا أن يقترن البحث عـن رد فعل حديث هذا الدبلوماسي الأمريكـي من أصـل روسي، بالبحث عن سر اختفاء «فاسـيليف إيفانوف» المفاجـئ... فلقـد اكتشـف الرجـل أن «إيلين»، كانـت إذا ما التقـت بواحد مـن أفراد شـبكتها، ولم يكن أحدهم بالطبع يعـرف الآخر، تبدو له في صورة مغايـرة تمامًـا للصـورة التي تبدو بهـا للآخريـن... فلقد كانت -على سـبيل المثـال- تزيـد باللون مـن كثافـة حاجبيها مع عميـل، أو تضع باروكة شـعر

سوداء مع عميل آخر، أو كستنائية مع عميل ثالث، أو تضع في مقدمة رأسها خصلة من الشعر تضيق من مساحة الجبهة فتبدو فتاة أخرى تمامًا... ولم يكن التنكر مقصورًا على الشـعر، بل لقد اكتشف الرجال أنها كانت -مع كل لون تختاره لشـعرها- تضع عدسـات لاصقة عـلى عينيها ذات لون يتناسـب مع لون الشـعر، كـما كانت بارعة في اختيار لون أحمر الشـفاه الذي يتفق مع لون الشـعر والعينين... ومع الملابس الملائمة، كانت تبدو كفتاة مستهترة أحيانًا، أو طالبـة جامعية، أو موظفة في إحدى الشركات العملاقة... ولقد كان هذا الاكتشـاف المذهل، دافعًا للرجال إلى إعادة تفتيش مسـكنها الذي باعته قبل رحيلها ثم اختفائها!

كان المسـكن قد قتل بحثًا وتفتيشًا من قبل، وبطبيعة الحال، فلقد اكتشف الرجـل فيه مخبأ سريًّا في إحدى الغرف، غير أنهم وجدوه خاويًا تمامًا، مما أكد لهم أنها، قبل أن تختفي، جمعت كل ما يمكن أن ينم عن شـخصيتها أو يعطي الفرصة لاقتفاء أثرها... غير أن اكتشافهم الجديد هذا أكد لدى البعض منهم أنـه لابد أن يكون هناك مخبأ سرِّيٌّ آخر لأدوات المكياچ... فمن غير المعقول أن تصحب الفتاة معها أدوات مكياچ في رحلة طويلة كتلك التي قطعتها من أوتاوا إلى موسكو عبر عواصم ومطارات ومدن من الصعب تحديدها... ولقد استغرق البحث في ذلك المسكن أيامًا بذل فيها الرجال كل ما في جعبتهم من فن وجهد، في بحثهم بمعدات حديثة... وعلى كلٍّ، فلقد استطاعوا أخيرًا أن يكتشفوا مخبأً سريًّا خلف دولاب صغير للأدوية في الحمام... ولولا المصادفة البحتة، لما استـطاعوا -حتى بالاستعانة بتلك المعدات الحديثة- العثور على هذا المخبأ الذي وجدوا فيه كمًّا هائلًا من أدوات المكياچ والتنكر!!

وإذا كان الأمر خاصًّا بوزارة الخارجية الكندية، فلقد راح الرجال يبحثون عمـن يمكن أن يمد «إيلين إيستمان» بأخبار هذه الـوزارة... كان هناك عدد مـن الأقسـام، إلى جـوار وظائف بعينها يملـك الموظفون أو الدبلوماسيون معرفـة ما يـدور في غرف الـوزارة ودهاليزهـا السرية، وعـلى كلٍّ، فلقد كان القسـم المختـص ببحث ذلك المـشروع الذي كان مفترضًـا أن يقام في بحيرة أونتاريو هاديًا للرجال الذين سرعان ما استوقفهم حادث غريب وقع لأحد موظفي هذا القسم!

كان الحـادث طبيعيًّـا في الظاهر، غير أن تلك الحاسـة الأمنيـة التي يتمتع بها مثل هؤلاء الرجال، اسـتوقفت محققًـا بعينه... فلقد كان هناك موظف في هذا القسـم يدعى «جون وايت»، حدث أن لقي مصرعه في الساعات الأولى مـن الفجر وهـو عائد إلى بيته، عندما صدمته سـيارة مسرعة... وجاءت كل التحقيقـات التـي أجريـت حول مصرع ذلـك الموظف، كي تؤكد أن سـائق السـيارة اسـتطاع الفـرار دون أن يـراه أحـد، ودون أن يعثـر له عـلى أثر بعد ذلك!

استوقف المحقق شيء غريب... فما الذي دفع المسـتر «وايت» الذي كان الملف الخاص به، مع شـهادة زملائه ورؤسـائه كلها تشـير إلى أنه كان إنسانًا عاديًـا منطويًـا، وربـما كان خامـلًا أيضًـا، وأنه كان أعـزب، صامتًـا، يؤدي عملـه على الوجـه الأكمل، ولم يكن هناك ما ينبئ عن أي نشـاط سـياسي أو تجسـسي أو ترفيهـي... ما الـذي دفع مثل هـذا الموظف إلى أن يغـادر بيته في مثل هذه السـاعة المبكرة من اليوم... خاصة، وأن التشريح الذي أجري على الجثـمان، أثبت وجود كميـة كبيرة من الكحول في الدم، ممـا دفع المحققين في

إدارة الشرطـة، إلى الظن بأنه لم يكن متمالكًا لوعيه بالكامل، وأنه ربما كان هو المخطئ فاعترض طريق السيارة المسرعة التي لم ينتبه سائقها إليه فصدمه وفر هاربًا!!

غير أن هذا لم يقنع محققنا الذي راح يبحث ويسأل ويستقصي حتى وصل إلى الحقيقة التي بدت له مذهلة!!

... ...

... ...

كان «چون دايت» شـابًّا في الثلاثين من عمـره، ولد في الولايات المتحدة لأب وأم كانـا دائمـي الخـلاف حتى تم الطـلاق بينهما وهو في الخامسـة من عمـره.... ولمـا كان الطفـل في حضانـة أمه، فلقـد انتقل معهـا إلى كندا التى هاجرت إليها وتزوجت رجلًا كنديًّا من أصل نيوزيلاندي... شـب «چون» وتخرج في الجامعة في هدوء وبلا مشـاكل تذكر، وبعد التخرج التحق -وكان في الثالثـة والعشرين من عمره- بوزارة الخارجية في وظيفة مكتبية عادية من تلـك الوظائف التي لا تحتاج إلى مهارات خاصة... وهكذا ترك بيت والدته واستقل بمسكن صغير في إحدى البنايات في ضاحية من ضواحي أوتاوا... وبسـؤال بعـض جيرانه، عرف المحقـق أنه كان على علاقة حـب بفتاة تدعى «أليـس ماكنزي»، غير أن أحـدًا لم يكن يعرف كيف تعـرف «چون» إلى هذه الفتاة التي كانت على العكس منه تمامًا... مرحة، تحب الحياة الصاخبة، وترتاد المحال التي تزدحم بالشباب الثائرين على المجتمع، والذين تتجلى ثورتهم في تلوين الشعر وارتداء الملابس الغريبة... غير أن محلًا بعينه يحمل اسم «النجمة الذهبيـة»، يقـع في وسـط المدينة، ويمثـل بدرومًا واسـعًا لإحـدى البنايات

الشاهقة في أوتاوا، يهبط إليه الرواد بضع درجات تؤدي إلى ممر طويل نصف مظلـم، حتى إذا اجتاز الإنسـان ذلك الباب المغلق، احتوتـه على الفور أنغام الموسـيقى الصاخبة، والموائد المتلاصقة والمزدحمة... كان هذا المحل بالذات، هـو المفضـل لدى «أليس ماكنزي» التي ما إن عثـر عليها المحقق، حتى وجد نفسه أمام فتاة ترتدي ثيابًا تكشف من جسدها أكثر مما تستر، تدخن بشراهة، تشـغل وظيفة صغيرة في أحد الفنادق، ورغم المحـاولات المضنية التي بذلها معها المحقق، فإنها لم تستطع أن تتذكر متى بالتحديد التقت بـ «چون وايت» لأول مرة... غير أنها قالت في لحظة، وقد أضناها سيل الأسئلة التي انهمرت عليها من المحقق:

-ربما حدث هذا في بيت أحد الأصدقاء وليس في النادي!

كانت تقصد بالنادي ذلك المحل الذي يحمل اسم النجمة الذهبية، وعندما سألها المحقق، لماذا تظن أنها التقت به في بيت أحد الأصدقاء، قالت:

-لأن «چون» لم يكن من النوع الذي يرتاد مثل هذه المحال!

-ما الذي تقصدين بهذا؟!

دهشـها السـؤال، حملقت في الرجل وهي تلوك قطعة من اللبان في فمها، ثم مالت نحوه متسائلة:

-هل شاهدت «چون» قبل أن يموت؟!

-رأيت عددًا لا بأس به من الصور له!

-لقد كان أصلع!

قبل أن يسأل أردفت:

-ومهذبًا!

بدت على وجه الرجل الدهشة فأضافت:

-وموظفًا محترمًا!

لزم الصمت وراح يرقبها وهي تشعل سيجارة، حتى إذا ما نفثت الدخان تمتمت:

-باختصار... كان ابن ناس!

-وهل في هذا ما يعيبه؟!

-كلا ولكن هذا النوع لا يناسبني!

-ولماذا إذن استمرت العلاقة بينكما؟!

-من قال إنه كانت بيننا علاقة؟!

-ألم يكن يحبك؟!

-هذا شأنه، ولكني لم أحبه!

هم الرجل بالسؤال فلاحقته متسائلة في ازدراء:

-ما هو الحب؟!

كانـت الآن عصبيـة، وكانـت عصبيتهـا هـذه إيذانًـا بأنهـا أصبحت على اسـتعداد للبوح بمزيد من المعلومات، لذلـك، فلقد واصل صاحبنا الضغط عليها بقوله:

-الحب؟!... الحب هو الحب... أليس كذلك؟!

-ما الذي تريد أن تصل إليه، لم يكن لي يد في مصرعه!

-أنت لست متهمة!

-كان يلاحقني!

-ولكنه كان يمدك بما تحتاجين إليه من مال!

هتفت في غضب:

-أنا لم أطلب منه مالًا في يوم من الأيام!

-لكنه أعطاك الكثير!

-ليس قبل أن يلتقي بـ «إيڤا»!

-ومن هي «إيڤا»؟!

-تلك الفتاة من جزر البهاما... أنا واثقة أنها مخلطة!

وهكذا توصل المحقق إلى إحدى شخصيات «إيلين إيستمان» التي كانت مستورة!!

... ...

... ...

عندما قال المحقق لهذه الفتاة التي تدعى «أليس ماكنزي» إن «چون» كان يمدها بالمال... كان يرمي رمية بلا هدف... وإذا كانت تلك الفتاة الضائعة تقول -وهي صادقة- إن «چون وايت» كان يلاحقها، وإنها لم تكن تحبه، فما هو الدافع لأن تستمر علاقتها به وقد كانت تستطيع إنهاءها في ثوان؟!... كان الجواب الطبيعي أنه لابد من سبب يدفعها إلى احتماله. ولم يكن هناك أقوى من المال سببًا!

ولكـن مرتـب «جون وايـت» وكل ما عرف من دخله، لم يكن يسـمح له أن يمـد فتاتـه هذه التي وقـع في حبها إلى حد الإدمان، بأي قـدر من المال... ولذلك، فلقد قال المحقق ما قاله وهو يحسب لكل كلمة حسابها، حتى إذا ما ذكـرت «أليس» تلك الفتاة من جزر البهامـا، كان إيذانًا بدخول التحقيق إلى درب جديد تمامًا!

■ ■ ■

قالـت «أليس ماكنزي» إنهـا جاءت إلى النادي ذات ليلة بصحبة «جون»، ذلك أنه لم يكن مضرًا ولم يكن مفيدًا، وكان -على الأقل- يدفع ثمن التاكسي والمشروب الذي تحتسيه... في تلك الليلـة، وعندما نهضـت للرقص ملبية طلـب واحد مـن «الشـلة»، تركت «جون» وحـده، لكنها عندمـا عادت إلى المائدة، وجدته بصحبة فتاة سوداء الشعر، ذهبية البشرة، بنية العينين، ترتدي ملابـس عادية من تلـك التي ترتديها الفتيات في العشرينيات من العمر، وأنه قدمها لها على اسمها «إيفيت»!

-دون لقب؟!

هكذا سألها المحقق فهتفت:

-وما الذي يعنيني في اللقب أيها السيد، لقد تعودنا أن ندعوها «إيفا»!

-وكيف تعرف عليها «جون»؟!

-لقد قالت إنها وجدته وحيدًا، وإنها كانت وحيدة، واستأذنته في الجلوس إليه فلم يمانع... خاصة... ...

قالت هذا وبدا عليها الامتعاض، فاستحثها المحقق قائلًا:

-خاصة؟!

-خاصة أني لم أكن أجلس مع «چون» أغلب الوقت... لقد كان مملًّا إلى أقصى درجة!

-وهل كانت هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها «إيڤا» إلى النادي؟!

-أنا لم أرها قبل تلك الليلة، وإن كان «چون» قال لي إنه لمحها قبل ذلك مرة أو مرتين وإنها كانت دائمًا وحيدة!

-ألم يرها أحد غير «چون»؟!

-قال لنا الساقي بعد ذلك إنها كانت تتردد على النادي بشكل شبه منتظم!

-وحيدة أيضًا؟!

نعم... لم يكن لها من صديق سوى «چون وايت»!

-هل أنت واثقة من هذا؟!

-تمام الثقة!

-إلى هذا الحد؟!

-لقد كانت ترفض مراقصة أي من الشباب الذين كانوا يخضعون لرفضها رغم ما يتحلون به من وقاحة!

-هل كانوا يهابونها؟!

-لم تكن هيبة... لكنها كانت ذات شخصية مسيطرة!

-ثـــم...؟!

-ثـم أصبحنـا نراهـا بين الحـين والحـين، وإن لم تصادق أحدًا منا سـوى «چون»!

-ألم يخرج معها؟!

-ولا مرة!

رماها المحقق بنظرة شك فهتفت به:

-انظر أيها السـيد، أنا لسـت مجبرة على الإجابة عن أسـئلتك، ولكن هذه هـي الحقيقـة، لقد كنا نظن أنها واحـدة من تلك الفتيات اللواتي يتسـللن إلى كندا عبر الحدود بشكل غير شرعي بحثًا عن عمل، أي عمل!!

-وهل كانت تمده بالمال؟!

-رأيتها أكثر من مرة تدس في يده مالًا خفية!

-هل كنت تغارين منها؟!

أطلقـت «أليس ماكنزي» ضحكة سـاخرة، سـحقت بقايا سـيجارتها في المنفضة وهي تقول ساخرة:

-أغار؟!، لقد كنت أتمنى أن يقع في حبها حتى يتركني لحالي!

-ألم يقع «چون» في حبها!

-لا... وإن كانا، إذا ما جلس أحدهما إلى الآخر، لا يكفان عن الحديث!

-فيم كانا يتحدثان؟!

-ومن أين لي أن أعرف... لقد كانا يلزمان الصمت كلما عدت إليهما!

-ألم تسألي «چون»؟!

-ولماذا أسأله... إن الأمر لم يكن يعنيني في كثير أو قليل!

-وكم من الوقت استمرت هذه الصداقة؟!

-حوالي عام... غير أنها اختفت الآن ولم نعد نراها!

-متى كان ذلك؟!

-قبل مصرع «چون» ببضعة أيام!

وكان هـذا بالضبط، ما يريد المحقـق أن يعرفه... غير أن التفاصيل كانت أكثر أهمية!

21 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ الاستـــعـــبـــاد العـــاطـــفـــي!

كان علـى المحقـق، بعـد حديثه مـع «أليـس ماكنـزي»، أن يرتـب أجزاء الصورة... ولما كانت بعض هذه الأجزاء مجهولة، ومن المستحيل العثور على أصولها، فلم يكن هناك بد من استعمال الخيال استنادًا إلى حقائق العلم -علم المخابرات وأسـاليب التجسـس- وقوافيه... ذلك أنه- على سبيل المثال- لم يكـن صعبًـا عليـه أن يعرف كيـف ولمـاذا التقطـت «إيلين إيسـتمان» «چون وايـت» بالـذات... وإذا كان البعض ممن يرتـادون نادي «النجمـة الذهبية» قد شـهدوا بـأن هذه الفتاة البرونزيـة البشرة، والتي كانـوا يدعونها «إيڤيت» أو «إيڤا»، كانت تتردد على المحب بين الحين والحين، فلابد أنها راقبته طويلًا، كـما عرفـت طبيعة العلاقة بينه وبـين «مس ماكنزي»، ولابـد أن تصرفاته قد أوحت إليها بأنه من طبقة مختلفة وأنه يشغل منصبًا في مكان محترم... وهكذا فلابد أنها فعلت معه ما فعلته مع «فريدريك هينرتش»، وأنها أطلقت عيونها حولـه، فعرفـت عنـه كل شيء، عـن انفصـال أبيه وأمـه، عن نـزوح أمه من الولايـات المتحدة، عن دراسـته، عن خموله وضمور نشـاطه، عن إحساسـه بأنـه غـير مرغوب فيه، ثـم ذلك الإحسـاس المضني بأنه غير قـادر على تلبية

طلبات «أليس ماكنزي»... لابد أن «إيلين إيستمان» كانت قد عرفت كل هذا قبـل أن تقدم نفسـها إليه في ذلـك النادي، ثم لابد أنهـا أيضًا راحت تضرب على ذلك المؤثر في شـخصيته... وكان ما قالته «أليس ماكنزي» عن أسـلوب تعارفهـا أقـرب إلى المنطـق... وهكذا اسـتطاعت «إيلين» أن تبنـي معه نوعًا من الصداقة دفعه لأن يشـكو لها همومه، سـواء بالنسبة لـ «أليس» أو بالنسبة لعملـه... إلى هنا كان كل شيء بالنسـبة لذلك المحقـق الدءوب، منطقيًّا تمامًا ولا غبـار عليه... ولكن، بقيـت تلك النقطة التي ذكرتها الآنسـة «ماكنزي» حول طريقة تعارفها هي بـ «چون وايت» في بيت أحد الأصدقاء الذي لم تعد تتذكره. فلقد رأى الرجال أن معرفة ذلك الصديق لابد ستؤدي إلى مزيد من المعلومـات... هكذا، بعد تحريات دامت قليلًا، عرف المحقق أن ثمة مصدرًا صحفيًّا مسـتقلًّا، لا يعمل لحساب مجلة أو جريدة أو وكالة أنباء، وإنما يعمل لحسابه الخاص، عرف المحقق أن اسم ذلك المصدر هو «فرانسوا بولو»، وأنه كان يسـتعين بـ «أليس» التـي كانت تتردد عليه بين الحـين والحين كي يلتقط لها بعضًا من الصور التي أفلح في نشرها مع إعلانات رخيصة... ومن اسـم المصـور عـرف المحقق أن الرجـل من أصل فرنسي، وسرعـان ما حصل على عنوانه، واستطاع أن يحدد معه موعدًا في بيته الذي يستعمله الشاب كاستديو للتصوير في نفس الوقت.

وكـما تصـور المحقق تمامًـا، ما إن دلف إلى المسـكن، حتى وجد نفسـه في مـكان تعمـه الفوضى، بيـت عبارة عن غرفـة واحدة كبيرة تتناثـر فيها علب الأطعمة وزجاجات الشراب وآلات التصوير ومعدات من لمبات وأسـلاك

وحوامل وما إلى ذلك وفي ركن من المكان كان ثمة غرفة خشبية كان واضحًا أنها أضيفت إلى المكان، وكانت هذه هي غرفة تحميض الأفلام!

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما وصل المحقق... وكان مسيو «بولـو» لايزال نائمًا، فما إن فتح الباب نصف مغلق العينين، حتى استأذن في إعداد فنجان من القهوة التي شاركه المحقق في احتسائها معه، بعد القهوة التي صاحبها تدخين سيجارة فرنسية قال الشاب:

-والآن يا سيدي... عليك أن توجه إليَّ التهمة بشكل مباشر!

-أية تهمة؟!

-ألم تقل إنك محقق في الـ... ...؟

قاطعه الرجل:

-بلى قلت هذا لكني لم أتحدث عن أية اتهامات!

-فماذا تريد مني بالله عليك؟!

-أريد أن أعرف كيف تعرفت «أليس ماكنزي» على «چون وايت»؟!

نظر إليه الشاب في دهشة ولكنه لم يفهم السؤال. لكنه ما لبث أن أجاب:

-كانت هنا في عمل، وكنت ألتقط لها بعض الصور، عندما وصل «چون»، فقدمت كلًّا منهما للآخر!

-هكذا؟!

كالمستفز قال «فرانسوا بولو»:

-نعم هكذا!

-ألا يمكنك أن تمدني بالمزيد؟!

-أليس هناك مزيد؟

-لعلك تعرف أن «چون» لقي مصرعه إثر حادث!

-قرأت هذا في الصحف!

-ألم يكن صديقك؟!

-كان زميـلي في الدراسـة وقـد التقيـت بـه بعـد سـنوات طويلـة في أحد المؤتمرات الصحفية بوزارة الخارجية!

-ثـــــم؟!

-ثم لا شيء... تواعدنا على اللقاء وجاء، وما إن رأى «أليس» حتى تعلق بها كطفل التقى بأمه بعد طول غياب!

-ثـــــم؟!

هب «فرانسوا» واقفًا وهو يهتف:

-ثـم ماذا... ثم خرجا معًـا فلقد ظنت هذه المأفونة أنه من الأثرياء لمجرد أن ملابسه كانت أنيقة!

-هل تحب المال؟!

-تحبه؟!

هكذا هتف «فرانسوا» ساخرًا ثم أردف:

-إنها لعبة المال ولا يشغل ذهنها سواه!

-ألم تر «چون» بعد ذلك؟!

-رأيته مرتين أو ثلاثًا، جاءني يشكو إهمال «أليس» له... وكان واضحًا أن حبه لها كان نوعًا من الاستعباد العاطفي!

-ألم تُنَبِّهْهُ إلى حقيقتها؟!

-بالطبع لقد فعلت لكنه لم يكن يسمع!

كان من الواضح أن «فرانسوا»، مع استمرار الحوار، قد اطمأن إلى أنه ليس متهمًا بشيء، لذلك، فلقد استرسل في الحديث بحرية، قال «چون» بدا له وكأنه مسلوب الإرادة، وأنه كان يعرف عن «أليس» كل شيء، وأنها لا تهتم إلا بمتعتها، فهي لا تعمل بشكل منتظم إلا كلما احتاجت إلى المال... ثم أكد ذلك المصور الفنان أن «چون» كان على علاقة كاملة بـ «أليس»، وأنه يعتقد أن هذه العلاقة قد أمدته بالكثير مما كان يفتقده قبل لقائه بها... وإلا، فمن غير المنطقي أن يقع شاب مثله فريسة لفتاة مثلها.

وعندما أحس المحقق أن الشاب ليس لديه المزيد من المعلومات، شكره مستأذنًا في الانصراف، فقال «فرانسوا» مودعًا:

-لم يكن حبًّا... بل كان استعبادًا عاطفيًّا!

... ...

... ...

وجد المحقق نفسه مضطرًّا لأن يعيد فتح ملف مصرع «چون وايت»، فالمعلومات التي تجمعت لديه، كانت تؤكد ضرورة تفتيش بيته ومكتبه... ولكن كيف وقد انقضى على مصرعه قرابة العام؟!

غير أن الرجل كان حسن الحظ دون شك، فعندما اتصل بوالدة «چون»، وكان «چون» قد ترك لها كل شيء عرفانًا منه بجميلها عليه، قالت هذه السيدة، وكان الحزن مازال يعتصر قلبها، إنها تسلمت البيت فعلًا، لكنها أغلقته ولم تدخله منذ وفاة ولدها، ولقد شرح لها الرجل الأمر على أن هناك اشتباهًا في سائق السيارة التي صدمت «چون»، وأنه من أجل هذا يبحث عن بعض الأوراق أو الأدلة التي تدين هذا السائق... وعلى كلٍّ فإن هذه السيدة لم تدقق كثيرًا، كان واضحًا أن لا شيء يعنيها بعد فقدانها لولدها، ولذلك، فلقد سلمته مفتاح البيت ورجته أن يعيده إليها بعد انتهاء مهمته!

وفي بيت «چون» كانت المفاجأة صاعقة!!

في البداية، بدا كل شيء في ذلك البيت طبيعيًّا تمامًا... لم يكن هناك ما يشير إلى أي نشاط تجسسي... كان البيت صغيرًا، مكونًا من طابقين، الطابق الأول يحوي غرفة المعيشة وهي واسعة نسبيًّا، وهناك مكتبة لا بأس بها، ومكتب صغير في ركن المكان، مع بضعة مقاعد وأرائك مرتبة بشكل يوحي بقدر لا بأس به من الذوق... ثم المطبخ الذي يؤدي إلى الحديقة الخلفية حيث وجد الرجال كوخًا صغيرًا يحوي أدوات للزراعة... أما الطابق العلوي فكان يحوي غرفتين للنوم، الغرفة الرئيسية والتي تطل على الحديقة الأمامية والطريق، وغرفة إضافية مرتبة وكان ما فيها جديدًا بحيث توحي بأن أحدًا لم يستعملها... ولقد بحث الرجال في الغرفتين لأيام خرجوا بعدها صفر الأيدي.

بـدا الأمـر محـيرًا تمامًـا، ذلـك أن المكتبـة في الطابـق الأرضي بـدت، بعد الفحص والتدقيـق، عادية تمامًا ليس فيها ما يريب، حتى آلة التليفون وذلك الجهـاز الملحق بها -آنسر ماشـين- والذي كان في ذلـك الوقت جديدًا تمامًا، ولم يكـن في الشريط المركب بالجهاز مـا ينبئ عن شيء، ثمة مكالمة لـ «أليس» ووالدة «چون» ترجوه أن يتصل بها ثم بعض الأصدقاء والزملاء...

كاد الرجال -وقد انقضت بضعة أيام- أن ينصرفوا، لولا أن واحدًا منهم لفت نظره مسمار صغير مدفون في عمق الجدار الداخلي للمكتبة، وكان الناظر إلى رأس المسـمار لا يخامـره الشـك في أنه وضـع لتثبيت المكتبـة في الجدار... غـير أن الرجل، وقد عبث بإصبعه في الرأس الأملس، استشـعر وجود ثقب بالـغ الصغر في منتصف الـرأس، وعندما عالج هذا الثقب بمفك كان معه لم يصل إلى نتيجة، فقرر أن يفك المسمار... وعندما فعل، اكتشف أن هذا الثقب موصل بسـلك كهـربي مدفون في عمق الجدار وبتوصيل هذا السـلك بالتيار الكهربي، فوجئ بجزء من المكتبة يتحرك كي يكشف عن دولاب مدفون فيما بين المكتبة والحائط، وكانت محتويات الدولاب تحوي ما لم يخطر ببال الرجل على الإطلاق!

عثـر الرجـال في داخـل الـدولاب على آلـة تصويـر بالغة الصغـر، وكان بداخلها فيلم يحوي وثائق كاملة لذلك المشروع الخاص ببحيرة أونتاريو، كما عثروا على نسخ من وثائق أخرى بالغة الأهمية خاصة بعلاقات كندا مع بعض الدول وكانت هناك مذكرات ودراسـات ومحاضر اجتماعات... وباختصار، وجـد الرجـال في هذا الدولاب كمًّا هائلًا من الوثائـق السرية الخاصة بوزارة الخارجية... لكـن المفاجأة الكبرى، كانت تكمن في شريط خاص بهذه الآلة

الملحقـة بالتليفـون، وكان أهم ما في هذا الشريط عدد من المكالمات المسـجلة بين «إيلين إيستمان» و«چون وايت».

كان الأمـر مذهلًا بكل المعـاني، وكان معناه أن «إيلـين» حصلت بالفعل عـلى كل تلك الوثائق فيما عدا ذلك الفيلم الذي من أجله قُتل «چون وايت» في حادث سيارة!

ووجد المحققون أنفسهم أمام ظاهرة بدت غريبة.

فلـماذا لم يسـلم «چـون» الفيلـم إلى «إيلين» وقـد كان هذا هدفهـا منذ أن تناولت العشاء في بيت ذلك الروسي الأبيض «فاسيليف إيفانوف»؟!

لقد أسـفر تفتيش مكتب «چون» في وزارة الخارجية، كما أسفر البحث في الدوسيهات والأضابير وسـؤال الزملاء والرؤساء، عن حقيقة بدت أغرب من سـابقتها... فلم يكن هناك، ما يشـير من قريب أو من بعيد إلى فقدان أية وثيقة، أو حتى انتقالها من مكان إلى آخر... كان كل شيء منضبطًا تمامًا، كاملًا غير منقوص، مرتبًا لا فوضى فيه ولا إهمال... وكانت كل التقارير تشـير إلى أن هذا الجاسوس البالغ الخطر، والذي نقل إلى الاتحاد السوڤيتي، عن طريق «إيلين إيسـتمان» أو«تانيا راديونسكا» كمًا غير معروف من الوثائق التي تحوي أسرارًا مهمة... كان مدربًا تدريبًا على مسـتوى رفيع، أبسط ما يشير إلى هذا، ذلك الدولاب السري الذي كان يحتاج إلى مهارة ودراية لم يشـهد أحد أبدًا، بأن «چون وايت» كان يملكهما!

وعلى كل، فلقد كان الرجال الآن أمام واقع يضيف إلى الصورة الكثير من التفاصيل، التي كانت خافية عليهم تمامًا، حول هذه الجاسوسة الخطيرة والفذة!

ولم يكن من الصعب الآن، أن تكتمل الصورة!

■ ■ ■

عندما التقطت «إيلين إيستمان» «چون وايت» في نادي النجمة الذهبية، ولم يكن من الصعب عليها -وقد عرفت عنه كل شيء- أن تبني معه علاقة صداقة كان هو في أشد الحاجة إليها، ولقد امتدت هذه العلاقة إلى أسابيع باح فيها الشاب بأشياء كثيرة... ولم يكن من الصعب أيضًا أن تغريه بالمال الذي كان في حاجة إليه لإرضاء «أليس ماكنزي»، وحتى يبوح أكثر وأكثر بما لديه من معلومات... حتى إذا ما أحست «إيلين» أنها سيطرت عليه تمامًا، صارحته بأنه يتعامل مع المخابرات السوڤيتية، ولابد أنه وافق لأنه كان قد تورط بالفعل، أو لأنه كان في حاجة إلى المزيد من المال، أو للسببين معًا... كان كل هذا واضحًا ومنطقيًّا إلى أقصى حد... فلماذا -والحال كذلك- لم يمدها بذلك الشريط الذي يحوي صورًا لكل الوثائق الخاصة بمشروع بحيرة أونتاريو!!

ولقد وجد الرجال الإجابة عن هذا السؤال في الشريط الذي عثروا عليه في الدولاب السري... كان الشريط يحوي عددًا من المكالمات التي تمت مع «چون وايت» مما يؤكد، أنه كان يسجل أحاديثهما معًا تحوطًا لما قد تأتي به الأيام!!! ولقد شهد كل من سمع هذا الشريط، أن الصوت كان لـ «إيلين

إيستمان» وإن كانت لهجتها مغموسة في اللكنة التي يتحدث بها أهل جزر البهاما... كانت هناك مكالمات تطلب فيها اللقاء، ومكالمات ملغزة غامضة، غير أن مكالمة بالذات، كان صوت «إيلين» فيها غاضبًا، جعلت الرجال يتوقفون أمامها... في هذه المكالمة كانت تسأله:

-هل اشتريت الكتاب؟!

-نعـــــم!

-متى سأحصل عليه؟!

-عندما تدفعين الثمن!

مرت لحظات صمت دمدمت بعدها

-أي ثمن؟!

-ثمن الكتاب!

-ألم نتفق من قبل؟!

-لم أكن أعرف أنه مهم إلى هذه الدرجة!

-منذ متى تعلمت المساومة؟!

وكان هـذا السـؤال بالذات خطأً فاحشًـا وقعت فيه «إيلـين»، كان معنى السؤال أن ثمة أشياء أخرى كانت تدفع ثمنها، غير أنها بالقطع، لم تكن تعلم أن الحديث كان يسـجل، مما يدل على أن «چون وايت» كان قد أصبح، رغم مظهره الخادع، جاسوسًا محترفًا... وعلى كل، فلقد ضرب لها موعدًا في نادي النجمة الذهبية!

وفي النجمة الذهبية، استطاع الرجال أن يدسوا وسط الشلة -شلة «أليس ماكنـزي»- فتـى وفتاة مـن عملائهـم... كان الأمر بالقطع يحتـاج إلى وقت وصـبر... غـير أن أفراد الشـلة -وقد اجتمعـوا ذات يوم في بيـت أحدهم- راحـوا يثرثرون، بعد أن جرتهم تلك الفتاة العميلة وزميلها، إلى الحديث عن «چون وايت»، فإذا أحدهم يقول:

-أراهن أن هذه الفتاة «إيڤا» كانت تتاجر في المخدرات، وأن «چون» كان يساعدها في ترويج البضاعة!

هتفت الآنسة «ماكنزي»:

-ما الذي يدفعك إلى هذا القول؟!

-هل تذكرين تلك المرة الأخيرة التي جاءت فيها «إيڤا» إلى النادي؟!

-بالطبع... لقد تشاجرا وانصرفت وهي غاضبة!

-لقد سمعت ما دار بينهما من حوار!

-وكيف كان ذلك؟!

هكذا سأله الفتى العميل فأجاب:

-كنـت جالسًـا في الركـن المجاور فلم يشـاهداني، وكان «چـون» يطلب مبلغًـا باهظًا، لكنها رفضـت وهددته قائلة إنها تسـتطيع أن تقضي عليه، فرد عليها بأنه يملك من الأدلة ضدها ما يستطيع أن يقدمه إلى السلطات!

-ثـــم؟!

-لا شيء، نهضت غاضبة وهي تقول له، سوف نرى!

-ولم تعد؟!

-ومات «چون»!

هتفت «أليس» في غضب:

-اللعنة، لماذا لم تبلغ السلطات؟!

-ولماذا أزج بنفسي في مثل هذه الأمور؟!

واختلـط الحابـل بالنابـل، وراح كل مـن الحاضرين يدلي بدلـوه... لكن الرجـال كانوا قد عرفوا كيف اغتيل «چون وايت» ولماذا... وبقي أن يعرفوا كيف اختفى «فاسيليف إيفانوف».

22 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ الـــــولاء النـــاقـــص!

الذي لا شك فيه، أن تراكم المعلومات لدى المحققين الذين كانوا يعملون في قضيـة «إيلين إيستمان»، كان يضيف يومًا بعد يوم، مزيـدًا من الضوء كي تتضـح أكبر مسـاحة من ملامح الصـورة أمامهم... وعلى سـبيل المثال، فإن «فرناندو كورتيز» مع اسـتمرار التحقيق، وإحساسـه بأنـه ليس متَّهمًا بشيء، نشـطت ذاكرته تدريجيًّـا، فاعترف بأنه كان يقص عـلى «إيلين» تفاصيل تلك الأبحـاث التـي كان يقـوم بها منذ التحاقـه بالمصنع بالرغم مـن أنها لم تطلب منـه أن يحكـي أو يقص، أو حتى يبـدو عليها الاهتمام لمعرفـة تلك التفاصيل العلميـة المملة!!.. قـال الفتى إنه كان وحيدًا وكانت فرحتـه غامرة بالتحاقه بمصنـع الكيماويات هذا الذي يضم فريقًـا من العلماء الأفذاذ الذين يفوقونه خـبرة وعلـمًا... وكان -والأمر كذلـك- في حاجة لأن يبـث فرحته لمخلوق مـا، خاصـة عندمـا كان يؤدي عملًا يُسـعد الرؤسـاء ويدفعهم إلى الإشـادة بـه وبقدراتـه... قـال «فرناندو»: إنه كان يشـعر طوال حياته، بـأن ثمة جنينًا علميًّـا يكمـن في تلافيف عقله، وأنه منذ أن التحق بالمصنع بعد وفاة «مسـتر فريدريـك هينرتش» المباغتة، أحس -وقد نال فرصـة كهذه- وكأنه يريد أن

ينطلـق في آفـاق بلا حـدود... ولم يكن هناك من يبثه أحلامه وفرحته سـوى «إيلين» التي كانت تسـتمع إليه وتعطيه كل اهتمام... وعندما سـئل إن كانت «إيلين» قد سألته عن ذلك المشروع السري الذي كان «مستر هينرتش» يعمل به، قال إنها لم تسأله لسبب بسيط، وهو أنه أُلحق بقسم آخر بعيد كل البعد عن ذلك المشروع الذي كان يعمل به مجموعة منتقاة من العلماء!

وفيـما يختـص بذلك العشـاء الذي أقيـم في بيـت «فاسـيليف إيفانوف»، أصر عـلى قولـه بأن «فاسـيلي» لم يختـلِ بـ «إيلـين» في تلك الليلـة، في الوقت الـذي أكدت فيـه زوجة أحد المدعوين والتي كانت صديقة شـخصية لـ «آنّا إيفانوفنا»، إنها شـاهدت فاسـيلي وهو يتحدث إلى «إيلين» في ركن قصيٍّ من المـكان، وأن الحديـث بينهما طال بعـض الشيء، مما دفعهـا إلى تنبيه صديقتها «آنّا» لذلك، وأضافت هذه السيدة أن الرجال جميعًا أبدوا إعجابهم بـ «إيلين» وبتصرفاتها، لكن إعجاب «فاسـيلي» في تلك الليلة، بدا لها صارخًا خاصة في وجود «آنّا».

غير أن «فرناندو كورتيز»، قد نشطت ذاكرته أكثر، مما اضطره إلى الاعتراف بأن ثمة أشياء بدت له في حينها غريبة، كانت تحدث بين الحين والحين دون أن يعطيها الاهتمام الكافي... أضاف الفتى أنه من الصعب عليه أن يتذكر الكثير من التفاصيل التي تحدث للناس في كل يوم، ثم تتوه عادة من الذاكرة، خاصة إذا ما كان الإنسان يحتفظ في وجدانه ومخيلته بصورة ما لإنسان آخر... ولقد اسـتطاع أن يتذكـر واحدة من تلـك الظواهر التي بدت لـه غريبة وإن كانت الأحداث قد جرفتها فيما بعد وألقت بها إلى بحر النسيان...

قال «فرناندو»: إنه بعد ذلك العشاء ببضعة أيام، فوجئ بمكالمة هاتفية من «إيلين إيستمان»، تقترح عليه فيها أن يتناولا العشاء معًا في بيتها... وبطبيعة الحال، فلقد سعد الفتى سعادة بالغة، ذلك أنه لم يكن قد دخل بيت «إيلين» طوال الفترة الماضية سوى مرتين أو ثلاث مرات... وعلى كل، فلقد رحب بالفكرة، وحمل معه وهو في الطريق إليها زجاجة شراب فاخر كلفته بضع عشرات من الدولارات الكندية.

بدت «إيلين» في تلك الليلة جميلة بشكل خاص في عيني «فرناندو»، أكثر ما كان يميز جمالها، ذلك القرط الطويل الذي كان يتدلى من أذنيها، مع شعر صففته بطريقة جعلتها أقرب ما تكون إلى نساء شرقي آسيا مما أضفى عليها سحرًا جعله أسير هواها تمامًا... كان الدمع يملأ عينيه تأثرًا وهو يقول إنه في تلك الليلة، ورغم ما حدث، كان سعيدًا إلى حد مؤلم... فهو لم يكن ليصدق أن القدر، بعد أن عانى ما عاناه من عصابات مافيا المخدرات في وطنه، وهروبه إلى المكسيك، وتنقله من مكان إلى مكان حاملًا ذلك الخوف العربيد من عثور المافيا عليه... لم يصدق أن يهديه القدر مثل تلك الفتاة البالغة الرقة والجمال فكأنها -شكلًا وموضوعًا- ملاك يسعى على قدمين!!

في تلك الليلة دق جرس الباب ولم يكن قد انقضى على وصوله سوى خمس عشرة دقيقة - وكان الزائر غير المرتقب، هو «فاسيليف إيفانوف».

المدهش، والذي أوقع «فرناندو» في الحيرة، أن «إيلين» و«فاسيلي» تصرفا بشكل طبيعي كأنهما كانا على موعد من قبل، خاصة عندما أحس فرناندو أن ذلك الروسي الأبيض بدا كأنه فوجئ بوجوده... ولقد قال «فرناندو» معلقًا:

-كان الموقـف في البدايـة غريبًـا... لكنـي أحسسـت بعـد انقضاء بعض الوقـت أن «فاسـيلي» ربما ضغـط على «إيلين» كـي يزورها، ولم يكـن أمامها سوى أن تطلب مني الحضور حتى تعلن للرجل أنها مرتبطة بإنسان آخر!

لزم «فرناندو» الصمت لثوانٍ ثم أردف:

-وكان طبيعيًّا أن أشعر حيالها بالامتنان، وكان طبيعيًّا أن تزداد سعادتي!

وعندما سـأله المحقـق عن الحديث الـذي تناولوه في تلـك الليلة قال إنه كان حديثًـا عاديًّـا في البداية، لكنه -دون مقدمات- أخذ مسـارًا آخر عندما وجهت «إيلين» إلى «فاسيلي» سؤالًا بدا له غريبًا تمامًا، سألت:

-فاسيلي... ألم يراودك الحنين إلى الوطن؟!

لزم فاسـيلي الصمت لثوانٍ وقد استبدت به الحيرة، لكنه ما لبث أن سألها بدوره:

-أي وطن تقصدين؟!

-روسيا بالطبع!

-ولكني ولدت في الولايات المتحدة!

قالها «فاسيلي» وكأنه يدفع عن نفسه اتهامًا، فقالت «إيلين»:

-ورغم ذلك فأنت تتحدث الروسية في حياتك الخاصة!

اشـتدت الحيرة بـ «فاسيلي» وكأنه انتبه إلى حقيقة غابت عنه طويلًا، ولقد أردفت «إيلين» مبررة سؤالها ذاك:

-لقد خطر لي الأمر ليلة أن تناولنا العشـاء في حديقتك الخلفية... رأيتك مـع مجموعـة الأصدقـاء وكأنكم انفصلتـم عن عالمنا هـذا انفصـالًا تمامًا... وأنكم تخلقون جوًّا خاصًّا أقرب إلى روسيا من أي مكان آخر!

كان طبيعيًّا أن يشـترك «فرناندو» في الحوار، وأن يندفع طويلًا مؤيدًا هذا الرأي، واضعًا ما شاهده وأحسه في تلك الليلة، مما أوقع «فاسيلي» في الحرج، خاصـة عندما قـال «فرناندو» ذات لحظة إنه أحس وكأنه انتقل من أوتاوا إلى بيت آل كرمازوف... ما لبث «فاسيلي» أن تمتم مرتبكًا:

-هذا حقيقي... ربما... يبدو أنكما على حق... لست أدري!

كانـت الكلمات تتناثر من بين شـفتيه بلا هدف واضـح، وكانت «إيلين» تجلس ساعتها في مقعدها الأثير في ركن من البيت الأنيق، ورغم عمق الحوار وجدتـه وجدة موضوعه، فلقد كانت كلماتها تقطر رقة وعذوبة... ولقد ران الصمـت بعـد ذلك حتى حبـس «فرناندو» أنفاسـه، بينما بدا «فاسـيلي» كأنه يجلس فوق أتون ملتهب، لكنه قال بعد لحظات:

-نعم... الوطن... أيضًا... ولكن... ... ...

قال هذا ثم لزم الصمت مرة أخرى حتى شجعته «إيلين» بقولها:

-ولكـــــن؟!

-ولكن أين هو هذا الوطن... إن روسيا لم تعد روسيا!

-وما يدريك؟!

-هـــــه؟!

-لقد ولدت في الولايات المتحدة، أي أنك لم تر روسيا الآن ولا تعرف عنها شيئًا!

-هذا حقيقي!

-فمن أين لك أن تعرف أن روسيا لم تعد روسيا؟!

-كانت لأمي وأبي ذكريات!

-ولهذا فأنت تعيش روسيا التي سمعت عنها وتعيشها وتتحدث لغتها!

بدت ملامح «فاسيلي» كأنها تذوب وتختلط، أحس «فرناندو» أن الرجل الجالس أمامه يعاني من عذاب دفين، لكن «فاسيلي» ما لبث أن زفر زفرة حارة وقال كأنه يحدث نفسه:

-يبدو أن الوطن شيء كامن في نفس الإنسان... وأن التخلص منه، حتى لو ولد المرء بعيدًا عنه، أمر مستحيل!!

ابتسمت «إيلين» كأنها حققت هدفًا ثمينًا، فهتف فاسيلي:

-لابد لي من الاعتراف بأنك فتاة غير عادية، إن ثقافتك «إيلين» لا تتناسب مع طبيعة عملك!

-لا تجرنا بعيدًا عما نحن فيه!

هكذا هتفت «إيلين» مازحة، فقال «فاسيلي»:

-أنت تعرفين بالقطع كيف تحكم روسيا الآن!

-إن الشيوعية نظام حكم، كما أن القيصرية نظام حكم، لكن روسيا هي روسيا في الحالتين!!

أعد «فاسيلي» لنفسه كأسًا، بدا كأنه مضطرب لسبب غامض، وكان حديثه بعد ذلك يتسم بالمرارة والحزن، هكذا قال «فرناندو»... ولقد اعترف هذا الروسي الأبيض أن هذا الأمر حيره كثيرًا، وأنه طالما تمنى بينه وبين نفسه، أن لو استطاع أن يزور روسيا ولو لمرة واحدة، وأن ثمة حنينًا غامضًا ينتابه بين الحين والحين نحو هذا الوطن البعيد... قال هذا ثم وجه حديثه إلى «إيلين» و«فرناندو» معًا:

هل تعرفان أني في بعض الأحيان، ألجأ إلى روايات «ديستويفسكي» و«تولستوي» و«چوچول» و«تشيكوف»، لا لشيء إلا لكي أتنسم عبير الوطن من خلال اللغة والأحداث معًا؟!

هتفت «إيلين» متسائلة:

-إذن فأنت تقرأ لهؤلاء في لغتهم الأصلية!

دمدم «فاسيلي» كأنها وجهت إليه اتهامًا:

-وماذا في ذلك «إيلين»؟!

كان جافًّا فقالت هي باسمة:

-يبدو أني أخطأت في إثارة هذا الموضوع!

-ألا تشعرين بالحنين إلى إنجلترا؟!

-بالقطع، ولكني أستطيع تنسم هواء الوطن كلما أردت!

هتف «فرناندو» وكان التأثر قد استبد به هوالآخر:

-إني على استعداد لأن أدفع نصف ما تبقى من عمري، في مقابل زيارة واحدة لبيت أمي!

ران الصمت بعد ذلك على الجميع، كان الثلاثة غرباء في وطن هاجروا إليه... وكانت «إيلين» بارعة براعة تفوق الوصف وهي تدفع ذلك الروسي الأبيض؛ كي يصبح طوع بنانها دون أن يدري!

■ ■ ■

قال أحد المحققين، إنه كلما خاض في تفاصيل هذه القضية، أحس أن عبقرية هذه الجاسوسة لا تعرف الحدود، وقال آخر إن الأمر من المستحيل أن يرجع إلى التلقين أو التدريب أو التعليم فقط، ذلك أن هذه الفتاة كانت تملك موهبة خاصة، جعلتها مثل الفنان، دائم الخلق لأساليب ومواقف تحملها حملًا نحو الهدف!

لقد استطاعت «إيلين» بعد هذا الحوار الذي كشف عن حقيقة الإحساس الكامن في نفس «فاسيلي» -أن تضع يدها فوق نقطة بالغة التأثير في شخصيته، وأن تثير في نفسه وفي نفس «فرناندو» بالتالي، عواطف جعلتهما أقرب إليها من أي إنسان آخر... وكان طبيعيًّا، بعد أن اعترف «فاسيلي» بما اعترف به- أن يبوح بأي سر آخر!

قال «فرناندو كورتيز» إن «إيلين» -كي تغير الموضوع الذي أثار مثل هذه الشجون- نهضت كي تعد للشابين عشاءً خفيفًا... ولقد أخذ الحديث بعد ذلك يتراوح فيما بين موضوعات اجتماعية أو فنية عامة، لكن «فاسيلي» كان يشارك في الحوار بنصف عقل، كان يبدو كأنه يعاني من أحاسيس مكبوتة من الصعب عليه السيطرة عليها... ولذلك، فقد هتف في لحظة:

-لابد لي من الاعتراف أن ثمة ضغطًا نفسيًّا أعاني منه!

لزمـت «إيلين» و«فرناندو» الصمـت، ردد الفتى الروسي البصر بينهما ثم قال:

-هل أستطيع أن أبوح بما لا أستطيع البوح به حتى لزوجتي؟!

-فكر مرتين قبل أن تفعل!

قالـت «إيلـين» هـذا في لهجة بعثـت بالرعدة إلى جسـد «فرنانـدو»، لكن «فاسيلي» كان ينهار لحظة بعد أخرى.

-لسـت أدري كيف يمكن لإنسان، أي إنسان، ألا يحترم مثل هذا المنطق - غير أني في واقع الأمر فكرت طويلًا، ولا بد لي من الاعتراف أني في حاجة إلى الحديث معكما!

نهضت «إيلين» قائلة:

-لقد احتسيت من الشراب أكثر مما ينبغي!

-«إيلين»... إني...

قاطعته في صرامة:

-لقد تأخر الوقت، ولا بد أن آوي إلى فراشي الآن!

وهكذا انصرف الشابان...

وهكذا قال المحقق:

-إن هذه الفتاة تكاد أن تكون معجزة، لقد منعت «فاسيليف إيفانوف» من الحديث أمام «فرناندو»، حتى تستطيع فيما بعد أن تحكم قبضتها عليه!

23 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ انتصار الرؤساء!

كان من الواضح الآن أن التحقيق فيما يختص بذلك الروسي الأبيض «فاسيليف إيفانوف» قد وصل إلى طريق مسدود... فبعد هذا الاستهلال في العلاقة الذي حدث في تلك الليلة في بيت «إيلين إيستمان» أو «تانيا راديونسكا»، وأمام «فرناندو كورتيز»، كان واضحًا أنها كانت حريصة كل الحرص على أن تظل تلك الصورة التي بثتها في وجدان «فرناندو»، ماثلة كحقيقة ثابتة من ناحية، ومن ناحية أخرى، كانت تريد لعلاقتها بـ «فاسيلي» أن تظل سرًّا لا يعرفه سواهما... وفي الحقيقة، واستنادًا إلى قوانين هذا النوع من النشاط الإنساني، فلقد كانت «إيلين» على حق في الناحيتين... ولذلك، فلقد انقسم الرأي بالنسبة لاستمرار البحث حول اختفاء ذلك الروسي الأبيض إلى قسمين:

قسم من الرجال رأى أن المهم ليس التفاصيل، ولكن النتيجة النهائية، وكانت النتيجة النهائية في متناول اليد الآن... ذلك أن رجل المخابرات السوفيتي الذي لجأ إلى الغرب أكد -بما لا يقبل الشك- أن «فاسيلي» شُحن في

إحدى السفن السوفيتية التي رست في ميناء صغير في شمال كندا يدعى «بورت الفريد»، وعلى هذا فمعرفة التفاصيل لن تكون سوى تحصيل حاصل.

غير أن قسمًا آخر من الرجال رأى الأمر على العكس من هذا، فلقد كانت النتائج معروفة منذ البداية، بداية العثور على الخيط الأول لقصة هذه الجاسوسة الفريدة، وما كان البحث عن التفاصيل وإنفاق كل هذه الأموال والوقت الذي استغرق شهورًا بعد شهور، إلا للحصول على صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة... لا لمعرفة أسلوب المخابرات السوفيتية فقط، ولكن لإعطاء الأجيال الجديدة من رجال المخابرات، أمثلة جيدة وبارعة في الأداء... خاصة أن «إيلين» رفضت رفضًا حاسمًا، أن تكون لها أية علاقة بالسفارة السوفيتية في أوتاوا، ولقد كان هذا في حد ذاته شيئًا لا بد من وضعه في الاعتبار، لا لشيء، إلا لأن بعض العمليات التي قامت بها هذه الجاسوسة، مثل اختطاف «فاسيلي» وإخراجه من كندا - كانت تحتاج بالفعل إلى المساعدة... لكنها باعتمادها على نفسها، أعطت مثلًا ناصعًا في كيفية إدارة شبكة التجسس في دولة معادية... فإذا أضيف إلى هذا، أن «تانيا راديونسكا» أو «إيلين إيستمان» لم تكلف وطنها دولارًا واحدًا بعد استقرارها في أوتاوا، معتمدة تمام الاعتماد على دخلها الذي كان يتزايد يومًا بعد يوم من محل بيع الملابس الداخلية للسيدات، وجدنا أنفسنا أمام أداء مثالي، يندر أن يتحقق في هذا الحقل الخطر!

وعلى كلٍّ فلقد انتصر الرأي الثاني، وانطلقت مجموعة من الرجال تبحث وراء تلك العلاقة بين «فاسيليف إيفانوف» و«إيلين إيستمان»... ولقد كان أهم ما يميز هذه المجموعة، هو إحساس كل فرد منهم بالتحدي!

وكانت البداية التي لا بد منها مع «آنّا إيفانوفنا»... زوجة «فاسيلي».

وبالرغـم من الحزن والحـيرة والقلق من اختفاء زوجها فإن هذه السـيدة كانت شـديدة الحرص على التـزام الموضوعية... فلقد قالت إنها أحسـت في الفترة الأخيرة، قبل اختفاء «فاسـيلي»، أن ثمة شـيئًا هامًّا يشـغل باله، لم يكن هو الحب الذي سيطر عليه بمثل هذا القدر وشتت أفكاره، كان شيئًا آخر بدا لهـا غامضًـا وإن كانت ترجح أنه كان التفكير في ذلـك المشروع الخطير الذي كان يعمل فيه... قالت إنه شكا لها أكثر من مرة، أن هناك من يحاول اختلاس ثمرة جهده ونسـبتها إلى نفسـه، وكان هذا يقلق «فاسـيلي» إلى حد كبير لكنها أبدًا لم تفكر، ولم تشعر أن «إيلين» لها علاقة بالموضوع.

وعندمـا سـألها المحقـق إن كان «فاسـيلي» قـد تحـدث أمـام «إيلـين» عن مشروعـه ذاك، أجابـت بأن هـذا قد حدث فعلًا، فلقـد كان يعاني من تجاهل زملائه ورؤسائه مما كان يدفعه إلى الحديث عن جهده وفكره المستباح بحماس شديد، وكانت «إيلين» في تلك المرات التي تحدث فيها عن هذا المشروع تبدو كأنها لا تفقه شيئًا مما يقول، حتى لقد قالت له ذات مرة:

-«فاسيلي»... أليس هذا الذي تقوله من الأسرار الهامة للدولة؟!

-نعم هو كذلك!

-أليس من الخطر أن تبوح بهذه التفاصيل السرية؟!

-هو خطر إذا كان من أتحدث إليه جاسوسًا!

-وما يدريك أني لست جاسوسة؟!

قالت «أنّا إيفانوفنا» إنهما -«فاسيلي» وهي- ظلا يضحكان في تلك الليلة حتى دمعت عيونهما.

وقــال واحــد من أصدقاء «فاسـيلي»، وكان قد حضر ذلك العشــاء الذي حضرتــه «إيلين»، إن «فاسـيلي» جاءه ذات يوم وكان يبــدو مهمومًا، وطلب منه اصطحابه إلى إحدى الحانات... وهناك راحا يثرثران في أمور شتى، حتى سأله «فاسيلي» فجأة:

-ماذا لو أني قلت لك إن «إيلين إيستمان» روسية؟!

-لن أصدق، وسأقول إنك مجنون!

كان هــذا الصديــق يرى أن «إيلــين» بريطانية حتى النخاع، غير أن سـيل الأسـئلة الذي انهمر على ذلك الصديق، جعله يعترف أن «فاسـيلي» صارحه بحبه الشــديد لـ «إيلــين»، لكنه أكد له في نفس الوقت، أنــه لم يصارحها بهذا الحب خوفًا من سيطرتها عليه.

وعلى كلٍّ، فلقد كاد الرجال يركنون إلى اليأس عندما عثروا على أرملة في الخامســة والسـتين من عمرها تسـكن في الدار المقابلة لبيت «إيلين»... ولقد اعترفــت هذه السـيدة أن الوحــدة التي كانت تعــاني منها بعد وفــاة زوجها، دفعتهــا إلى مراقبة الجيران، كان أمرٌ يبعث على الخجل حقًّا، لكنه كان تسـلية ممتعة في نفس الوقت.

ولقــد اضطــر الرجــال إلى مصارحتها أن الأمــر يمس أمــن الوطن حتى تعــترف بما كانت تــراه، وبقليل من الدهــاء راحت هذه السـيدة تحكي، وقد انفكــت عقدة لســانها، وقالت أنــه في الأيام الأخــيرة، قبــل أن تختفي «إيلين

إيستمان»، لاحظت أن هذا الشـاب -كانت تقصد «فاسيلي» بعد أن عرضوا عليهـا صورته فتعرفت عليه- كان كثير التردد عـلى «إيلين»، وأنها اضطرت ذات مساء إلى الصعود إلى الطابق العلوي، وأن تستعمل النظارة المعظمة كي تراقب ما كان يحدث بينهما، قالت هذه السيدة التي تحمل اسم «مسز ووكر»، إن الـذي استفزها ودفعها إلى مراقبة «إيلين» و«فاسـيلي» بـإصرار، أن الفتاة كانت حريصة على إسـدال السـتائر، مما كان يمنع الرؤية... لكن هذا لم يمنع - من اسـتعمال النظارة المعظمة، من رؤية ظلال الأشـخاص المنعكسـة على الستائر... قالت «مسز ووكر» إن «إيلين» كانت فتاة مهذبة ومؤدبة ولا غبار عليها، وكانت قليلة الأصدقاء لا تتدخل في شـئون الغير، ولم يزرها بشـكل شبه منتظم سوى شاب أسمر يبدو كأنه من أمريكا الجنوبية -وكانت بالطبع تقصـد «فرناندو كورتيـز»- وكان هو الآخر مهذبًا إلى حد بعيد، لكنه لم يكن يمكث سوى ساعة أو ساعتين في كل زيارة ثم ينصرف في هدوء.

وعندما سئلت «مسز ووكر» عن أية ملاحظات خاصة لفتت نظرها بالنسبة لهـؤلاء الذيـن كانوا يـزورون «إيلين» قالت إنهـا كانت، مع المران واسـتمرار المراقبة، تسـتطيع أن تفهم من حركات الذين تشاهدهم طبيعة الحديث الدائر بينهم، وأن آخر مرة زار «فاسيلي» فيها هذه الفتاة المهذبة، نشبت بينهما مشادة انتهت بأن غادر هذا الشـاب البيـت، وكان واضحًا أنه يهدد «إيلين»... ولقد عرفت هذا، لأن «إيلين» نسـيت أن تسـدل السـتائر في تلك الليلة، ولا بد أن الخلاف بينهما كان محتدمًا إلى حدٍّ أنساها أن تفعل ذلك!

... ...

... ...

بعد بضعة أسابيع استطاع الرجال أن يجمعوا قطع الصور المتناثرة من هنا وهناك، من زوجة «فاسيلي»، من عاملات المحل اللاتي اعترفن بأنه أحيانًا كان يزور «مس إيستمان» في أوقات العمل، من «مسز ووكر»، ومن الأصدقاء والزملاء... ثم أضيف إلى كل هذا، ما حمله رجل المخابرات الذي لجأ إلى الغرب... وكانت الصورة التي تكونت أقرب ما يكون إلى الواقع الذي حدث!

■ ■ ■

كان الحديث عن الوطن والحنين إليه، ذلك الحديث الذي بدأ بين «إيلين» من ناحية و«فرناندو» و«فاسيلي» من ناحية أخرى، هو البداية المثالية لدخول عالم «فاسيليف إيفانوف» الذي اتصل بعد ذلك بـ «إيلين» شاكرًا إياها لأنها منعته من الاندفاع في الحديث أمام «فرناندو»... كان الشاب ممتنًّا بالفعل لهذه اللفتة التي أقدمت عليها «إيلين»، وشيئًا فشيئًا نجحت إيلين في السيطرة على فاسيلي، ولقد قال رجل المخابرات السوفيتي الذي لجأ إلى الغرب، إن «إيلين» أمطرت الرئاسة في موسكو بكم لا بأس به من التقارير حول ذلك المشروع الذي كان «فاسيلي» يعمل به... غير أن كل المعلومات التي أرسلتها كانت ذات طابع عام، ولا تصلح للاعتماد عليها في الوصول إلى كنه هذا الجهاز الجديد. كانت الرئاسة في حاجة إلى معادلات وحسابات ومعلومات دقيقة... وهنا، طُلب من «إيلين» أن تطير إلى باريس لمقابلة مندوب من الرئاسة!!

وبالفعل، فبعد بضعة أسـابيع، وصلت إلى «إيلـين» دعوة من أحد بيوت الأزياء الباريسية الشهيرة، ردًّا على طلب منها لتوزيع منتجات هذا البيت في كندا، تطلب منها إدارة هذا البيت الحضور إلى باريس لإتمام الصفقة!

كان كل شيء في تلـك الدعـوة حقيقيًّـا مائـة في المائـة، خطـاب «إيلـين» والدعوة، والموعد أيضًا!

وطـارت «إيلين» إلى باريس لمدة ثلاثة أيام أجرت فيها مفاوضات لم تكن شاقة مع المسـئولين في بيت الأزياء، وانتهت بحفل عشاء صغير مع صاحب هذا البيت وقع فيه العقد... لكن أحدًا لم يعرف، أنه في الغرفة المجاورة لغرفة «إيلين» في الفندق الذي نزلت فيه، كان ينزل رجل مخابرات سوفيتي كان قد وصل خصيصًا للقائها!

كان الحـوار، كـما كان الاختـلاف هـذه المـرة، عـلى عكس مـا حدث مع «فريدريك هينرتش» تمامًا.

ذلـك أن وجهـة نظـر «إيلين» جنحـت هذه المـرة إلى المغامـرة بمصارحة «فاسـيلي» بتعامله مباشرة مع الـ «كي. جـي. بي»... وكانت حجتها في هذا، أن «فاسـيليف إيفانوف»، يشـعر فعلًا بالحنين إلى الوطن الذي لم يره ولم يولد عـلى أرضـه... كانـت تجربتها معـه -هكذا قالـت- تؤكد أن ذلـك الروسي الأبيـض، يحمل في صدره حنينًـا جارفًا نحو أرض الوطن... ولقد قالت فيما قالت في ذلك اللقاء الذي استمر حتى ساعة متأخرة من الليل، أن حوارًا دار بينها وبين «فاسيلي» حول هذا الأمر، عندما سألته ذات مرة:

-فاسيلي، أريد منك إجابة صريحة وواضحة لسؤال يبدو لي هامًّا للغاية!

-أعدك بهذه الصراحة وهذا الوضوح «إيلين»!

-إن ذلك الجهاز العبقري الذي تعمل فيه، سوف يرصد -على بعد مئات الأميال- الطائرات أو الدبابات الروسية، بمعنى أنه مشروع ضد وطنك!

-ماذا تريدين أن تقولي بالله عليك؟!

-ألم يتحرك ضميرك مرة، ألم تشعر أنك تخون أبناء هذا الوطن وتعرضهم للإبادة بأسلحة أعدائهم؟!

وقع «فاسيلي» في الحرج، تردد طويلًا في الإجابة، ذلك أن «إيلين» كانت حريصة كل الحرص على ألا تستعمل كلمة الاتحاد السوفيتي، بل كانت كلمة روسيا هي السائدة في المناقشات بينهما، مما كان له أكبر الأثر في التأثير على ذلك الشاب المسكين الذي أجاب بعد ثوانٍ ساد فيها الصمت قائلًا:

-أقسم لك أني لم أبح بمثل هذا الإحساس، حتى لنفسي!

-وما هو هذا الإحساس؟!

نهض «فاسيلي» وكان يبدو قلقًا، وقف إلى جوار النافذة المطلة على الطريق قال وكأنه يحدث نفسه:

-ذات ليلة، كنت قد توصلت فيها إلى حل مشكلة رياضية خاصة بعمل هذا الجهاز، أحسست أني أقيد أبناء وطني بسلاسل خفية، حتى لا يجيدوا الدفاع عن أنفسهم!

-وماذا عن كندا؟!

التفت نحوها محتدما:

-استمعي إليّ أيتها الفتاة الشديدة الذكاء... أنا لا أصدق أن هناك أمريكيًّا أو كنديًّا يعطي ولاءه كله للوطن الجديد، دون أن تكون هناك في صدره، مساحة للوطن الأم!

همت بالحديث لكنه أردف:

-وأنت... أنت لا تستطيعين أن تنكري أن ما أقوله حقيقي!

-ثـــــم؟!

هكذا سألت «إيلين» فأجاب:

-ثم لا شيء سوى الحيرة والتمزق!

قالت «إيلين» لرجل المخابرات القادم من موسكو، إنها قررت في تلك الليلة، أن تصارح «فاسيلي» بحقيقة الأمر، وأن تطلب منه التعاون مع المخابرات الروسية -لا السوفيتية- لولا ذلك الالتزام الصارم بعدم الإقدام على مثل تلك الخطوة، إلا بعد استئذان الرئاسة!

ولقد استمع الرجل في صمت، حتى إذا ما انتهت «إيلين» من طرح وجهة نظرها، كانت المفاجأة التي لم تتوقعها، أن الرئاسة في موسكو ترى عكس ما تراه هي. قال الرجل:

-لعلك لا تعرفين أن هؤلاء الروس الذين هربوا من الثورة البلشفية، ربما يصبحون أكثر عداء للاتحاد السوفيتي من الأمريكيين أنفسهم!

-أليست هناك مبالغة في مثل هذه النظرة؟!

-إنهم نوع من اثنين... إما أن يكونوا من سلالة القياصرة... وهؤلاء يحملون بالطبع عداء تقليديًّا للثورة التي أطاحت بعرشهم وأعدمت آخر

قياصرتهـم... وإما أنهم ينتمون إلى تلك الطبقة التي كانت تعتمد على النظام القديم للحصول على امتيازات تجعلهم أكثر شراسة من القياصرة أنفسهم!

هكذا دار الحوار بين «إيلين» والمسـئول القادم لمناقشتها... غير أن الحوار انتهـى هذه المرة إلى موقف مختلـف... ولما كانت وجهة نظر «إيلين» هي التي ثبت صحتها في حالة «فريدريك هينرتش»، فلقد فضلت الرئاسة في موسكو أن تطرح عليها وجهة نظرها، وتوضح لها المحاذير، ثم تترك لها حرية الاختيار بين وجهتي النظر!

وعادت «إيلين» إلى أوتاوا مسلحة بعقد مع بيت الأزياء الفرنسي، والذي بـدأ تنفيذه على الفور، فأضيـف إلى محل بيع الملابس، أنواع باريسـية جعلت الإقبال يزداد والأرباح تتكاثر، كما كان في يدها -من ناحية أخرى- تفويض للتصرف مع «فاسيلي» بالأسلوب الذي تراه مناسبًا.

وكان الغريب في الأمر... أن وجهة نظر المسـئولين في موسـكو هذه المرة، كانت هي الصحيحة. مما دفع «إيلين» إلى اسـتعمال القوة، لشـحن «فاسـيلي» المسكين إلى موسكو في مغامرة اتسمت بخطر محقق!

24 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ إيلين تقع في الحب!

كان لابد للأمر أن يتطور بسرعة بعد عودة «إيلين إيستمان» من باريس... ذلك أنها كانت تملك الآن الضوء الأخضر من الرؤساء في موسكو، كما أنها -أيضًا- كانت تملك الوسائل والإمكانيات وحرية الحركة معًا... ولذلك، فلقد انطلقت فور عودتها إلى أوتاوا، إلى الاستعداد لمواجهة «فاسيليف إيفانوف»!

وإذا كانت هذه الفتاة البالغة الجرأة، قد وجدت في التخلص من «فريدريك هينرتش» و«چون وايت» بالقتل حماية لها ولشبكتها الثمينة... فإنها رأت أن التخلص من «فاسيلي» لن يفيد في شيء، وكان تقريرها أن الاستفادة منه ومن عالمه، أهم بكثير، وربما آمن من القتل... ولذلك، فلقد أبرقت بعد بضعة أيام من وصولها إلى أوتاوا تطلب من موسكو تحديد موعد مع سفينة سوڤيتية تكون في زيارة لشواطئ كندا، كي يتسلم مسئول على درجة كبيرة، شحنة آدمية ثمينة لو اقتضى الأمر ذلك فيما هو قادم من أيام.

كان الأمر غريبًا بالنسبة للرؤساء في موسكو، ذلك أن «إيلين» تصرح في باريس بأن في نيتها اختطاف أحد، حتى لقد قال واحد من هؤلاء الرؤساء أثناء مناقشة الأمر: «يبدو أن هذه الفتاة تريد أن تجلس على مقعد المدير هنا!!»... وعلى كلٍّ، فلقد رحبوا بالأمر بطبيعة الحال، ورغم أنها لم تذكر من هو صاحب الشحنة الآدمية، فإنهم أيقنوا أنه لابد أن يكون «فاسيليف إيفانوف»!

وكالعادة لعبت المصادفات دورها في خدمة «إيلين»... ذلك أن السفينة السوفيتية «يالتا» كانت ترسو في ذلك الوقت في ميناء تورنتو الذي يطل على مياه بحيرة أونتاريو في جنوب كندا، وكان عليها كي تخرج إلى المحيط، أن تبحر شمالًا إلى ما يعرف باسم الـ «سي. واي» تلك القناة التي تربط فيما بين بحيرة أونتاريو ونهر سانت لورانس الذي يصب في المحيط الأطلسي، كي تمر -على شواطئ النهر- ببضعة موانئ أهمها ميناء «مونتريال»، ثم من بعده شمالًا ميناء كيوبيك، ويبقى بعد ذلك ميناء «ثري ريفرز»، ومن بعده «بورت ألفريد» الذي يقع بالقرب من المحيط... وبعد دراسات استمرت بضعة أيام، وجد أن هذا الميناء الأخير، هو أنسب مكان لتلقي الشحنة رغم بعده عن أوتاوا!

ما هي إلا أيام، حتى كان كل شيء جاهزًا للتنفيذ، فلقد طار مندوب خاص من وزارة الخارجية السوفيتية إلى العاصمة الكندية في عمل استغرق بضعة أيام، ثم ركب السيارة إلى مونتريال التي كانت السفينة «يالتا» قد وصلت إليها، فاستقلها عائدًا إلى الوطن!

وتحسبًا لكل المفاجآت، فلقد استدعت «إيلين» واحدًا من فريق الحماية كان يعمل في الحوض الجاف بميناء مونتريال... كان رجلًا ضخم الجثة، مفتول العضلات، أحمر الشعر، من أصل نيوزيلاندي، قاسي الملامح، وكان اسمه -«چورچ وات»- هكذا قالت «مارجريت فريش» التي قتلت «فريدريك هينرتش» بالسم، والتي أسندت إليها «إيلين»، مع «چورچ وات»، مسئولية حمل «فاسيلي» في سيارة مجهزة إلى ميناء بورت الفريد الذي يبعد عن أوتاوا مئات الأميال!

كانت الخطة التي وضعتها «إيلين»، تتلخص في أن يستأجر «چورچ وات» سيارة ذات جرار يستعمل كغرفة للنوم والمعيشة، وأن يدعي أنه وزوجته -«مارجريت فريش»!!!- يقومان برحلة في ربوع كندا تنتهي عند ميناء «بورت ألفريد» القريب من مصب نهر سانت لورانس في المحيط الأطلسي.

بعد بضعة أيام وصلت السفينة بالتالي إلى مونتريال، وصعد إليها ذلك الدبلوماسي السوڤيتي الذي استقبل استقبالًا عاديًّا لا يلفت الأنظار التي انبثت من حول السفينة... وظلت «يالتا» راسية في مونتريال لثلاثة أيام، ثم أبحرت نحو الشمال.

كانت «إيلين» الآن تحسب الوقت بالساعة وربما بالدقيقة... فذات ليلة، وكان الحوار بينها وبين «فاسيلي» قد وصل إلى نقطة حساسة قال لها الشاب الممزق الوجدان:

-«إيلين»... لست أدري إلى أي طريق تقودنا هذه المناقشة العقيمة!

-إذن فلنكف عن المناقشة!.

-ليـس هـذا يا «إيلـين» حقًّـا، ولكنك ألقيـت بي في أتون للحـيرة لم أعد أستطيع احتماله!

-إذن... فلنكف عن المناقشة كي تتخلص من حيرتك!

سدد «فاسيلي» إليها نظرة حائرة وتوسل قائلًا:

-ما الذي تبغينه بالله عليك؟!

-لا شيء ربما كنت أعاني مما تعاني منه أنت!

-هل تفكرين في العودة إلى إنجلترا؟!

-وهل تفكر أنت في العودة إلى روسيا؟!

-أنت تستطيعين العودة إلى الوطن، ولكني لا أستطيع حتى ولو أردت!

-لمـــاذا؟!

-لأن السوفيت سوف يعدمونني فور وصولي!

-ومن يدريك؟!

-ألم تقرئي ما فعله الشيوعيون بالقيصر وبالشعب الروسي؟!

-كان هـذا منـذ قرابـة نصـف قرن... ثـم إنها كانـت ثورة، ولـكل ثورة ظروف وأحكام!

-اللعنة... لا تدفعيني إلى الجنون بالله عليك!

-أنت تعمل على إبادة بني وطنك!

-أليست كندا وطني؟!

-لك حق الاختيار!

اندفع «فاسيلي» نحوها، ركع على الأرض قبالتها، كان يرتجف انفعالًا، قال:

-«إيلين»، إني على يقين من أنك تعلمين كم أعاني من حبك!

انتظر لثوانٍ ريثما يرى رد فعل الكلمة فيها فلم يجد سوى ابتسامة لا معنى لها، فهتف ناهضًا:

-نعـم... أنا أحبك «إيلـين»، ولذلك أرجوك أن تكفي عن مناقشـة هذا الموضوع!

-ولكنك تتعذب!

-فهل لديك مخرج!

-لم لا ترسل بأسرار هذا المشروع إلى روسيا!

-ولكن هذه خيانة!

-لمـــن؟!

-أسـقط في يد «فاسـيلي»... ولقـد قالت «أنّـا إيفانوفنـا» إن زوجها عاد في الليلـة السـابقة على اختفائه شـاحبًا، وكان بادي العصبيـة، وإنها حاولت عبثًا أن تعرف منه سـبب عصبيته، فلقد طلـب منها، في حنان زائد، أن تتركه وحده... لكنه في اليوم التالي حدثها تليفونيًّا من عمله قائلًا إنه سـوف يتأخر بعض الوقت... كان «فاسيلي» قد قضى ليلة عصيبة بحق... ولذلك، فعندما انتصـف النهار التالي، تحدث إلى «إيلين» طالبًا لقاءها بعد الخامسـة... ولابد أن تلك الفتاة قد أدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت... قبل الموعد بساعة كانت في البيت استعدادًا لاستقبال «فاسيلي» الذي فاجأها بقوله:

-هل أنت روسية؟!

قدمـت له «إيلين»كأسًـا كانـت قد أعدتهـا، وكانت الـكأس تحتوي مادة مخدرة... قالت باسمة:

-وماذا لو كنت كذلك؟!

-إذن فأنت جاسوسة!

قال هذا وهو يتناول الكأس منها كالمنوم، فقالت وهي ترفع كأسها قبالته:

-لم لا نشرب نخب روسيا؟!

في تحد رفع «فاسيلي» كأسه قائلًا:

-سوف أشرب نخب روسيا لا الاتحاد السوفيتي!

ألقى الكأس في حلقه ثم نظر نحو «إيلين» في أسى بالغ، ثم قال:

-لقد راودني الشك منذ فترة، لكني أبيت أن أصدق شكوكي!

-هل يقلل هذا من شأن علاقتنا؟!

وكأنه لم يسمع قال وهو يضع الكأس فوق المائدة:

-آسف «إيلين»، ليس أمامي إلا أن أبلغ السلطات!

قال هذا، ثم سقط فوق المقعد، وراح في سبات عميق.

... ...

... ...

كان «چورچ وات» مع «مارجريت فريش» جاهزين لاستقبال الشـحنة التي اسـتغرقت يومين للوصول إلى ميناء «بـورت ألفريد»... وقبل أن تصل السـفينة «يالتـا» إلى مصب سـانت لورانس، أعلنـت السـلطات الكندية أن

عطلًا قد حدث بإحدى الماكينات، وأنها تطلب الإذن بالدخول إلى أقرب ميناء لإصلاح العطل الذي لم يستغرق إصلاحه أكثر من ثلاث ساعات، أبحرت بعدها السفينة إلى عرض المحيط، وعلى ظهرها صندوق حُمل إليها سرًّا... وكان بداخله مهندس إلكتروني أصله روسي يدعى «فاسيليف إيفانوف»... والذي ما إن فتح عينيه، وكان قد قطع رحلة شاقة في جرار وثير، حتى هتف:

-أين أنا؟!

وطالعه على الفور وجه جميل، لمرضة شقراء، شديدة الشبه بـ «إيلين إيستمان» والتي أجابت بالروسية:

-مرحبًا بك في أرض الوطن أيها الرفيق «فاسيليف إيفانوف!»

■ ■ ■

لم يكن ممكنًا أن تستمر نجاحات «إيلين» إلى ما لا نهاية، وكان لابد أن يحدث ما يكسر القاعدة في حياة هذه الفتاة العجيبة... فبعد اختفاء «فاسيلي»، عاد كل شيء إلى طبيعته في حياتها... عادت «مارجريت فريش» و«چورچ وات» من رحلتيهما مكللين بنجاح دفع «إيلين» إلى أن تمنح كلًّا منهما مكافأة سخية... وكان اختفاء «فاسيلي» قد أثار ضجة تحدثت بها الصحف لأيام ثم خفت كل شيء... وكانت «إيلين» مع إثارة الضجة، قد أوقفت نشاط شبكتها تمامًا. وعادت لقاءاتها مع «فرناندو كورتيز» إلى وتيرتها، ولم تنسَ بطبيعة الحال صديقتها «أنّا إيفانوفنا»، فكانت تزورها بين الحين والحين للاطمئنان عليها وسؤالها على آخر أخبار البحث عن «فاسيلي» العزيز!

ولقـد مضت أيام طويلة عندما كانت «إيلـين» تجلس ذات يوم في مكتبها بالمحـل، وقد اقترب وقت انتهاء العمل، عندما دلف إلى المحل شـاب طويل القامة، كستنائي الشـعر، غزيـر الشـارب، تحمل ملامحه سـمات رجل قوي الشكيمة، وإن كانت تحمل -في الوقت نفسه- جاذبية من نوع خاص.

كالقضـاء والقدر حـدث ما حدث، فما إن رأتـه «إيلين» حتى نهضت من مكانهـا حتى تكون في اسـتقباله... ولقد قالت إحدى العاملات تصف تلك اللحظة:

-لقد خيل إليّ كما لو كانت «مس إيستمان» قد عثرت بعد طول انتظار على حلم تحقق فجأة!

وقالت عاملة أخرى:

-لم أر «مـس إيسـتمان»، منـذ أن تعرفـت عليهـا، مضطربـة إلا في ذلـك اليوم!

أما مديرة المحل، وكانت سيدة في الأربعين من عمرها، فقد بدت مندهشة وهي تعيد على مسامع المحققين ما حدث بالضبط:

-لقـد كنـت دائـمًا معجبة بهـا، فرغـم صغر سـنها، فإنها كانـت تتصرف بحنكة سيدة مجربة... وفي ذلك اليوم، لم يكن باقيًا على انتهاء ساعات العمل سـوى نصف ساعة، وكانت هي تجلس في مكتبها مستغرقة في مراجعة ملف الفواتـير، وعندمـا رفعت رأسـها ورأتـه، أزاحـت الأوراق جانبًا، ونهضت واقفـة... لقـد ظننت أنها تعرفه، فقـد اندفعت لتغادر مكانهـا حتى تكون في استقباله، ولذلك أومأت إلى الفتيات أن يفسحن لها الطريق!...

كان الوصـف غريبًا عـلى من كانت مثل «إيلين» التـي بدت -كما أجمعت الفتيـات- كالمأخوذة وهي تتقدم لاسـتقبال الرجـل وكأن رموش عينيها قد تحولت إلى مخالب تشبثت بوجهه، قالت في صوت مضطرب:

-ما الذي أستطيعه من أجلك يا سيدي؟!

ارتبـك الرجـل الذي كان في حـوالي الثلاثين من العمـر، ثم علت وجهه ابتسـامة خفيفـة سرعان ما اتسـعت كي تشـمل ملامح الوجه كلـه... بدا في لحظة وكأنه هو الآخر قد عثر على ضالته... حاول أن يتحدث فلم يسـتطع، خرجت من بين شفتيه كلمات تناثرت بلا معنى، هتفت «إيلين»:

-هل تريد هدية لزوجة أو خطيبة؟!

كأنه ينفي تهمة عن نفسه أجاب:

-لا لا... لست متزوجًا، ولست مرتبطًا أيضًا!

-ماذا إذن؟!

كانت متلهفة لإجابته فقال:

-إنها لأمي... وهي في الخمسين من العمر... و... و...

تـضرج وجهه بحمرة خجل امتزجت بالضحكات الخافتة من بين شـفاه الفتيات، بينما أشرق وجه «إيلين» بسـعادة لم تستطع إخفاءها... وسرعان ما استحثته قائلة:

-نعـــم...

-إنها... إنها على وشك أن تتزوج!

-واه...

هكذا هتفت الفتيات فالتفت الشاب نحوهن موضحًا:

-لقد أنفقت أمي عمرًا كاملًا دون ارتباط من أجلي... وأنا أريد أن أؤكد أني أبارك زواجها هذا... فرأيت أن خير وسيلة لأن... إن... فـ...

ولم يكمل الرجل، فأسعفته «إيلين» بقولها:

-إني أعرف بالضبط ماذا تريد!

ثـم التفتت نحو الفتيات. وراحت تصدر لهن أوامرها... وكان ما تطلبه، مجموعـة كاملة من أفخر الملابس الداخلية للسـيدات، لكـن عينيها لم تبارحا وجه الشاب الوسيم!

كانت «إيلين» قد وقعت في الحب!

وكانـت تبـدو سـعيدة... لكنهـا لم تكن تـدري أنها تضع قدمهـا في دائرة الجحيم ذاته!

25 - قاتلة باردة الأعصاب!

■ الرقصة القوقازية!

عندما سئل الملازم «ويليام كلارك» عن علاقته بـ «إيلين إيستمان»، كان الشاب -رغم مرور الوقت- مازال يعيش تلك الأزمة العاطفية التي خلفها اختفاء «إيلين» المفاجئ... وكان طبيعيًّا أن يطرح الرجال الأمر على حقيقته بين يديه، فلقد كان الشاب ضابطًا في الشرطة الكندية، فوق أنه شارك في بعض العمليات الأمنية... ولقد مثل الأمر بالنسبة إليه صدمة حقيقية، ولقد قال بداية إنه لم يشك في «إيلين» لحظة، وراح يتساءل ويسأل إن كان في الأمر خطأ ما... تمامًا مثلما فعل «فرناندو كورتيز» الذي رفض أي اتهام لـ «إيلين» رغم اعترافه أنها أهملته في الفترة الأخيرة، وهو ما دفع أحد المحققين إلى القول بأن الرجل هو الرجل، سواء أكان كيميائيًّا مثل «فرناندو»، أم رجل أمن مثل «المستر كلارك»!

وعلى كل حال فلقد أجمع الشهود على أن قصة الحب بين «إيلين» و«كلارك» قد انفجرت انفجارًا غير متوقع في ذلك المساء الذي التقيا فيه مصادفة لأول مرة، فقبل أن ينصرف «ويليام» من المحل، كانت «إيلين» قد

أعطتـه أرقـام تليفوناتها جميعًا، في البيـت والمحل على السـواء، قائلة إنها على استعداد لاستبدال البضاعة لو أن والدة السيد «كلارك» رغبت في اقتناء نوعٍ آخر، وكان طبيعيًّا أن تحصل هي الأخرى على أرقام تليفوناته!

قال «ويليام كلارك» إنه في تلك الليلة حمل هديته إلى أمه، وكانت سعادتها بالغة، كما كان انفعالها شديدًا حتى لقد ارتمت بين ذراعيه وقد دمعت عيناها، لأن هديتـه كانـت تنم عـن حب وتشـجيع حقيقيين، وكانـت مباركة ولدها الزواج، هي كل ما تصبو إليه تلك السيدة الرقيقة!

تـرك «كلارك» والدتـه وعاد إلى مسـكنه الصغير الذي كان قد اسـتأجره منذ بضعة أشهر عندما استشعر أن أمه وقعت في الحب، وأن مشروع ارتباط بينها وبين صديقها أصبح يلوح في الأفق... غير أنه ما إن انفرد بنفسه في تلك الليلة، حتى أحس برغبة شديدة في رؤية «إيلين» والتحدث إليها... كان هذا الشرطي المشـهود له بالكفاءة، من ذلك النوع المتحفظ من الشـباب الذي لا يـترك لعواطفه العنان، فلم يكن هناك سـبب للحديث إليهـا، فلقد أعجبت الهديـة أمه وإن كانت قد لامته برقة لأنه دفـع مبلغًا كبيرًا من المال... وكانت صورة «إيلين» وهي تتحدث إليه في المحل، وذلك الإحسـاس الذي اجتاحه اجتياحًا، يلحان عليه إلحاحًا متصلًا... ولذلك، فما إن انقضت سـاعة، حتى كانت مقاومته قد انهارت، فرفع سماعة التليفون، وطلب «إيلين».

كانـت المفاجأة التي أدهشـته، أن الدقة الأولى لجـرس التليفون لم تكن قد اكتملـت عندما رفعت «إيلين» السـماعة... وجاء صوتهـا من الطرف الآخر هاتفًا في تساؤل:

-ويليام؟!

رجف «ويليام كلارك»، تردد لثوان، استحثته بعدها متسائلة وقد داخلها الشك:

-ويليام كلارك؟!

كان النداء واضحًا، بل كان صارخًا... فها هي تناديه باسمه الأول دون ألقاب كأن كلًّا منهما يعرف الآخر منذ سنوات، أخيرًا جاء صوته مرتجفًا بعض الشيء:

-كيف عرفت أنه أنا؟!

-كنت في انتظارك!

-لم يكن في نيتي أن... ... ...

قاطعته:

-لكني كنت موقنة من أنك سوف تفعل!

-في الحقيقة لقد كنت... ... ...

-ما رأيك في دعوة غير منتظرة على العشاء؟!

لم يتردد «ويليام كلارك»، قال:

-كيف أصل إليك؟!

ألقت إليه بعنوانها، فأعاد السماعة إلى مكانها، وانطلق بسيارته في الطريق وكأنه يمتطي السحاب!

وكان اللقاء في تلك الليلة عاصفًا!

هكذا قال الشرطي الحزين!!

■ ■ ■

الغريب في الأمر، أن «إيلين إيستمان» كتبت تقريرًا عن هذا اللقاء إلى الرؤساء في موسكو... حقًّا إنها لم تذكر شيئًا عن ذلك اللقاء العاطفي، لكنها ذكرت أنها تعرفت على ضابط في الشرطة الكندية يحتل مركزًا مرموقًا، وأنها دعته على العشاء كما فعل هو ذلك أيضًا.

وبالنسبة للرؤساء في الـ «كي. جي. بي»، فلقد كان الشاب صيدًا ثمينًا بحق... كان ثمة معلومات يريدون الحصول عليها بشدة، خاصة تلك المعلومات التي عز على السوفيت الحصول عليها عندما لجأ كاتب الشفرة في السفارة السوفيتية في أوتاوا إلى الحكومة الكندية، وكان هذا قبل وصول «إيلين» بعام وبعض العام، والتي أحاط بها غموض لم يستطع السوفيت الكشف عن حقيقته... وعلى هذا، فلقد جاء الرد عليها بالاستمرار في علاقتها بهذا الشرطي، ومحاولة معرفة ما الذي حدث بالنسبة لكاتب الشفرة هذا، ولم ينس الرؤساء أن يحذروا جاسوستهم الثمينة... ذلك أن الرجل شرطي مهما كان الأمر، وأي خطأ في التصرف، قد يفتح الشك طريقًا إلى عقله!

لم يكن صعبًا على «إيلين» أن تعرف الحقيقة كاملة من صديقها وفي زمن قياسي، ليس فقط لأن السيد «كلارك» كان ضمن المجموعة التي عملت على حماية كاتب الشفرة بعد لجوئه إلى السلطات الكندية، ولكن لأن مركزه

-الآن- كان يتيح له معرفة الكثير من الأسرار التي كان يثرثر بها في المساء مع حبيبته بعد عناء يوم شاق!

ولقد قالت إحدى العاملات في محل بيع الملابس الداخلية للسيدات... إنها شاهدت إيلين أكثر من مرة، تتناول العشاء مع «مستركلارك» في مطعم ذي مستوى رفيع كانت تعمل فيه كساقية بعد انتهاء عملها في محل بيع الملابس!...

وقال مدير أحد النوادي، إنه تعود أن يرى «السيد كلارك» -وكان يعرفه جيدًا- وهو يراقص «إيلين» كلما تناولا العشاء في النادي، حتى لقد كان معروفًا لدى جميع العاملين معه، أنهما شبه مخطوبين.

أما «فرناندو كورتيز»، فلقد شحب وجهه قليلًا وهو يقول:

-نعم... أحسست في الشهور الأخيرة أن العلاقة بيني وبين «إيلين» قد فترت إلى حد ما!

وعندما سأله المحقق عما كان يعنيه، زفر قائلًا:

-لم يكن الفتور من ناحيتي على كل حال!

-هل حدث بينكما شجار ما؟!

استنكر «فرناندو» الكلمة، هتف محتجًا:

-ما الذي تعنيه بهذه الكلمة؟!

-أعني ذلك الشجار الذي يحدث عادة بين اثنين متحابين بين الحين والآخر!

-... لم يحدث مثل هذا الأمر!

-ألم تعرف سبب الفتور؟!

كان الألم الآن صارخًا على وجه «فرناندو»، غمغم وكأنه يحدث نفسه:

-لقد كنت مدركًا منذ البداية، أنني -مهما كان الأمر- من أمريكا الجنوبية!

-وما الذي يعنيه هذا؟!

صاح «فرناندو» في عصبية:

-لم لا تسأل فتياتكم؟!

وهكذا أغلق التحقيق مع «فرناندو»!

■ ■ ■

قـال أحـد الرجال في موسـكو أثنـاء اجتماع نوقشـت فيه علاقـة «إيلين» بـ «ويليام كلارك»:

-إني أشم رائحة غريبة في علاقة «تانيا راديونسكا» بهذا الشرطي!

فرد عليه آخر:

-مـا هـي الغرابـة في أن يطلب منها الـزواج؟!... لابد لنـا أن نعترف أن «تانيـا» تعيش معه حياة عاطفية كاملـة، وأننا لم نعترض على هذا منذ البداية، والأمر الطبيعي، مادام الرجل يحبها أن يطلب منها الزواج!!

وهتف ثالث:

-نحن نقول إنه يحبها... فمن يدرينا أنها لم تقع في حبه هي الأخرى؟!

كانـت «إيلـين» قد أرسـلت إلى الرؤسـاء في موسـكو، تقـول إن «ويليام كلارك» عـرض عليهـا الزواج، وأنها -على العكس ممـا كانت عليه دائمًا- لا

تعـرف بم تجيـب، إن المعلومات التي تحصـل عليها منه، تبـدو مفيدة وهامة للغاية، وفي الوقت نفسه، فهي تخشى من تأثير هذا الزواج على أدائها!!

ولقـد قال رجـل المخابرات السـوڤيتي الذي لجأ إلى الغـرب فيما بعد، إن الرأي انقسـم بين الرجال في المخابرات السوڤيتية، وإن جزءًا منهم كان محبذًا لإتمام الزواج، بحجة أنه سوف يدعم وجود «إيلين» في كندا، ويعطيها شرعية في التحرك كيفما شـاءت، خاصـة إذا ما كانت زوجة رجل شرطة مهم... أما القسـم الآخر، فلقد كان يخشـى من انكشاف أمر «إيلين» إذا ما عاشت تحت سقف واحد، مع رجل أمن يمتلك حاسة شم لأي تصرف غريب!!

وعـلى كل... فلقد تأجل اتخاذ قرار خاص بهذا الموضوع، حتى حدث ما لم يكن متوقعًا

... ...

... ...

لم يبذل «مسـتر ويليام كلارك» الشرطي بإدارة الأمن الكندية جهدًا كبيرًا كي يتذكر تلك الليلة الفاصلة... قال إنه و«إيلين» كانا -منذ أن التقيا- يعيشان في حالـة سـعادة دائمة... وإن كلًّا منهما كان يشـعر أنه -أخـيرًا- قد عثر على نصفـه الآخر الذي كان يبحث عنـه... وبالرغم من أن «إيلين» لم تعطه جوابًا حاسـمًا بالنسـبة لطلب الزواج، فإن الأمر بدا وكأنه واقع لا محالة... حتى إذا ما كانت ليلة دعاها فيها لتناول طعام العشاء في أحد النوادي الراقية... وكانا -في غمرة حبهما- قد أحسـا أنه قد آن الأوان لأن يعيشا شبابهما... فهي، من ناحيتها، تحملت المسئولية مبكرًا، كما أنه -كرجل شرطة له وظيفة ذات طابع خاص- كان يتحفظ كثيرًا في سهراته... حتى كانت تلك الليلة الغريبة!

راحـت الفرقـة الموسـيقية تعزف لحنًـا هادئًـا... وكان كل مـن في الحلبة يرقصـون في جـو حالم عندما انقلب الأمـر فجأة، وأخذت الفرقة الموسـيقية تعزف لحنًا من تلك الألحان الصاخبة التي يعشقها الشباب.

توقـف «ويليـام كلارك» عـن الرقـص، فهـو لم يتعـود أن يـؤدي مثـل تلك الرقصـات التـي يتقافز فيها الشـباب كالمجانين، غير أنه فوجئ بـأن «إيلين» قد صاحبت اللحن الصاخب، وراحت ترقص داعية إياه لمشاركتها تلك الرقصة!

توقف الشرطي الشاب قليلًا عن الحديث ثم استطرد:

-لسـت أدري في حقيقـة الأمـر مـا الذي حـدث... ربما كنا قد احتسـينا الكثـير من الـشراب، وربما كانت سـعادتنا فوق طاقتنا عـلى الاحتمال فرحنا نعـبر عنها... لقـد فوجئت بـ«إيلين» وهـي تتقافز في رقصتهـا وكأنها تمتلك الدنيا بأسرها، ولم يكن هناك طريق سـوى مشـاركتها تلك اللحظات البالغة الجمال!

قـال «ويليـام كلارك» هذا ثم راح يحكـي كيف كانت عيناهـا الزرقاوان تلتمعـان كمصباحـين منيرين، وكيـف انحل شـعرها وراح يتطاير من حول وجهها كأسـلاك من ذهب وقد تصاعدت الدمـاء إلى وجهها فبدت صاعقة الجـمال... ولقـد قـاوم الشرطـي الشـاب في البداية، لكنـه لم يسـتطع إلا أن يشـاركها فلم يكن أقل منها سعادة... راحا يرقصان ويرقصان بلا توقف... وبلـغ مـن إتقان «إيلين» لرقصتهـا، أن توقف كل الراقصـين والراقصات في الحلبـة مـا عداها... وإذ بهـا، في لحظة نشـوة، وقد تغير اللحن إلى موسـيقى قوقازية، ترقص تلك الرقصات الشديدة العنف التي يتقنها الروس، خاصة أهـل القوقـاز... حاول «ويليام كلارك» أن يشـاركها لكنـه في النهاية اضطر

إلى التوقـف ومشـاركة الجميع في التصفيـق على إيقاع الموسـيقى، بينما كانت هـي ترقـص في عنف ودقة وإيقاع أذهل كل من كانوا في النادي، إلى حد دفع الجالسـين إلى الموائد، إلى ترك مقاعدهـم، والانضمام إلى الحلقة التي أحاطت بـ «إيلـين»، وإذا بهـا تدور في الحلبة، تصول وتجول في عنفوان وكأن شـيطانًا قوقازيًّـا قد تلبسـها... حتى إذا ما انتهت الرقصة، ألقت بنفسـها بين ذراعيه وقد تعالى تصفيق الجميع...

كانـت الآن تلهث، وكانت تتصبب عرقًا وهي تسـتند إلى صدر «ويليام» الذي صحبها إلى المائدة وسـط إعجاب الحاضرين جميعًا، كان الشـاب ممتلئًا حبًّـا وامتنانًـا، لأن الأقـدار أوقعته في مثل هـذه الفتاة الرائعـة... حتى إذا ما جلسا معًا إلى المائدة، هتف مداعبًا إياها:

-هل أنت موقنة من أنك بريطانية ولست قوقازية أيتها الساحرة؟!

قال «ويليام كلارك» إنه في حقيقة الأمر لم يقصد سوى مداعبة «إيلين»... لكن الذي أدهشـه حقًّا، هي تلك النظـرة الغريبة التي أطلت من عينيها وقد تقلصت كل ملامحها، ورشفت من كأسها رشفة سألته بعدها:

-ما الذي دفعك إلى مثل هذا القول؟!

حـاول الشرطي الشـاب أن يجيـب، ولم يكن هنـاك ما يمكـن قوله... ما لبـث أن هـز كتفيه في لا مبالاة بما يعنـي أنه لم يقصد شـيئًا بالتحديد... ولقد تظاهرت «إيلين» بأنها تناسـت الأمر، وعادا إلى ما كانا فيه لكنها -أبدًا- بعد تلـك الليلـة، لم تعد «إيلين إيسـتمان» التي تعرف عليهـا وأحبها وعاش معها طوال شهور لم يعش أسعد منها!!

■ ■ ■

كان الرجال في موسكو بعد دراسة استمرت لأسابيع، قد اتخذوا قرارًا بالموافقة على زواج «إيلين» من «ويليام كلارك»، غير أنه -قبل أن يرسلوا إليها بما استقر عليه الرأي- وصلهم منها تقرير تحكي فيه كل ما حدث في تلك الليلة... وكان السؤال الذي ألقاه «ويليام كلارك» دون قصد سببًا في إعادة الحسابات مرة أخرى!

وإذا كانت علاقة «إيلين» قد استمرت بـ «ويليام كلارك»، فإن القرار في موسكو كان حاسمًا وقاطعًا!... فما هي إلا أيام حتى وصلتها برقية بالغة الاختصار، برقية تقول:

-تخلصي من كل شيء قبل انقضاء أربعة أسابيع!

كان معنى هذا أن تبيع «إيلين» البيت والمحل والسيارة.

كان معناه، أن تركب الطائرة في طريق العودة إلى موسكو

ولقد فعلت!!

باعت كل شيء دون أن يدري مخلوق أو يشعر حتى أقرب الناس إليها... وقبل أن يتسلم المشترون المحل والبيت، كانت قد اختفت تمامًا!

■ ■ ■

عندما وصل المحققون إلى هذه النقطة، تساءل أحدهم عن مصير «إيلين»، فقال أحد زملائه وهو يحمل معطفه فوق كتفه مغادرًا المكان وقد أغلقت كل الملفات:

من يدري... ربما ظهرت في مكان آخر، في قارة أخرى، باسم جديد وملامح جديدة، كي تمارس عملها!.

الفهـــرس

أحدث إصدارات

الأستاذ

صالح مرسي

- زقاق السيد البلطي، رواية.
- دموع في عيون وقحة
  رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- الصعود إلى الهاوية
  رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- السجين، رواية.
- البحار مُندي وقصص من البحر.
- نساء في قطار الجاسوسية، رواية.
- الكذّاب، رواية.
- الخوف، (مجموعة قصصية).
- السير فوق خيوط العنكبوت.
- رحلات السندباد البري.
- خطاب لرجل ميت.
- قاتلة باردة الأعصاب.